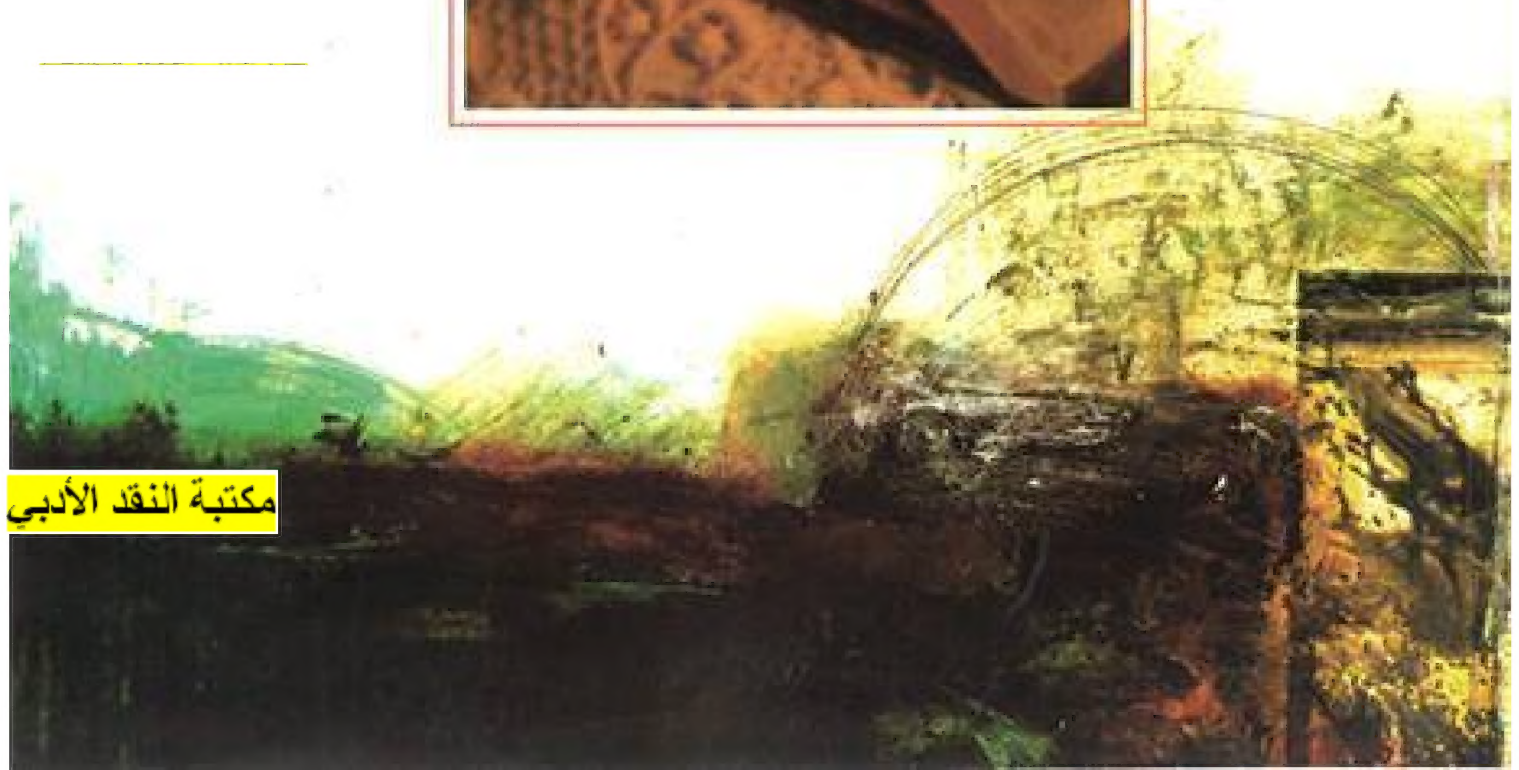


الدكتورة
نعيمة سعدية
أستاذ محاضر في اللغويات وتحليل الخطاب
جامعة بسكرة / الجزائر

التحليل السيميائي والخطاب



التحليل السيميائي والخطاب

الدكتورة

نعيمة سعدية

أستاذ محاضر في اللغويات وتحليل الخطاب

جامعة بسكرة / الجزائر

عالم الكتب الحديث

Modern Books' World

إربد - الأردن

2016

الكتاب

التحليل السيميائي والخطاب

تأليف

نعيمة سعدية

الطبعة

الأولى، 2016

عدد الصفحات: 274

القياس: 24×17

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية

(2015/5/2371)

جميع الحقوق محفوظة

ISBN 978-9957-70-972-3

الناشر

عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع

إربد - شارع الجامعة

تلفون: (27272272 - 00962)

خلوي: 0785459343


فاكس: 27269909 - 00962

صندوق البريد: (3469) الرمزي البريدي: (21110)

E-mail: almalktob@yahoo.com

almalktob@hotmail.com

almalktob@gmail.com

 facebook.com/modernworldbook

الفرع الثاني

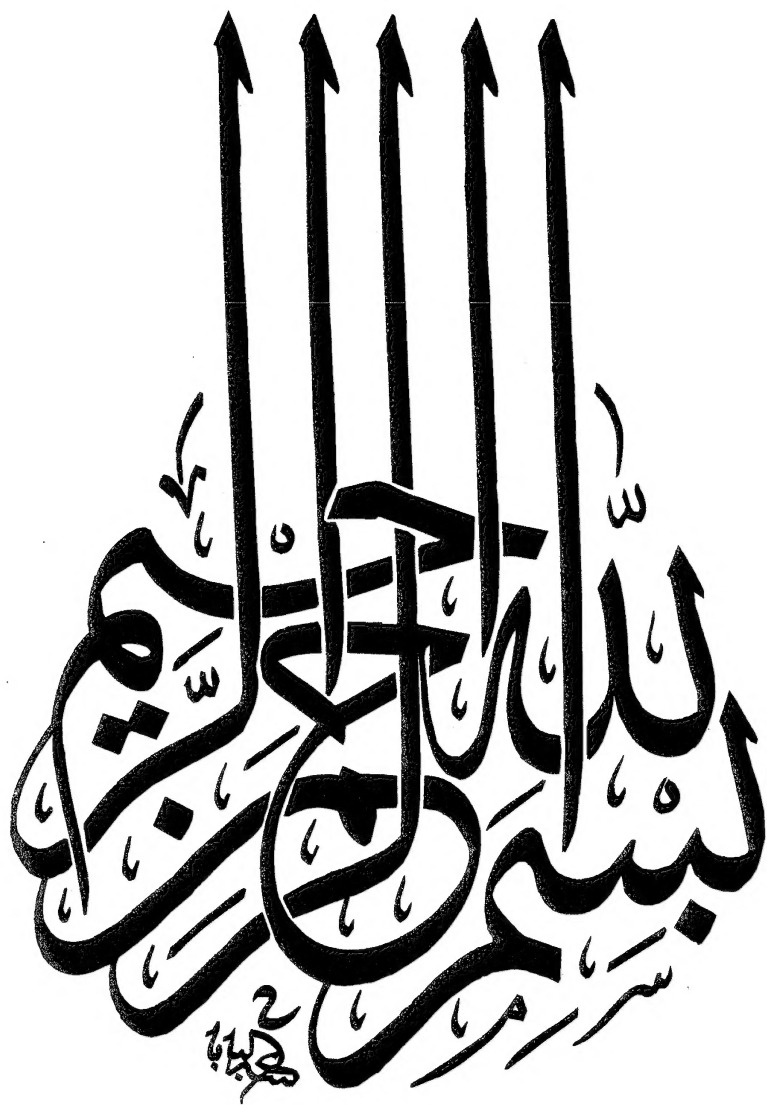
جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع

الأردن - العبدلي - تلفون: 079 / 5264363

مكتب بيروت

روضة الغدير - بناية بزي - هاتف: 00961 1 471357

فاكس: 00961 1 475905



دعاء

اللهم لا تجعلنا نصاب بالغرور

إذا نجحنا

ولا باليأس إذا أخفقنا

اللهم إذا أعطيتنا نجاحا

فلا تأخذ تواضعنا

وإذا أعطيتنا تواضعا

فلا تأخذ اعتزازنا بكرامتنا

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
1	مقدمة
3	المحور الأول
	تحليل الخطاب بين الممارستين: الغربية والعربية
25	المحور الثاني
	الخطاب السردى والقراءة السيميائية
25	المقاربة الأولى: الخطاب الروائى من المناص إلى التناص
25	أولاً: استيراطية المناص فى رواية: "الولى الطاهر يعود إلى مقامه الزكى للطاهر وطار"
45	ثانياً: التناص والخطاب الروائى تجلياته فى رواية "الولى الطاهر..."
108	المقاربة الثانية: السيمياء والشخصية السردية
108	أولاً: سيمياء الشخصية فى رواية: "وجهان لعنقاء واحدة لعبد الكرىم ناصف
129	ثانياً: سيمياء شخص الراوى المحور الرابع الاشتغال السيميائى للأهواء فى قصة "شاهد رأى بقلبه لعلى زغينة
141	المحور الثالث
	الاشتغال السيميائى للأهواء فى الخطاب السردى
	- مقارنة فى القصة النسوية -
141	أولاً: سيمياء الأهواء ورهانات تحديد الدلالة الممكنة
167	ثانياً: الاشتغال السيميائى للأهواء فى الخطاب الأنثوى
191	المحور الرابع
	الخطاب البصرى والمقاربة السيميائية
191	أولاً: الخطاب الكاريكاتورى العربى: الأنساق والتأويل
134	ثانياً: الصورة .. وفخ الهوية

239

ثالثاً: الصورة ومبدأ الترويج للهوية

255

خاتمة

257

المصادر والمراجع

المقدمة:

الحمد لله الذي أنعم علينا بالعلم وجعلنا نبصر به الطريق، ولا علم إلا ما علمنا، سبحانه نسأله أن يديمه علينا لنتنفع به وننفع به غيرنا، والصلاة والسلام على خير الأنام، سيدنا محمد صلى اله عليه وسلم؛

الخطاب ممارسة فكرية لغوية ثقافية، وسيلة أساس في تعلم اللغة وتعليمها، إلا أن الخطابات/ أو النصوص تتفاوت في النمط (إخبار - وصف - حوار - تحاجج.. الخ)، وفي القيمة، وفي التأثير، وفي التصنيفات، ولا يتم تحليل أي خطاب إلا في ضوء نظرية متكاملة بآلياتها ومفاهيمها ومبادئها، لتساعد المحلل على خلق تحليل منسجم، وتصور واضح.

ونحن نقرأ الخطاب نرى ما الذي نحاول فهمه؟ وأي تصور سنحقق؟ عن أي أمر نبحث؟ وهل في هذا التحليل سنعلن احترامنا للخطاب أم أننا سنسقط رؤى الخطاب اللغوي العادي غير المنفعل على خطاب غير عادي منفعل بكل الأحاسيس من الذات المبدعة والذات القارئة؟

فان ما يشهد انتباهنا أثناء قراءة كل عمل إبداعي جديد، وهو ذلك الزخم من النصوص المتداولة في متنه، التي يستحضرها الأديب عن قصد أو عن غير قصد، فالنتيجة التي نسلم بها هي لا وجود لعمل إبداعي جديد كل الجدة، ولا وجود له بمعزل عن غيره من النصوص السابقة، وهذا ما تداوله البحوث السيميائية.

ذلك أن السيمياء هي دراسة للسلوك الإنساني باعتباره حالة ثقافية منتجة للمعاني؛ ففي غياب قصدية - صريحة أو ضمنية - لا يمكن لهذا السلوك أن يكون دالا، أي مدركا باعتباره يحيل على معنى، والسيمياء في تعاملها مع الخطاب بوصفه عملية دلالية معقدة، انفتحت على المستحدثات المنهجية والمعرفية، فاستطاعت التحرر من القيود البنيوية وأيديولوجياتها الصارمة، ليموضع الفضاء الوسطي في هذه العملية التحليلية بين البنيتين: البنية السطحية (المكون الابستمولوجي) والبنية العميقة (المكون الخطابية)، والمهم أساسا هو النمذجة الخطابية وتنظيمها العاملي أي ما يميز العامل بفعله وحده (وليس برواسبه النفسية)، وهذا الشرط الأساس لتطوير سيميائية العمل، في سبيل الوقوف على

بعض التمهصلات الممكنة بين عالم الشعور وعالم الإدراك الحسي، غير المعروفة بعد في السيمياء معرفة جيدة⁽¹⁾؛

ذلك أن الخطاب عبارة عن نسيج لغوي، لعبة مفتوحة ومغلقة في الوقت ذاته، ولهذا فمن المحال ان تكتشف النسب الوحيد والأول له، فليس له أب واحد، أو أصل واحد، بل مجموعة من الأصول والأنساب تتشكل على هيئة طبقات جيولوجية، يصطف بعضها فوق بعض، نصوص سابقة استحضرها الناص، والتي كانت لها الفاعلية في بلورة المنتج الإبداعي حتى وصلنا تحفة فنية، تربط الماضي بالحاضر لتسلط الأضواء الكاشفة على خبايا الأمور. من هذا المنطق ستكون دراستنا التي نريد بها الوصول إلى الاستنتاج السيميائي الممكن لبعض الخطابات اللغوية منها والبصرية.

وفي الأخير، أسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى ما فيه الخير والسداد، وأسأله العليقدير الصدق في القول والعمل، والمساهمة في نشر علوم اللغة العربية وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(1) جاك فونتاني، سيمياء المرئي، ترجمة: علي أسعد، دار الحوار، سورية، ط1، 2003، ص219.

المحور الأول

تحليل الخطاب بين النظرية الغربية

والممارسة العربية:

تحليل الخطاب.... ما هو؟

تحليل الخطاب (discours analysis) مصطلح جامع ذا استعمالات عديدة، يشتمل على مجالات واسعة من الأنشطة: التداولية - السيميائية - اجتماعية - نفسية - أسلوبية... الخ. إنه في استفاضة دائمة: موضوعا، مجالا، علما، منهجا، يسعى في اجتماع جزئيه اللتان ساهمتا بشكل فعال في تكوينه، إلى تحليل وفك شفرة الخطاب من أجل فهمه، على اختلاف أنواعه: (أدبي / شعري / نثري)، سياسي، إخباري، اجتماعي - نفسي، تعليمي، علمي... الخ. حتى لا نقف عند هذا الأخير (الخطاب) مكتوفي الأيدي وعاجزين لا نملك آليات التحليل، ولا قدرة على القراءة والتأويل، باعتباره خطابا متماسكا، غاية في التعقيد والتشابك.

يقول سعيد علوش: "إن وقفة عابرة على نص صيني هيرغليني، سانسكريتي لتجعلنا نقف كمحاربين منزوعي الأسلحة، مدهوشين أمام كنوز، لا نمتلك مفاتيحها، وكذلك الأمر أمام نوتات موسيقية، وضعت بين يدي رسام، أو إشارة أبكم إلى أعمى"⁽¹⁾ أمام مثل هذه المقولة، نتساءل: ماذا نريد بتحليل الخطاب؟

أ - الخطاب: لم يكن هذا المصطلح أوفر حظا من مصطلحات كثيرة علمية لسانية، نقدية معاصرة، على المستويين: المصطلح - المفهوم؛ فقد حضي بتعريفات متعددة، بتعدد التخصصات وزوايا الرؤيا؛ إذ هو المصطلح الذي نشعر بابتعادنا عن كنهه، كلما حاولنا

(1) صدوق نور الدين، في النص وتفسير النص، الفكر العربي المعاصر (نص النقد / نص النقد)، مركز الإنماء القومي، بيروت، حزيران 1990، عدد 76 / 77، ص 22.

الاقتراب منه وتعريفه، لذلك يقول ميشال فوكو (micheal voco): "بدل أن أقلص تدريجياً من معنى كلمة خطاب (discours) وما لها من اضطراب و تقلب أعتقد أنني قي حقيقة الأمر أضفت لها معان أخرى بمعالجتها أحياناً كمجال عام لكل العبارات وأحياناً كمجموعة من العبارات الخاصة، وأحياناً أخرى كممارسة منظمة تفسر وتبرر العديد من العبارات"⁽¹⁾، الأمر الذي يؤكد هذا الاضطراب في تحديد مفهوم الخطاب لدى فوكو؛ هو صعوبة وضع المصطلح تحت لواء مفهوم واحد، الأمر الذي جعل العديد من الباحثين - في نية تحديد مفهوم له، مقابلته بمصطلحات أخرى عديدة: الكلام، الملفوظ، النص، اللغة، القصد، المجتمع... إلخ؛ إذ أن الخطاب يعتمد على نقاط مرجعية تقع خارج نطاقه، وداخله.

وهذا ما جعل ما يكل شورت (mecheal short) يذهب إلى أبعد من هذا. بقوله: الخطاب اتصال لغوي، يعتبر صفقة بين المتكلم والمستمع، نشاطاً متبادلاً بينهما، وتتوقف صيغته على غرضه الاجتماعي⁽²⁾؛ فالخطاب تجربة دينامية تساهم فيها أطراف متعددة عن طريق التفاعل، من أجل تحديد الأدوار: مؤلف، خطاب، قارئ، (مستمع)؛ هذا الأخير الذي يسعى دائماً - إلى تحليل الخطاب من أجل الوصول به إلى أقصى حد ممكن من المقروئية وقوفاً على كل الرؤى والبنى، التي ساهمت في هذا النتاج الفكري / التواصل المتنوع: (دين، تراث، اقتصاد، مجتمع، قيم، مذاهب، مبادئ، أبعاد... الخ).

ب - التحليل: ويعني لغة - الفتح - جاء في لسان العرب "حل العقدة محلها حلاً: فتحها ونقضها فانحلت"⁽³⁾ أي فككها؛ فالتحليل يعني التفكيك؛ تفكيك الشيء إلى مكونات جزئية، تتيح لنا معرفة بنياته الداخلية (الصغرى والكبرى)، والخارجية، وبنية التفاعل فيما بينهم، يقول صامويل باتلر (samewal. bateler): "يجب أن ندرس كل شيء في ذاته قدر الإمكان، وأن ندرسه - كذلك - من حيث علاقته؛ فإذا حاولنا النظر إليه في ذاته مطلقاً،

(1) سارة ميلز، الخطاب، ترجمة: يوسف بغول، منشورات غبر الترجمة في الأدب واللسانيات، جامعة متنوري، قسنطينة، 2004، ص 05.

(2) المرجع نفسه، ص 03.

(3) ابن منظور الإفريقي المصري (جمال الدين ابن مكرم)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط 1، 1997، المجلد، ص 143.

وبقطع النظر عن علاقته، فإننا سنجد أنفسنا شيئاً فشيئاً قد استنقذناه فهما ودراسة، وإذا حاولنا النظر إليه من خلال علاقاته فقط، فسنعكش أنه لا توجد زاوية في هذا الكون إلا وقد احتل مكانه فيها⁽¹⁾.

والتحليل مصطلح جامع يستدعي في ممارسته مصطلحات عديدة، بإجرائه عملية اسقاطية على ما يسمى الخطاب؛ إذ تسعى هذه العملية إلى تفكيك الخطاب المحبوك المتماسك (شكلاً ودلالة)، المكتوب والمسموع إلى بنيات جزئية فاعلة ومتفاعلة: داخلية وخارجية، من أجل معرفة مختلف المرجعيات الخطابية (الأسس المعرفية والخلفية والأطر النظرية للخطاب)، التي ساهمت في تشكيله، بمعرفة: مضامينه - محتوياته - غاياته - معايير - فضائه - بنياته - جنسه.... الخ، ليتحقق التحليل؛ الأمر الذي يجعل العملية غاية في التشابك والتعقيد، تتطلب من أجل التحكم فيها، معرفة موسوعية عميقة في التخصص تحوفاً معارف رافده أخرى، من جهة؛ والتحكم في ممارسة بعض المصطلحات التي، يقودنا إليها التحليل - كمصطلح جامع - من جهة أخرى، منها:

1- القراءة: أصبحت القراءة في الدرس المعاصر، فعل معقد مغالي في التشابك. وفي اللغة يقال: "قرأت أي صرت قارئاً ناسكاً. تقرأ: تفقه: قرأت: تفقّهت"⁽²⁾؛ فالقارئ لم يعد مجرد مستهلك للنص، إنه المنتج، كذلك؛ يعمل على إخراج هذا النص، ذا الطقوس، المتباينة والمتضامنة والمتفاعلة: الفنية الجمالية، النفسية، الاجتماعية، السياسية، الروحية... الخ إلى عالم الممكن.

وعلى هذا النحو ينبثق تركيب النص ومعناه من وصف القارئ وفعاليته، لا سيما في النصوص التي تتميز بالعمق والتعقيد في الشكل والمعنى، بوصفها تبديداً ونشراً لمتجاورات لا يتأتى تحليلها إلا بوعي وإدراك؛ إذ تترك الارتباطات الباطنة لخيال القارئ، ومن خلال التداعيات والارتباطات، يركب كل قارئ نصاً مختلفاً عن

(1) جوليان بروان وجورج يول، ترجمة: محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 1997/1418 ص ك.

(2) ابن منظور لسان العرب، المجلد الخامس، ص 219.

الآخر⁽¹⁾؛ فبذلك انفتحت الخطابات على الاختلاف والمغايرة، لأن الخطاب فضاء وثقوب ومساحة مفتوحة، وقراءته تتيح لقارئه الولوج إلى عالمه، والتجريب في حقله والتنزه في منعرجاته، والتعرف إلى تضاريسه، واختبار موقع ما على خارطته، وإذا كان النص يحتمل أكثر من قراءة، فكل قراءة منطق نفوذها داخل النص، ولكل قارئ إستراتيجيته الخاصة وراء قراءته،، فالقراءة تسمح بالاختيار والترحال والاغتراب⁽²⁾ طبقاً لما يسعى القارئ إلى تحقيقه في لحظات الكشف والرؤيا، والخطاب ليس مساحة مسطحة تشف عن معناها، أو عمقا يختبئ فيه المعنى، وإنما هو حيز تتعدد سطوحه، وعمق لا قرار له، ولا قرار فيه، يحاول القارئ -باعتباره الوارث الشرعي له، تفسيره وتشكيله في وعيه وفق مرجعياته ورؤاه، والقراءة هي أول الفهم، والفهم "إنتاج المعنى" هذا الذي نجده تموضع بين معنى الكاتب، والمعنى المسبق للقارئ.

2- الشرح: وهو الكشف، يقال شرح فلان أمره أي أوضحه، وشرح مسألة مشكلة: بينها، وشرح الشيء: فتحه وبينه وكشفه... وشرحت الغامض إذا فسرتة⁽³⁾؛ فممارسة الشرح تعد وهي ذاتها عملية التفسير والتأويل رغم التفاوت.

3- التفسير: وهو الإبانة والكشف ولفظ التفسير بمعنى الإيضاح والتبيين والتفصيل، وفي الاصطلاح ارتبط لفظ التفسير بشرح القرآن الكريم وبيان إعجازه، وأحكامه ومعرفة أسباب نزول آياته، وترتيب سروه؛ باعتباره (التفسير) عملاً للفكر، يقوم على فك شفرة المعنى المحتجب بالظاهرة، وحيثما يتعدد المعنى يوجد التفسير، الذي يجعل هذه المعاني المتعددة تتجلى وتتكشف⁽⁴⁾؛ لأن اللغة ليست مجرد مرآة تعكس الفكر، أو

(1) عاطف جود نصر، النص الشعري ومشكلات التفسير، الشركة المصرية العالمية للنشر، لوجمان / مكتبة لبنان ناشرون، مصر/ بيروت ط1، 1996، ص26.

(2) عبد الكريم درويش، فاعلية القارئ في إنتاج النص (المرايا الامتناهية) مجلة الكرمل، مؤسسة الكرمل الثقافية، فلسطين، صيف 2000، العدد64، ص222.

(3) ابن منظور، المرجع نفسه، المجلد الثالث، ص416.

(4) عاطف جود نصر، النص الشعري ومشكلات التفسير، ص38.

وعاء يحمل المعاني، بل إنها الفكر والمعنى متجليين في وحدة التضائيف، فاللغة في حقيقتها - تعبير عن اتساق الفكر.

والتفسير ضرورة من ضرورات النص؛ إذ يقتضي استكناه المعاني الذي يحويها النص في صلبه، هذا المعنى الذي يعتبر حياة النص كما تصورها المبدع، ويجلوها المفسر لأن التفسير، وإن كان وضعاً للنص يعمل على إكساب النص قيمة أدبية يتضمنها ولا يفصح عنها، إلا التفسير في حالة ممارسته على النص، ولا يتحقق التفسير إلا بعد الفهم؛ فليس التفسير - في هذه الحالة - سوى إعادة إنتاج لما في النص⁽¹⁾ والنص يستدعي التفسير، كما يستحضر التفسير النص؛ فلا يمكن للتفسير أن يوجد على بياض، إنه يحضر بحضور النص، ولا مكانه للنص إلا متى تأكد التفسير، ويرى البعض أن لا فرق بين الشرح والتفسير؛ باعتبار أن مقصدية الشرح هي ذاتها مقصدية التفسير.

التأويل: الأول هو الرجوع، وأوله وتأوله: فسر. جاء في لسان العرب التأويل والتأويل وتفسير الكلام الذي تختلف معانيه، ولا يصح إلا بيان غير لفظه، وأولته تفسير ما يؤول إليه الشيء، وقد أولته تأويلاً بمعنى، والتأويل المرجع والمصير. وتأوله (أوله): فسر. والتأويل والمعنى والتفسير واحد⁽²⁾، ويرى البعض أن التفسير يستهدف المعنى في وضوحه وجلالته والتأويل اجتهاد غايته إمداد القارئ بأكثر من معنى، وفي حدود معطيات النص⁽³⁾، هذا ما يجعل التأويل - في الدرس المعاصر - قائماً على إعادة ما نملكه من رصيد معلوماتي وبلورته في سياق التجربة لإعطاء سلطة النص صفة التحرر من قيود خلق الصور، التي تحفز الانعكاس الإدراكي لمعنى التأويل. إنه الأمر الذي يسعى إليه القارئ الخدق؛ ذا الفهم العالي والحس اللغوي المدرب، النابع من واقع الكشف بعد الفهم والإدراك.

(1) صدوق نور الدين، في النص وتفسير النص، ص 26.

(2) ابن منظور، المرجع نفسه، المجلد الأول، ص 134.

(3) صدوق نور الدين، في النص وتفسير النص، ص 24.

أمام كل هذا لا يسعنا إلا أن نتساءل: في الخطاب ما الذي نسعى إلى فهمه ونحن نقرأ؟ هل نفهم الموضوع أم نحاول أن نفهم أنفسنا؟ وهل نفهم الخطاب الذي نقرأ أم نفهم مجهولا ما متعاليا نصل إليه بالقراءة الحذقة والتفسير والتأويل؟ هل بالقراءة والشرح والتفسير والتأويل نقدم تحليلا؟ إذ ما هو تحليل الخطاب؟

يحاول جوليان براون (Jullian Brown) وجورج يول (George yule)، وضع تصور للكيفية التي يستعمل بها الناس اللغة للتواصل - في إطار تقديم نظرية لتحليل الخطاب - إذ يرونه مجالا يشمل مجالات عديدة من الأنشطة؛ فتحليل الخطاب - عندهما - يستعمل للحديث عن أنشطة تقع على خط التماس بين دراسات مختلفة. كاللسانيات الاجتماعية واللسانيات النفسية، واللسانيات الفلسفية، واللسانيات الإحصائية، والمهتمون بمثل هذه الدراسات المختلفة يركزون بحثهم جميعا على جوانب شتى في الخطاب.

ويعمدا بعد ذلك إلى تطبيق هذا التوسيع بقولهما: أما نحن فمقاربتنا لتحليل الخطاب في هذا الكتاب مقارنة لسانية بالدرجة الأولى، فنحن نعالج فيه كيفية استعمال الناس اللغة أداة للتواصل، وكيف يؤلف المتكلم رسائل لغوية يوجهها إلى المتلقي، فيقوم هذا بمعالجتها لغويا على نحو خاص لتفسيرها⁽¹⁾ في إطار منهج تحليل الخطاب، لذلك توجب عليهم طرق باب التحليل في كل علم وإبراز اهتماماته المحورية:

- فتحليل الخطاب عند علماء اللسانيات الاجتماعية يعني الاهتمام ببنية التفاعل الاجتماعي - خاصة - والمتحققة بوسائل أهمها الحوار.
- وعلماء اللسانيات النفسية يتجه اهتمامهم - في تحليل الخطاب - إلى قضايا تتصل باللغة والإدراك. - ويهتم محللو الخطاب من فلاسفة اللغة، بالعلاقات والدلالة القائمة بين أزواج من الجمل، وخصائصها النظمية، والعلاقات بين الجمل والواقع؛ وذلك لمعرفة ما إذا كانت الجمل أداة لتقرير أحكام يمكن تقييمها بناء على سلم من معايير الصدق والكذب، فهم يدرسون تلك العلاقات بين مجموعات من الجمل التي

(1) جوليان براون جورج يول، تحليل الخطاب، ص ي.

يستعملها متكلمون نموذجين، لمخاطبة متلقين نموذجيين، في سياقات نموذجية قليلة التحديد⁽¹⁾.

- وعلماء اللسانيات الإحصائية ممن يعمل في مجال تحليل الخطاب، يهتمون بمعالجة نماذج خطابية استعملت في سياقات محددة جدا.

فنظرية براون ويول في "تحليل الخطاب" نظرية فتحت الأبواب على كم هائل من التعريفات لمجال يسمى "تحليل الخطاب" لم يستطع الكتاب الحامل لاسم هذا المجال الواسع، تحديدها والتقليص منها. ولا حتى توضيحها، بشكل يسهل فهمها. الأمر الذي دعا الباحثان إلى إدراج إشارات كان لا بد منها. في آخر عرضهما لهذه النظرية:

أولها: الاستفادة من بعض الجهود في مجال تحليل الخطاب، التي أضاعت لهما الجوانب في كيفية معالجة الخطاب، واستعمال اللغة فيه، باعتبار إنهما قد حددا مجال عملهما. ألا وهو المجال اللساني في التواصل.

ثانيها: أن كل الأساليب المقترحة -من قبلهما- قد فتحت في المقابل عددا أكبر من المساحات المظلمة في نطاق الفهم؛ لأن الخطاب "ظاهرة معرفية اجتماعية مركبة"⁽²⁾ والمعرفة تمس كل ماله علاقة بالإنسان والوعي والإدراك. والمجتمع أرضية خصبة متنوع التضاريس والمظاهر.

وآخرها: أن التركيز في دراستهما. كان على قضايا لها صلة بالإحالة، وقضايا متصلة بالتماسك المعنوي، والتناسب واستعمال اللغة، وهذا يعني عدم التطرق إلى عدة قضايا أخرى، تحظى بعناية الدارسين المهتمين بالتفاعل القائم بين علمي التركيب/ الدلالة، قضايا: الهوية، الزمن، صيغة القول، تحديد الكمية، النفي، الوصف عن طريق الظروف، وقضايا المجاز وفهم الخطاب... الخ.

وهي إشارات زادت من زعزعة استيعاب مفهوم "تحليل الخطاب"، لكنها أبعدت المؤلفين من مطب حصر مجال تحليل الخطاب في استعمال واحد. وجعله مساويا لأي مجال

(1) المرجع نفسه ص 01.

(2) المرجع عينه، ص 324.

آخر. وذات الأمر توصل إليه باتريك شارودو (patrich charaudeau) في قوله: 'فيما يتعلق بمجال تحليل الخطاب، الذي أوجد به الآن، فاني أرى كل شيء جدير بالدراسة؛ لقد عانيت بالنصوص المكتوبة بخاصة في المرحلة الأولى. بعد ذلك اهتمت ولازال بظواهر التخاطب بين الناس، وهذا بالموازاة مع الاهتمام بالخطابات المكتوبة، الآن أعنى بتحديد الأدوار اللغوية (rôles langagiers) التي هي نقطة التمثيل بين النفسي - الاجتماعي واللغة'.⁽¹⁾

في حين ذهب الكثيرون إلى جعل تحليل الخطاب يتساوى مع مجال آخر أحيانا، وإعطائه تعريفا غير محدود، من بينهم تعريف هاتش (hatch): 'تحليل الخطاب هو دراسة لغة التواصل سواء أكانت محكية أم مكتوبة'⁽²⁾ والسؤال ما طبيعة الدراسة؟ هل تركيزنا على القارئ. النص، أم المؤلف؟

ويعرفه سيتوبس (stubbs) على أنه 'التحليل اللغوي للخطاب سواء أكان محكيا أو مكتوبا، ويهدف إلى دراسة البنية اللغوية على مستوى يتعدى مستوى الجملة إلى مستويات أكبر مثل الحوار أو النص مهما كان حجمه، ويهتم بدراسة اللغة في سياقها'⁽³⁾، أي السياق الذي تستخدم فيه على سعة اختلافه؛ فتحليل الخطاب هو أحد مستويات الدرس اللساني، الذي يحاول تحليل الظاهرة اللسانية على مستوى يتجاوز مستوى الجملة أو النطق، ليشمل النص المكتوب مهما بلغ طوله واختلف نوعه، والتخاطب الشفوي بين الناس بأشكاله المختلفة: مكالمات هاتفية، حديث أفراد الأسرة في مواقف الحياة اليومية، أو الحديث الذي يدور بين الغرباء، أو صديقان التقيا بعد طول غياب... الخ. من التفاعلات اللفظية التي تحدث بين البشر.

(1) ك. لوبي ألونسو وأسير دي الموس، لسانيات الخطاب (حوار مع باتريك شارودو). ترجمة: محمد يحياطين، مجلة اللغة العربية الفصلية، المجلس الأعلى للغة، الجزائر، 1999، العدد الثاني، ص 243-244.

(2) موسى عمايرة وآخرون، مقدمة في اللغويات المعاصرة، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2000، ص200.

(3) المرجع عينه، ص199.

ويجعل ليفنسن (levinson) من تحليل الخطاب دراسة للغة من منظور وظيفي، من خلال "دراسة التركيب اللغوي بالإشارة إلى عوامل غير لغوية كالنص والتكلم الذي يستخدم اللغة والسياق الذي تستخدم فيه"⁽¹⁾.

ونشير في آخر الأمر، أن هذه التعاريف والآراء - على اختلافها - من كتب نسبت إلى مجال تحليل الخطاب بقوة التسمية والعنوان في الدرس الغربي. تجعلنا نسلم بشرعية هذا العلم، أو هذا المجال، الذي من حقه أن يجمع مواد من كل الأشياء التي تستخدم بغرض الخطاب أولاً، والتحليل بأنواعه ثانياً. ولو كان لها بجانب ذلك غرض آخر أو أمر أسبق؛ لأن محلل الخطاب ملزم بالبحث في ما تستعمل تلك اللغة من أجله، واللغة أداة تواصل وتعبير لكل ما هو في الحياة بتشعبها وأمورها المختلفة المتضاربة والمتفاعلة.

ويركز مجال تحليل الخطاب عند دافيد كريستال (David crystal) على بنى اللغة المحكية المستعملة في ظروف طبيعته، كما نجد ذلك في بعض "خطابات" كالمحادثات والاستجابات والتعليق والخطب، بينما يركز مجال تحليل النص (texte analysis) على بنى اللغة المكتوبة، ومن الأمثلة على ذلك المقالات واللافتات وإشارات المرور وفصول الكتب، لكن ليس هذا التمييز تمييزاً جلياً وواضحاً، فقد كان لهذين المصطلحين العديد من الاستعمالات الأخرى

وبصفة خاصة قد يستعمل كل من الخطاب والنص بمعنى أوسع بكثير ليشمل جميع الوحدات اللغوية التي لها وظيفة اتصالية محددة سواء أكانت تلك الوحدات محكية أو مكتوبة؛ فمن العلماء من يتحدث عن الخطاب المحكي أو المكتوب ومنهم من يتحدث عن النص المحك أو المكتوب⁽²⁾ وذلك كمحاولة لتمييز الخطاب عن مصطلح تحليل النص وهذا ما جعل هوثرن (houthren) يعلق على التمييز الذي قدمه مايكل لستابس (1983) (- micheal Stubbs) عين خطاب النص: "يعالج مايكل ستابس مفهومي النص أو الخطاب وكأنهما مترادفات. لكنه يلاحظ أنه في استعمالات أخرى قد يكون النص مكتوباً بينما

(1) المرجع نفسه، ص 200.

(2) سارة ميلز، الخطاب، ص 2-3.

الخطاب محكيا، وقد لا يكون النص تفاعليا بينما يكون الخطاب كذلك..... وقد يكون النص طويلا أو قصيرا لكن الخطاب يوحى بطول معين، و يتميز النص باستخدام في الشكل والصيغة بينما يطبع الخطاب استخدام أعمق من حيث الدلالة والمعنى. وفي الأخير يلاحظ ستابس أن هناك من المنظرين من يفرقون بين مكون اللغة النظري المجرد و التحقيق النفعي لهذا المكون، ولو أنهم لا يتفقون أيهما يمثل مفهوم النص⁽¹⁾.

هذا عن تحليل الخطاب في أرضه بكل الاختلافات والاضطرابات الحاصلة فيه، والصعوبات التي لاقتهم في تحديد مجاله، فكيف تعامل الباحثون والمحللون العرب مع هذا المصطلح الجامع تحديدا وتحليلا؟

الإجراء العربي لتحليل الخطاب (وقفات على جهود عربية)؛

تضاربت الإسهامات العربية في تناول تحليل الخطاب مصطلحا ومفهوما، والتعامل معه مجالا ومنهجيا وعلميا؛ فهناك من قام بخلط المصطلح مع مصطلحات أخرى؛ وجعله يتساوى بعلوم أخرى بناء على طبيعة المجال والموضوع، ومن بين المصطلحات التي اضطرب معها موضوع "تحليل الخطاب" مصطلح النص؛ إذ عرف الخطاب وفق هذا الاضطراب - على أنه النص لا فرق بينهما، فهو النص في بداية مراحله (أي في طابعه الشفوي)، وهو أوسع من النص في الإطار المفهومي، من جانب آخر؛ إذ هو مجموعة من المنتجات الفكرية، التي يراد إيصالها إلى متلق عبر نصوص مكتوبة أو مسموعة أو مرئية، والتي تقدم موقفا شموليا أو جزئيا من قضية أو مشكلة قائمة أو مفترضة، أي ما يقدم من الفكر في وجهة نظر حول موضوع ما.⁽²⁾ فهو - بذلك - مجموعة النصوص التي يربط بينها مجال معرفي، عالمه أوسع من عالم النص.

(1) المرجع السابق، ص3.

(2) فرحان بدوي الحربي، الأسلوب في النقد الحديث - دراسة في تحليل الخطاب - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2004، ص42.

وعلى هذا الأساس - اضطرب مصطلح "تحليل الخطاب" بغيره من المصطلحات، يقول صلاح فضل:

وقد استقر هذا المفهوم الحديث لعلم النص ، في عقد السبعينات من هذا القرن، وهو يسمى بالفرنسية (SCIENCE DU TEXTE)، ويطلق عليه في الانجليزية (DIXOURSE ANALYSIS)، ولا يخرج الأمر عن هذين الحديث في بقية اللغات الحية، مما يجعل ترجمته إلى علم النص- في العربية - أمراً مقبولاً⁽¹⁾. كما جعله علماً يطمح إلى شيء أكثر عمومية وشمولاً؛ فهو من ناحية يشير إلى جميع أنواع النصوص وأنماطها في السياقات المختلفة، ويتضمن جملة من الإجراءات النظرية والوصفية والتطبيقية ذات الطابع العلمي المحدود، من ناحية أخرى.

وما يمكن ملاحظته بعد قراءة هذا النص، أن صلاح فضل قد وقع في اضطراب كبير بين مصطلحات عدة، وجعلها في مستوى واحد (علم النص، تحليل الخطاب، لسانيات النص).

وهذه أرضية غير خصبة لنماء المصطلح و مفهومه و مجاله. الأمر الذي يستدعي في البداية - تحديد المصطلح ومفهومه، وكل حدوده، على هذه الأرضية تنامت إسهامات إجرائية تطبيقية لتحليل الخطاب، حاولت الانفكاك من وهم الحدين (خلطة بعلوم أخرى كثيرة من جهة، ومساواته بعلم أو مجال آخر، من جهة ثانية)، ومن هذه الجهود:

1- تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص) لمحمد مفتاح:

يبتدئ مفتاح إسهامه هذا -في مجال تحليل الخطاب - بمقولة تنم عن حنكة محلل، فهم العلم، وأدرك صعوبة التعامل معه وفيه: "هذا الذي نحن فيه رأى لا نجر أحداً عليه، ولا نقول يجب على أحد قبوله وكرهه"⁽²⁾ وعلى هذا لا يرى أي ضرورة - تدفعه للوقوف وإعطاء الحجج دفاعاً عن صلاحية هذه المحاولة الشخصية، لتحليل الخطاب الشعري. وبذلك جاء الكتاب بقسمين: الأول: نظري، حاول من خلاله إبراز عناصر تحليل الخطاب الشعري

(1) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية للنشر (لوغمان)، القاهرة، ط1، 1996، ص319.

(2) محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي ن المغرب، ط1، 1983، ص05.

المختارة، وقدمها في ثماني فصول، دارت محاورها حول تحديد المفاهيم للعناصر: القصدية في الأصوات، المعجم و التركيب النحوي، وإبراز مقصديه الإقناع بالأدوات البلاغية والتناسية والأفعال الكلامية... الخ. والقسم الثاني، خصص لإستراتيجية التناس، وجاء في ثلاثة فصول إذ اعتبرت كل بنية تحليلية فيه فصلا (بنية التوتر - بنية الاستلام - بنية الرجاء (الرغبة) في قصيدة ابن عبدون الرائية وتم فيها استغلال مثير لمفهومي التشاكل والتباين.

وينوه "محمد مفتاح" إلى صعوبة فهم آراء ونظريات المدرسة الواحدة - ناهيك - عن مدارس عدة التي تجتمع في مجال تحليل الخطاب؛ لان آفة الانتقائية، لا تصيب إلا من كان ساذجا مؤمنا إيمانا أعمى بما يقرأ غير متفطن للظروف التاريخية والابستمية التي نشأت فيها النظريات، وغير قادر على تمييز الثوابت من المتغيرات في كل منها، وعلى ما تجمع عليه وتفترق⁽¹⁾. وقد أشار الباحث هنا - إلى أمر غاية في الأهمية وهو الإيمان الأعمى، الذي يملكه الكثير من الباحثين المحللين، والذي يوقعهم في الانتقاء العشوائي للمصطلحات والمفاهيم، ومن ثم الخلط والاضطراب بينها، وعليه إعطاء اللاواضح/ اللامحدود للقارئ.

قام محمد مفتاح بفرز عناصر نظرية رآها صالحة للاستثمار في إطار منسجم يتعامل مع اللغة في التحليل:

* اللغة محايدة بريئة شفافة / اللغة مخادعة مضللة تظهر غير ما تخفي

(عند تشومسكي وأتباعه) (عند بارث وأتباعه)

* اللغة تصف الواقع وتعكسه / اللغة تخلق واقعا جديدا

(الوضعيون) (السميائيون)

* الذات المتكلمة هي العلة الأولى و / الهياة المتلقية لها دو كبير في إيجاد الخطاب

الأخيرة في إصدار الخطاب وتكوينه

(النظرية القصدية) (نظرية التفاعل)

* الشائبة الضيقة (المناطق) / الشائبة الموسعة (الإحتماليون)

(1) ينظر: المرجع نفسه، ص 07.

وهذا ما خلق الاختلاف وجعل التعامل مع تحليل الخطاب أمر مخوف بكثير من المخاطر. وإذا تجاوزنا هذه المواقف الكلية إلى الإجراءات المحلية المتعلقة بالتحليل اللغوي حسب رأي محمد مفتاح - فنجد أن كلا منها يلقي الضوء على جانب ما من الظواهر اللغوية، ولذلك فهي تتكامل أكثر مما تتناقض، الشيء الذي يتيح للباحث أن يركب بين جزئياتها - بعد الغربة والتمحيص - ليصوغ نظرية لتحليل خطاب ما، بناء على المواقف الثلاثة التالية:

- 1- تقديم ما ثبت الإجماع عليه مثل المقاطع، ونبر الكلمات.. الخ
- 2- مناقشة النموذج لتبيين ثغراته، لإعادة تصنيفه وفق مبادئ الحذف والإضافة والتنسيق والتأصيل.
- 3- إعادة صياغة المشاكل، مما ينتج عنه بنية جديدة مثل التناظر، التشاكل، التفاعل... الخ⁽¹⁾.

هي مهام حددها مفتاح لتحليل الخطاب، أو لأي باحث يريد وضع نظرية تفسر المجال المعرفي عامة والأدبي خاصة، وهي آراء أرادت أن تشمل كل معطيات الخطاب، فقربتنا خطوات في سبيل إدراك خصوصياته. على أن هذه الخصوصيات احتمالية تتحقق بحسب المقصدية / التفاعل، أي جدلية النص - الإنتاج - القراءة، لأن الخطاب لعب لغوي لا بد من الوقوف عند وجهيه: التعبير والمضمون، فهو لا يحيل على الواقع إلا ليخرقه، وفق عالمه الخاص.

إن جهد محمد مفتاح في تحليل الخطاب (الخطاب الشعري) مع قصيدة ابن عبدون. محاولة سعت إلى التماس الربط، وحبك خيوط القصيدة، بإرجاعها إلى: الذاتية الغوية - والنزعة السردية القائمة على الصراع، وذلك باعتماد تفكيك النص إلى وحدات عبر إدراك سليم لبنيته العليا (موضوع الخطاب). مما يعد شرطاً ضرورياً لتحليل علاقاته وضبط خواصه.

(1) المرجع ذاته، ص 15.

2- التحليل السيميائي للخطاب الشعري، لعبد المالك مرتاض:

ينوه بداية مرتاض بصعوبة إحكام القراءة للنص الأدبي - ولا سيما - القراءة السيميائية. إلا أنه سيحاول إعطاء أدوات عامة للتحليل، إذ أن الأدوات التي يصطنعها في النص من أجل قراءته، تمثل تأويله على نحو ما وهي التي تحدد أسس المعالم العامة للتحليل الذي ينشأ عن مسعاه⁽¹⁾ الأدبي.

وبناء على ذلك، نجد أنه يناشد بالقراءة الجماعية أو التركيب المنهجي "لأن القراءة لا تقبل بإجراء أحادي في تحليل الخطاب (النص) ويرى أن يستغل المناهج الحديثة أقصى استغلال. بالشكل الذي يقدم على إنتاج معرفة بل إنتاج نظرية جديدة للمعرفة. على أنقاض ما فكك؛ فيستحضر البنيوية من أجل الكشف عن البنى الفنية للنص، والمستويات اللسانية من أجل الكشف عن جمالية النص وخصائص نسجه، ومحاولة التوصل منه إلى مفتاح السر⁽²⁾ للنظام اللغوي له. وأما استعمال السيميائية إجراء في التحليل، فيجب أن يكون للكشف عن نظام العلاقات، في هذا النص (الخطاب) على أساس أنها قائمة بذاتها فيه، لا مجرد وسيط عبي، وذلك بتعرية البنية الفنية له، بصهرها في بوتقات التشاكل والتباين والتناسخ والتقنين (أو التماثل) والانزياح، الذي يزيح الدلالة عن موضعها الذي وضعت فيه، ويمنحها خصوصية دلالية جديدة هي التي يشحن بها المبدع لغته. وذلك بتوتر الأسلوب، وتفجير معاني اللغة، والذهاب في اللعب بعناصرها كل مذهب وتخصيب نسوجها⁽³⁾.

وتقوم دراسة مرتاض لخطاب "شناشيل ابنة الجلي" لبدر شاكر السياب على النظر للنص في أحوال تشاكله وأطوار تباينه، وتحليلات تماثله؛ إذ تقتضي جملة من المعاني أو الدلالات، التي بدونها لا يمكن الكشف عن جوهر النص أو خفاياه، والتي تتحقق بأربعة إجراءات حسب رأيه التشاكل / التباين / التماثل / التحايز. الأمر الذي يمنح الإجراء التحليلي شيئاً من الحرية في التأويل بحكم التعددية في القراءة والمناهج من أجل توازن

(1) عبد المالك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، دار الكتاب العربي، الجزائر، أبريل 2001، ص 08.

(2) المرجع عينه، ص 22.

(3) المرجع عينه، ص 22.

القراءة، إنه محلل يضع قراءته في مقابل قراءات أخرى، ويراعي موقعها النسبي، وكذلك قيمتها النسبية؛ إذ تراعي هذه النظرية التأويلية نسبة القيم الفنية وخضوعها على الدوام للارتقاء والانحدار عند الأدباء، لذلك قامت الدراسة على ثلاث مستويات:

- 1- التماس التشاكل والتباين في لغة بدر شاكر السياب من خلال القصيدة.
- 1- تحليل النص الشعري بإجراء المماثلة والقرينة: وذلك برؤية فنية، تمنح النص أبعادا دلالية خصبة.
- 2- تقويم اللغة الشعرية لهذا النص في الشبكة الحيزية، لمنح الحيز الشعري شكلا سيميائيا يثب به من دلالاته الجامدة إلى مجالات حية متفاعلة متجاوبة متخاصبة مع ما يجاورها، أو يكون له شأن بها؛ لأن الأدب في الواقع هو سيرورة إنتاجية تفاعلية غير خاصة بجانب دون الآخر، أو على الأصح، هو تجربة دينامية تساهم فيها أطراف متعددة، لا عن طريق التحكم، والهيمنة التامة ولكن عن طريق التفاعل⁽¹⁾.

ويشير مرتاض في موضع الكتاب. إلى أن البلاغة شكل قديم لتحليل الخطاب⁽²⁾؛ إذ تعتبر بعض الأدوات معينة لتحليل الخطاب مثل: التشبيه- الاستعارة- الكناية - البديع.... الخ. وعلى هذا يميز إدخال الانزياح إجراء سيميائيا في القصيدة. ويجمع المحللون والمنظرون الأسلوبيون على أنها آلية أسلوبية / بلاغية مجتة، وهذا اضطراب مصطلحاتي يحسب على المحلل.

كما أنه لا يفرق بين الدراسة والتعامل والقراءة والتحليل والمقاربة والتأويل، يستعملها كلها كمصطلح واحد. زيادة أنه يضعنا بتحليله السيميائي للقصيدة، أمام إشكالية تطبيق المنهج؛ باحداثه توسعات، يراها لم تخطر بخلد بيرس، الذي لم يكن أديبا محلا للخطاب الشعري، ولكنه كان منظرا منطقيا ورياضياتيا، ولا سواء مفكر يتمثل الأمور في مستواها

(1) حميد لحميداني، القراءة وتوليد الدلالة (تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2003، ص06.

(2) عبد المالك مرتاض، المرجع نفسه، ص38.

النظري المحدود، وممارس متعامل يحتك بواقع النص وعطاءاته الجمالية والدلالية والإنزياحية التي ليس لها من نفاذ⁽¹⁾، فيضعنا- بذلك- أمام نسبية المعرفة ونسبية التأويل، وعليه نسبية التحليل.

تحليل الخطاب الأدبي (دراسات تطبيقية) لإبراهيم صحراوي؛

يدرس المحلل- في هذا الكتاب- رواية جورجى زيدان. "جهاد الحيين" دراسة بنيوية من خلال مستوى الحكاية - القصة - الزمان - المكان - الشخصية - المقاطع السردية التي قسمت لها الرواية. وبدايتها إدراج حياة المؤلف (جورجى زيدان) وأثاره. وهل هذا تحليل بنيوي؟

وينطلق، بعدها، من مبدأ، أن الأدبية لا تستخلص إلا عن طريق التحليل، وهذا الأخير يتم على مستويات متعددة، لكل منها وحداتها الخاصة به⁽²⁾، والتي تستدعي التحليل المستقل، على أن ذلك لا يعني فصل المستويات بعضها عن بعض، إذ لا يمكن لأي منها القيام بمعزل عن الآخر. لأنه سيفقد معناه إذا ما أخذ لوحده، فالفصل بين مختلف مستويات الخطاب- السابقة الذكر ما هو إلا إجراء تقني، هدفه تسهيل الدراسة. إنه أداة للعمل وليس غاية⁽³⁾.

كما يرى أن تحليل الخطاب القصصي، يجب أن يشمل المستوى السردى كمجال يستعمل فيه الأديب تقنيات خاصة، ينظم من خلالها مقوله، كما يشمل المستوى الأسلوبى والمستوى الدلالي، لأن فهم قصة ما لا يعني مجرد تتبع التطور الحداثى للحكاية، بل يعني كذلك التعرف على طبقات المعنى التي تتداخل فيما بينها لتشكيل هذا المعنى، وتنظيم العلاقات التي تقوم بين عناصر الأثر الواحد. والعلاقات في هذا نوعان: توزيعية: إذ ما كانت أفقية. وتكاملية: إذ لم يمكن إدراكها إلا بالانتقال من مستوى إلى آخر.

(1) ينظر: إبراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي (دراسة تطبيقية) دار الآفاق، الجزائر، ط 1، 1999، ص 18.

(2) المرجع نفسه، ص 21.

(3) المرجع نفسه، ص 20.

وهذه المستويات تختلف من باحث إلى آخر؛ فرولان بارث (R-BARTHES) يعتمد المستويات التحليلية التالية: (مستوى الوظائف - مستوى الحركات والأفعال - مستوى السرد والخطاب) وهي مستويات يرتبط بعضها ببعض وتتكامل تدريجياً؛ فالمعنى لا يكمن في البداية، ولا في النهاية بل يتشكل تدريجياً مع تدرج الحكاية أو القصة، كما أن وحدة معينة على مستوى ما، لا معنى لها ما لم تندرج في إطار مقابل من مستوى آخر أعلى؛ لأن كل وحدة وظيفية - بهذا المفهوم لن تكتسب معناها ما لم تدخل في السياق العام للحركات والأفعال التي تقوم بها شخصية معينة⁽¹⁾.

ويعتمد تودوروف (t.todorov) المستويين التاليين - حسب رأي صحراوي. (مستوى الحكاية - مستوى الخطاب) في حين دانيال رايق (d.) يذهب إلى تنظيم إدراك الخطاب حسب التفرع الثنائي المضاعف، الذي يمكن تطبيقه لتحليل كل نضام ذي دلالة: النص ذا التعبير (المادة - التعبير) والمضمون (التعبير - المادة).

والتحليل - في هذه الحالة - يهدف في مرحلة أولى إلى الإبانة عن مكونات النص ووحداته المختلفة، وعزلها للتمكن من معرفة العلاقات التي تقوم بين هذه الوحدات في كل المستويات، والتمكن بالتالي من الإمساك بهذا المعنى، لتأتي إثر ذلك عملية تأويله وربطه بمختلف الجوانب الأخرى، التي أبعدت في البداية، لربط النص في النهاية ببقية النصوص ضمن نوعه أو حقله الدلالي والموضوعي ومرحلته وعليه، فما إمكانية إدراج مستويات التحليل على تعددها - ضمن تفرعات هذا الشكل؛ حيث تتداخل لتؤدي في النهاية هدفاً واحداً، وهو إبراز معنى أو دلالة الأثر الأدبي، أو أي نص آخر مهما كانت طبيعته⁽²⁾.

وهو رأي المعتمد في هذه الدراسة مع اضطراب مع بعض الآراء التحليلية الأخرى نظراً لتداخلها. مع استعمال مربك لعدد من المصطلحات أهمها: (التحليل - الدراسة - القراءة) أو (المقول - الخطاب - النص - الحكاية). وفي نهاية قراءة الدراسة المعنونة "تحليل

(1) المرجع نفسه، ص 21.

(2) فرحان يدوي الحربي، الأسلوبية في النقد الأدبي، دراسة في تحليل الخطاب، ص 23.

الخطاب الأدبي"، والعنوان بوابة الدخول إلى النص والكتاب، سيجد القارئ نفسه عاجزا عن تحديد التحليل المتبع، وأمام العنوان عاجز عن تحديد الخطاب الذي سيحلل.

الأسلوبية في النقد الحديث - دراسة في تحليل الخطاب. لفرحان بدوي الحربي؛

يرى مؤلف الكتاب أن "القواعد العرفية وشروط تأويل الدلالة، والإشارة السميولوجية والمفاهيم التي تستخدم في معرفة العالم، وفي العمل والوظائف النفعية قد اندمجت كلها بسلاسة في مهمة تحليل الخطاب الأدبي"⁽¹⁾، فيفهم تحليل الخطاب - على هذا الأساس - عنوانا شاملا لمنظومة متسقة من الإجراءات المنهجية.

كما يعتبر كغيره من الباحثين "تحليل الخطاب" علما وضع قبل ظهور السيميائ، ضمن تطبيقات علم البلاغة، فهو الحقل المعرفي الذي اشتمل على الاهتمام بصناعة النص وإنتاجه فضلا عن دراسته وتحليله، وعليها ظهر علم الأسلوب بوصفه علما يهتم بتحليل الخطاب⁽²⁾، فالأسلوبية في هذه الحالة ليست الدراسة العلمية للغة الخطاب فحسب، بل هي موقف منه ومن لغته، كذلك، ولعل من أهم التعاريف التي نسبت للأسلوب (لغة الخطاب)، فهو "حدث يمكن ملاحظته: إنه لساني لأن اللغة أداة بيانه، وهو نفسي لأن الأثر غاية حدوثه، وهو اجتماعي، لأن الآخر ضرورة وجوده"⁽³⁾ وعليه، فالخطاب عملية إنتاج مشتركة في زمنين متتالين يتعاقب فيهما، مبدع خلاق وقارئ مثقف، والأسلوبية أحد فروع ومجالات تحليل الخطاب، إذ تقع في مستواه الأفقي، فقد أصبحت - في نظره - مبحثا مؤهلا لمعالجة أنماط التعبير والتواصل، وأن بحوثها تقوم على أجزاء ثلاثة رئيسية: جزء لغوي / جزء علمي / جزء جمالي.

ويضطرب رأي المؤلف حول المنهج الأكثر شيوعا في مجال "تحليل الخطاب" فتارة هو المنهج اللساني، ومهمته البرهنة على وحدة الخطاب بوصفه كلا موحدًا عبر رصد أدواته

(1) ينظر: المرجع عينه، ص 47.

(2) منذر عباسي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، سوريا، ط 1، 2002، ص 35.

(3) فرحان بدوي الحربي، المرجع نفسه، ص 24.

وإشارات المحلية مهتما بوسائل الربط بين أجزائه، ومتابعة أشكال الإبداع فيه، فيكون البحث موجها في الاتساق بعد الانسجام.

وتارة هو المنهج الأسلوبي، ومهمته معالجة أنماط التعبير، ووصف العلاقات الداخلية والخارجية للبنية الخطابية عبر مستويات مختلفة، للكشف عن الخواص النوعية البنوية المميزة للخطاب في نطاق التواصل والإيصال. وتارة أخرى هو المنهج السيميائي، الذي اعتبره الأكثر أهمية في تحليل الخطاب - فضلا عن شيوعه الواسع - وهو ينطلق في عمله من النموذج اللساني؛ إذ يتخذ الخطاب موضوعا له بوصفه معطي لغويا، وذلك يشترط تفريغ الخطاب (موضوع الدراسة) من مضامينه ليتمكن من دراسته. وغايته من وراء البحث في الصفات السيميائية الخاصة بكل نوع منها التمييز بينها: الخطاب السياسي - الخطاب الديني.... الخ، وذلك من حيث تركيبة الجملة أو استخدام العلامات والتشديد على بعض الكلمات والصياغات، على - وجه الخصوص - وطريقة ابتداء الخطاب (الاستهلال) ونهايته،... الخ. وعلى هذا الأساس فقد جعل تحليل الخطاب علما له فروع باعتباره معوضا للبلاغة:

- فروع عمودية: كالشعرية، التي تهتم بصنف خطابي واحد هو الأدب
- فروع أفقية: مثل الأسلوبية، والتي يتألف موضوعها من كل القضايا المتعلقة بالخطابات كافة⁽¹⁾ بناء على ما سبق، تحليل الخطاب مصطلح يمكن إطلاقه على المقاربات النقدية، التي تتخذ لها موضوعا للوصف وحدة لغوية أكبر من الجملة، بصفة عامة، فتصنيف المقاربات ضمن هذا المجال يبني تأسيسا على وجود الوحدة اللغوية المحللة وحجمها، ثم إن هذا التصنيف يقوم على موضوع المقاربة أيضا، وذلك في محاولة تمييزية بين مصطلحي المقاربة والتحليل؛ فالتحليل يمكن أن يكون نفسيا، بلاغيا، اجتماعيا... الخ، وبالتالي هناك مركيزات تمكنا كقراء محللين من وضع المقاربة ضمن حقها المعرفي المخصص فتتنامى بالشكل الذي تكون به تحليلا، أين يتساوى المصطلحان.

(1) المرجع نفسه، ص 42.

وما يمكن أن يستخلص بعد هذا البحث حول "تحليل الخطاب" والإجراء العربي:

- أن التداخل حاصل بين مفهوم الخطاب ومفهوم النص وكذلك الاصطلاح على تحديد التسمية للعلم، الذي يقع تحته درس "النص" والخطاب فنجده: تحليل الخطاب، تحليل النص، علم النص، لسانيات النص، لسانيات الخطاب.. الخ؛ لأن من أهم المشكلات الرئيسية التي لازمت تحليل الخطاب كعلم، كمجال، كمنهج، تحديده، وتحديد اسمه، وتحديد موضوعه.

- إن تحليل الخطاب ضرورة ملحة. يجب أن يأخذ على عاتقه مهمة دراسة وتحليل وتفكيك الخطابات، وتفسير ملفوظاتها وفق معطيات الخطاب الداخلية والخارجية؛ فهناك مؤشرات للعامل النفسي والإطار الاجتماعي والسياسي عموماً، وعلاقة المرسل في المتن من خلال النص الذي يتوسط عملية الاتصال في داخل مفهوم الخطاب ذاته. لأن الخطاب نظام تعبير متقن ومضبوط، يحتوي على بنيات لا يمكن للنحو اللساني تفسيرها، وهي بنيات تحدد نوع الخطاب بناء عليها: البنيات السردية والبنيات البلاغية، وتمثل لها بالتوازي في البنية التركيبية لعدد من الجمل، وهو ما ليس له أية وظيفة نحوية، في حين قد تكون له له وظيفة بلاغية مرتبطة بأثر القول في القارئ، وهذا البنيات متعلقة باستعمالات أسلوبية معينة وأن مهمة دراستها تقع على تحليل الخطاب؛ بكل ما يحمل من منظور: تداولي، لغوي، نحوي، وصفي، سميولوجي... الخ مما يعني الاقتراب من الخطاب ذاته بوصفه موضوعاً خارجياً، بافتراض وجود فاعل منتج تكون له علاقة حوارية مع متلق مثقف ذا ذاكرة، وكلها تتجسد في خطاب متعدد الجوانب والدلالات له كل السلطة في الاحتفاظ بذاكرته، وبقصديته. وأمام هذه الإجراءات والمساهمات العربية تتساءل: ما نريد نحن العرب بتحليل الخطاب؟ محاولة الإجابة عن هذا التساؤل الأخير، تبرز بأفاق تصورها لتحليل الخطاب العربي - كمجال من حقه الوجود: نظيراً/ تأسيساً/ إجراء - والتي نجملها فيما يلي:

- 1- من واجب المحلل والناقد العربي التوجه نحو التأسيس في هذا المجال؛ بوصفه مجالا حديثا شاملا في ثقافتنا اللغوية والنقدية المعاصرة؛ ومن ثم تحديد حديه (تحليل / الخطاب)، وتحديد موضوعه ومجاله، حتى يفهم أكثر وتفهم كيفية التعامل معه وفيه، من أجل تحقيق الاستعمال الدقيق للمصطلح الجامع.
 - 2- علينا - كذلك - معرفة حدوده وتداخله وعلاقاته مع غيره من المجالات بشتى أنواعها: السميائية الأسلوبية اللسانية، النصية، التداولية، الاجتماعية.. الخ، أي إبراز العلاقة بينهما، ومدى التفاعل فيما بينها، وماذا يقدم الأول للآخر، عبر ملتقيات وأبحاث متواصلة.
 - 3- لا بد من إجراء بعض محاولات التأسيس لمعظم قضايا الخطاب المتحققة أثناء معالجة الخطابات؛ لإعطاء العلم بعدا تراثيا، من أجل تعميق الفهم والتعامل.
 - 4- على محلل الخطاب الابتعاد عن ما سماه محمد مفتاح التلقينية، أثناء التحليل ومعالجة الخطاب، حتى نبتعد عن إقحام الأمور، التي لا يجدر بها أن تكون في التحليل، ليكون تحليلا قائما على القراءة المنتجة والمصطلح الدقيق، والشرح السديد والتفسير المثمر والتأويل المبدع.
- ولتحقق هذه الآفاق، ولكي تؤتي ثمارها. لا بد من مناقشتها في المتدييات المتخصصة والملتقيات والأبحاث المعتمدة، لتأخذ طابعها العلمي.

المحور الثاني

الخطاب السردي والقراءة السيميائية

المقاربة الأولى: الخطاب الروائي من المناس إلى التناس:

أولاً: استراتيجية المناس في رواية

الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي للطاهر وطار

قبل البدء:

أدى التطور في عمليات فهم النص، تطوراً مماثلاً في طرق تنظيمه، وإمكانية أن يصنع من نفسه عالماً خاصاً، تتفاعل فيه بنايات مختلف، يجمعها النص، هذا الأخير الذي يحاول القارئ ملامسة سحره، ومقاربة خياله والدخول إلى عالمه، والبدية في هذه المحاولة يمثلها عالم وفضاء البداية في النص، أي ما يصل النصوص بعضها البعض من أجل التعرف على مختلف جزئياتها وتفصيلها، وهو أهم هذه الجزئيات والعلاقات في البناء النصي، يمثل بعمق ودقة علاقات التفاعل وتعاليه بين دفتي غلاف نص ما، سمي: "المناس" أو "النصوص المصاحبة"، فما كان لمثل هذه النصوص أن تثير الاهتمام لولا توسيع مفهوم النص، فأثرنا إثارته في سبيل تعميق فهم النص الروائي وتأويله، متخذين رواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي⁽¹⁾ للطاهر وطار-أمودجا-؟

1- عتبات النص...؟:

هي ما يسمى النص الموازي أو النص المصاحب (paraTexte)، وقدمت عدة مصطلحات كترجمة لهذا مصطلح؛ إذ يترجمه: محمد بنيس، بالنص الموازي، ومختار حسني، بالتوازي النصي ومحمد الهادي المطوي، بموازي النص، وعبد العزيز شبل، بالنص المحاذ،

⁽¹⁾ الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، منشورات التبيين الجاحظية، سلسلة الإبداع الأدبي، ط 1، 1999، الجزائر.

وسعيد يقطين بالمناس، وترجمات عديدة: المناصصة- النص المؤطر-النص المصاحب- العتبات... إلخ. وهذا يعود لتعدد دلالات الجزء الأول من المصطلح (para)، فنجد في اليونانية واللاتينية صفة حاملة لعدة معاني: معنى الشبيه والمماثل والمساوي (pariel-égale) لها علاقة بالأبعاد الكمية والقيمة، بحيث نجد الكلمة اللاتينية (توازي) الكلمة اليونانية. ومعنى المشابهة والمجانسة والملائمة، وكذلك معنى الظهور والوضوح والمشاكلة (semblable, apparie, compagnon, corvéable). وبمعنى الموازي والمساوي للارتفاع والقوة. وبمعنى الزوج والقرين والوزن بين مقدارين، والعدل والمساواة بين شخصين. بمعنى تحاذي الجمل بين بعضها البعض⁽¹⁾، وكلها معان انعكست على المصطلح والمفهوم.

والمناس "بنية نصية متضمنة في النص"⁽²⁾، فضاء يشمل كل ما له علاقة بالنص من: عناوين رئيسية وعناوين فرعية، وتداخل العناوين ومقدمات وذيل وصور، والتنبيه والتمهيد والتقديم وكلمات الناشر، والتعليقات الخارجية... إلخ، وقد قدمه لنا جيرارد جنيت (Gérard Genette) في كتابه "عتبات" (seuils) عام 1987، الذي أوضح فيه اهتماماته الزائدة بهذا النمط بغية توسيعه ليشمل كل النصوص الموازية للنص الأدبي؛ باعتبار أن لكل نص أدبي نصا موازيا، والنص الموازي عند جنيت هو "ما يصنع به النص من نفسه كتابا ويقترح ذاته بهذه الصفة على قرائه، وعلى الجمهور عموما، أي ما يحيط بالكتاب من سياق أولي، وعتبات بصرية ولغوية"⁽³⁾. والنص الموازي نوع من النظر النصي، الذي يمثل التعالي النصي بالمعنى العام⁽⁴⁾. إن المناس يمثل العتبات أو البوابات أو المداخل، التي تجعل المتلقي-عبر هذا النوع من النظر النصي - يمسك بالخبط الأساسية التي تمكنه من قراءة النص وتأويله؛ لأنها تربط علاقة جدلية مع النص بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

(1) vior: Larousse ;(dictionnairedefrancais)France ;1997 ;p301-302.

(2) Gerard Genette , seuils , edseuil,col poétique paris ,1987 , p 7.

(3) محمد بنيس، الشعر العربي الحديث (بنائته وابدالاتها)1-التقليدية، دار توبقال للنشر، لدار البيضاء، المغرب، ط 3، 2001، ص 188.

(4) جيرارد جنيت، مدخل إلى جامع النص، ترجمة عبد الرحمان أيوب، دار توبقال، المغرب، ط 2، 1986، ص 91.

وهي العتبات، نفسها، التي تربط النص الأدبي بكل ما يحيط به من النصوص التي سبق ذكرها بالإضافة إلى النصوص الغائبة عن دائرة الضوء، وغير المعلن عنها مثل: المسودات، والمشاريع غير المكتملة للكاتب مثل المذكرات وخطط أعمال أدبية لم تنجز بعد، إنها نصوص تعقد صلات ود مع النص، فتعلن سره وتكشف عنه، لأنها المدخل الطبيعي إليه، ومرشدة القارئ إلى طريق التواصل معه؛ إذ تمكنه من الانفتاح على تركيب النص وأبعاده الدلالية من جهة، كما تمكنه من تحديد العناصر المؤطرة لبنائه (معماريته)، وبعض طرائق تنظيمه وتحققه التخيلي من جهة أخرى، أي أنها تحمل في طياتها وظيفة تأليفية تحاول كشف إستراتيجية الكتابة⁽¹⁾؛ باعتبارها العناصر الموجودة على حدود النص، داخله وخارجه في آن، تتصل به اتصالاً يجعلها تتداخل معه إلى حد تبلغ فيه درجة من تعيين استقلاليته، وتنفصل عنه انفصالاً يسمح للداخل النصي، كبنية وبناء، أن يشتغل وينتج دلالته؛ فالكاتب أو المؤلف وهو ((يكتب)) كلماته أو ((يؤلف)) بينهما ((يبني)) عوالم نصه وفق كيفية ما: محاكاة بناءات موجودة، أو مبدعاً، في نطاق الممكن النوعي، طرائق جديدة في ((تنظيم)) بياناته النصية التي يتشكل منها النص الذي ((يبدع)) وفق رؤيته لعمله الإبداعي أو تبعاً لضرورات تشكيل المعنى⁽²⁾ بناء عليه، ينقسم المناص إلى:

1- المناص النشرية / الافتتاحي (مناص الناشر) (Editorial paratexte):

وهي كل إنتاج في مناص التي تعود مسؤوليتها للناشر المنخرط في صناعة الكتاب وطباعته، وهي أقل تحديداً عند "جينيت" إذ تتمثل في (الغلاف، الجلد، كلمة الناشر، الإشهار، الحجم، السلسلة....)، حيث تقع مسؤولية هذا المناص على عاتق الناشر ومعاونيه (كتاب دار النشر، مدراء السلاسل، الملحقين الصحفيين...)، وكل هذه المنطقة تعرف بالمناص النشرية / الافتتاحي، الذي يضم تحته قسمين هما:

أ- النص المحيط النشرية: الغرف-صفحة العنوان-الجلادة (jaquettes)-كلمة الناشر..

(1) حسن محمد حماد، تداخل النصوص في الرواية العربية (بحث في نماذج مختارة)، دراسات أدبية، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 56. وينظر: محمد بنيس، المرجع نفسه، ج 1، ص 76.

(2) ينظر: حسن محمد حماد، تداخل النصوص، ص 146-147. p11-12. Ibid Genette.

ب- النص الفوقي النشرى:الإشهار-قائمة المنشورات (catalogues)-الملحق الصحفى لدار النشر (Pressed'éducation).

2-المناص التالىفى (مناص المؤلف):(auctorail(paratexte):

يمثل كل المصاحبات الخطائية، التى تعود مسؤوليتها بالأساس إلى الكاتب/ المؤلف؛ حيث ينخرط فيها كل من (اسم الكاتب، العنوان،العنوان الفرعى، الإهداء، الاستهلال...)، وينقسم هو الآخر إلى قسمين هما:

أ- النص المحيط التالىفى: اسم الكاتب، العنوان، العنوان الفرعى، الاستهلال، المقدمة، الإهداء، التصدير، الملاحظات، الحواشى، الهوامش.

ب- النص الفوقي التالىفى: ويتفرع إلى:

-العام:اللقاءات (الصحفية و الإذاعية والتلفزيونية) الحوارات، المناقشات، الندوات، المؤتمرات، القراءات النقدية.

-الخاص: المراسلات (العامة والخاصة)، المسارات، المذكرات الحميمة، النص القبلى، التعليقات الذاتية.

وانطلاقا من كل ما سبق، نحاول دخول معمار رواية ألولى الطاهر يعود إلى مقامه الزكى للطاهر وطار وعالمها الخاص، أى عبر هذه النصوص المصاحبة أو العتبات، التى تميز بها فضاء الرواية كمفاتيح رئيسية.

1- الغلاف: يعرف "جينيت" تصدير الكتاب/ العمل: كاقْتباس يتموضع (ينقش) عامة على رأس الكتاب أو فى جزء منه..ويعد التصدير كمقدمة للنص والكتاب عامة، ذو قيمة تداولية، واضحة لطريقة تسنن بها القراءة الواقعة فيقلب الحوار الناشئ بين النص والحكمة التى رجع إليها الكاتب، كما يمكن للتصدير أيضا أن يكون أيقونا كالتصدير بالرسوم والنقوش⁽¹⁾.

(1) G.Genette; Ibid;P152.

والغلاف أول ما نقف عنده، وهو الشيء الذي يلفت انتباهنا بمجرد حملنا ورؤيتنا للرواية، لأنه العتبة الأولى من عتبات النص الهامة، تدخلنا إشارته إلى اكتشاف علاقات النص بغيره من النصوص⁽¹⁾ المصاحبة له: صورة-ألوان-تجنيس-موقع اسم المؤلف-دار النشر-مستوى الخط...؛ إذ تعتبر جميعها أيقونا علاماتيا يوحى بكثير من الدلالات والإيحاءات، وتعمل بشكل متكامل متناغم، لتشكيل لوحة فنية جمالية تعرض نفسها على قارئ مبدع، وتمارس عليه سلطتها في الإغراء والإغواء، ليتسنى لها إثارة التشويش على هذا التلقي، أو تكون المؤشر الدال على الأبعاد الإيحائية للنص⁽²⁾؛ فالغلاف -أحد المناصصات البارزة- "فضاء مكاني؛ لأنه لا يتشكل إلا عبر المساحة؛ مساحة الكتاب وأبعاده، غير أنه مكان محدود ولا علاقة له بالمكان، الذي يتحرك فيه الأبطال، فهو مكان تتحرك-على الأصح- عين القارئ، إنه بكل بساطة فضاء الكتابة الروائية باعتبارها طباعة"⁽³⁾.

وغلاف هذه الرواية يتكون من أربع وحدات غرافيكية، تحمل عدة إشارات دالة، الأولى هي الصورة، والوحدة الثانية هي اللون الذي ميز الغلاف، والثالثة هي التجنيس، أما الأخيرة فهي العنوان الذي يعد وحدة كبرى تستقل بذاتها.

أ- الصورة:

أ- يعتبر مائتر (Christian Metz) الرسالة البصرية مثل الكلمات، وكل الأشياء الأخرى، لا يمكن أن تنفصل من تورطها في لعبة المعنى⁽⁴⁾؛ فالصورة علامة أيقونية، خطاب مشكل كمتتالية غير قابلة للتقطيع، لأنها المتتالية التي تسعى إلى تحريك الدواخل والانفعالات للرائي (القارئ) وهذا ما يبرز جمالية المرئي، الذي تتضافر عناصره من أجل تأكيد المكتوب.

(1) حسن محمد حماد، تداخل النصوص، ص 148.

(2) مراد عبد الرحمان مبروك، جيويوتكا النص الأدبي-تضاريس الفضاء الروائي، دار الوفاء، الإسكندرية، ط6، 2002، ص124.

(3) حيد لحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط3، 2000، ص56.

(4) قدور عبد الله ثاني، سيميائية الصورة (مغامرة سيميائية في أشهر الإرساليات البصرية في العالم)، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2005، ص 22.



إن اللغة البصرية، التي يتم عبرها توليد مجمل الدلالات داخل الصورة، هي لغة بالغة التركيب، كما أنها لغة تعمل على نقل الأفكار والدلالات من لغة إلى لغة أخرى؛ لأنها تحكي الفكرة بلغة الشكل - الخط، - اللون - الظل - الملامح - والاتساق البصري، والتنوع، لتضعها في سلم القراءة، وتنتهي بها إلى الفهم والإدراك، عبر تحريك وإعمال العقل ومهاراته.

والصورة -هنا- هي لوحة من لوحات الفنان "عبو"، ويربط

الصورة مع العنوان، ويتأويل بسيط لهذه الصورة نجد أن من يركب الحيوان: حمار أم أتان، هو الولي الطاهر وهو غير واضح الملامح، غير معروف الجنس إنه بخصر أنثى، ويكتف عريض، وكأن الفنان بمحي ملامح الوجه عنه، قد محا عنه الشرف الرفيع والقدر الجليل، حتى الأتان التي يركبها مشرومة الأذنين، بلا عينين، إذن هي صورة العودة التي تتمظهر تمظهرًا ضبابيًا، تجعل القراءة عاجزة عن الإجابة بشأن هذه الذات الممارسة لفعل العودة، وفعل العودة في حد ذاته؛ وكأن الروائي قد استوحي فكرة الرواية من هذه الصورة، لما تحمل من عمق دلالات ومعاني وقيم ومشاعر وأحاسيس، اعتملت في دواخل فنان ذو فردانية متميزة، وفكر نقدي متقد، لتكون الرواية؛ فالصورة هي الشكل الذي تهب اللغة نفسها له، بل إنها رمز فضائية اللغة الأدبية في علاقتها مع المعنى⁽¹⁾.

ب- اللون:

لقد اتخذ اللون وظيفة تكنولوجية عندما حل محل اللغة، ومحل الكتابة ولهذا وجب ربط اللون بنفسية المتحدث ونفسية المتلقي، ثم بالوسط الاجتماعي والبيئة المحيطة بالفنان، فتساهم دلالات اللون في نقل الدلالات الخفية والأبعاد المستترة في النفس البشرية⁽²⁾؛ باعتبار الصورة واللون جزء منها لغة عالمية تفهمها كل الشعوب. وغلاف الرواية يتفجر دما، وكما

(1) حميد لحمداني، المرجع نفسه، 61.

(2) عبد الفتاح نافع، جماليات اللون في شعر ابن المعتز، مجلة التواصل، العدد الصادر في 04 جوان 1999، ص 125.

هو معروف فاللون الأحمر يحمل سمة القتل المصبوغ بدم الشعوب، والموت والجحيم، فكل شيء أصبح دمويًا في هذا العالم، وفي المقابل تبقى الجاحظية هذه الجمعية التي يرأسها الروائي الطاهر وطار -مديرها المسؤول- والتي ترمز للتراث والعقل والمنطق والفكاهة والطرافة والخيال والإبداع والفكر، خضراء تناضل من أجل عروبة الجزائر، وعروبة الفكر والهوية والفرن والأرض والخطوات⁽¹⁾.

وتحتل وسط الصورة بؤرة نورانية، نعجز عن تفسيرها، هل هي حنين إلى الاشتراكية الأصلية، هذه الحركة التي تكاد تكون المنقذ الوحيد للجزائر من بحر الدم، الذي ألقى فيه كما فعلت سابقًا؟ أم أن وطار يريد أن يجعل من نصه أو شهادته نورانية إبداعية، تفتح على مشهد ظلامي دموي وواقعي عبر قراءة صوفية لهذا الوضع الراهن الذي تعيشه الجزائر. وكما هو معروف الأبيض دلالة على الثراء والتحضر والرقى والتعذب والصفاء والسلام والإشراق والنقاء والبراءة.

أما الاحتمال الثالث فهو الذي نركز فيه على التوحيد بين بلارة والأتان؛ فبلارة ترمز في ناحية من نواحيها إلى الحضارة، إنها نورانية إذا تحكمت فيها وسيرناها كما نريد، لا كما تريد هي، وإلا فقدنا هويتها، وتهنته بني إسرائيل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى وقد يكون احتمالًا صائبًا، أن بلارة هي الجزائر، ومن حيث هي كذلك، فإن الجزائر بيضاء كالحمامة، متحضرة في الأعماق ذات بهاء حنون ومتدفق ورغم وابل الدم الذي المسلط عليها، تقول لكل من يراها أرايت في الحياة الدنيا، صورة أبهى من صورتني هذه؟⁽²⁾، هي كالمشكاة في هذا المشهد كله.

ويعد اسم الكاتب من بين العناصر المناصية المهمة، فلا يمكننا تجاهله أو مجاوزته لأنه العلامة الفارقة بين كاتب وآخر، فيه تثبت هوية الكاتب لصاحبه، ويحقق ملكيته الأدبية والفكرية على عمله دون النظر للاسم إن كان حقيقيا أو مستعارا. ولما كان اسم المؤلف أحد النصوص المصاحبة شد انتباهنا - في الغلاف - اسم المؤلف الذي يعلو الصورة، وكان وطار

(1) عياش بجاوي، حوار مع الروائي الطاهر وطار، مجلة التبيين، الجاحظية، الجزائر، العدد 15، 2000، ص 85.

(2) الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، ص 25.

يشير -هنا- إلى حياته فيما يحدث بالجزائر، فما هو إلا شاهد عيان على هذا المشهد الظلامي، يرصد بالملاحظة ويعبر بالأسلوب الذي يراه مناسباً (فني، رمزي، سريلي....).

ج - التجنيس: يعتبر التجنيس وحدة من الوحدات الجرافيكية، أو مسلوكاً من بين المسالك الأولى في عملية الولوج في نص ما؛ فهو يساعد القارئ على استحضار أفق انتظاره، كما يهيئه لتقبل أفق النص، وإن كان هذا التجنيس يفيد عملية التلقي بتحديد إستراتيجيات آليات التلقي وربط هذا النص الجنس بالنصوص الأخرى التي من نوعه في ذاكرتنا النصية، لأننا نتلقى النص من خلال هذا التجنيس، ونعقد معه عقداً للقراءة، كما بين ذلك "جيرارد جينيت" وإن تلقى أي جنس أدبي قصصياً كان أو غير قصصياً يتألف من اتفاق معقود بين المؤلف و القارئ، الذي يرتبط بنوعية هذا الجنس على وجه التحديد. فالمؤشر الجنسي (indication générique) -على ذلك- نظام ملحق بالعنوان، "لهذا يعد نظاماً رسمياً يعبر عن مقصدية كل من الكاتب والناشر لما يريدان نسبته للنص، في هذه الحالة لا يستطيع القارئ تجاهل أو إهمال هذه النسبة، وإن لم يستطع تصديقها أو إقرارها، فهي باقية كموجه قرائي لهذا العمل"⁽¹⁾.

وتجنيس هذا النص تكرر أكثر من مرة؛ الأولى كانت على الغلاف، والثانية كانت في الصفحة التي تلي الغلاف، والثالثة كانت في مقدمة النص التي جاءت بقلم المبدع نفسه. إن هذه الرواية، رغم ما فيها من تجريد ومن سريلية، هي عمل واقعي يتناول حركة النهضة الإسلامية بكل تجاوبها وبكل اتجاهاتها، وأساليبها أيضاً⁽²⁾. ولعل المرة الأخيرة عندما قال: "... لهذا السبب كانت الشخصية الرئيسة في الرواية صوفية تعيش حالات تتجسد في حالة واحدة"⁽³⁾؛ وبذلك يكون وطار قد أبعداً عن الوقوف في حيرة كبيرة تجلب لنا رؤية ضبابية للتلقي، لأن من أكثر العوامل فاعلية في تحديد أفق التلقي، وطبيعة الاستجابة الأولى للنص

(1) جيرارد جينيت، المرجع نفسه، ص 97.

(2) الرواية، ص 8.

(3) الرواية، ص 9.

الفني، مسألة التجنيس وإستراتيجيات التسمية النوعية التي تجلب إلى عملية التلقي مجموعة من الخبرات النصية يتحقق بعضها و يجهض بعضها الآخر⁽¹⁾.

إن الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" نص قد سيق في النوع أو الجنس الذي يكاد يطغى في عصره، ويحتل قلوب القراء لما فيه من إغراء، حيث يستدرجنا لدخوله من هذا الموضوع المفتوح على مصراعيه، حتى نستطيع فهمه من جهة، و التخلص من هذا القلق المصاحب لتلقي مثل هذه النصوص في تاريخ الأدب⁽²⁾، من جهة أخرى؛ لأنها نصوص تفاعلت مع أوضاع العصر فجاءت مرآة لما يجري من أحداث رهيبة في عشرية سوداء كلها فتنة وإضراب وقلق مصري، كما أنها متفاعلة مع الاتجاهات الغربية الحديثة في أسلوبها وطريقة تعبيرها وسرد أحداثها.

2- العنوان:

يعد العنوان من بين أهم عناصر المناص (النص الموازي) لهذا فإن تعريفه يطرح بعض الأسئلة و يلح علينا في التحليل، كعنصر مهم، كونه مجموع معقد أحيانا أو مركب/ وهذا التعقيد ليس لطوله أو قصره، ولكن مرده مدى قدرتنا على تحليله وتأويله؛ فيرى "جينيت" أن في المستوى العملي للعنوان، تتجاوز وظيفة المطابقة (identification) بقية الوظائف، باعتبارها أهم الوظائف؛ لأنها تريد أن تطابق بين عناوينها ونصوصها، غير إننا نجد بعض العناوين المراوغة خاصة السريالية منها، التي لا تطابق نصوصها تماما، فتحتاج إلى تأويل وحفر في طبقاتها قصد قراءة و فهم إيجاءاتها وتلميحاتها. ومد صفة موضوعاتي (thématique) للعنوان تعبير عن اعتماد العناوين وصف "مضمون" النص. أما العنوان في مستواه التداولي/ النفعي، فتبرز الوظيفة الاغرائية، التي لها وزنها في إحداث إستراتيجية العنوان و تأطير النص، فهي المعول عليها كثيرا على الرغم من صعوبة القبض عليه، وهي من تقرر بالقارئ المستهل بتنشيطها لقدرة الشراء عنده، وتحريكها لفضول القراءة فيه،

(1) حسن محمد حماد، المرجع السابق، ص 111.

(2) المرجع نفسه، ص 11 - 113.

والقاعدة المنظمة لهذه الوظيفة قد وضعت منذ قرون في مقولة (uretère): "العنوان الجيد هو أحسن سمسار للكتاب": (beau titre est le vrai proxène & te d'un livre)، فيرد John Barth/ جون بارث "على أولئك يلهثون وراء العناوين الرنانة والطنانة دون وعي بجمالياتها، والتي تكون في الأغلب بلا معنى فإن يكون الكتاب أغرى من عنوانه، أحسن من أن يكون العنوان أغرى من كتابه"⁽¹⁾. وهذا لكي لا نسوق القراء لعماء لا مرئي، ونبقي على ذلك الميثاق الأخلاقي للقراءة.

أ- العنوان كحقل دلالي رئيس:

يعتبر العنوان في الدرس المعاصر المدخل الرئيس للعمارة النصية، إنه إضاءة بارعة وغامضة؛ باعتباره سؤالاً إشكالياً، يتكفل النص بالإجابة عنه⁽²⁾؛ فالعنوان يعلن عن طبيعة النص، ومن ثمة يعلن على نوع القراءة التي يتطلبها هذا النص، إنه البهو الذي ندلف من خلاله إلى النص⁽³⁾، ودونه لا يمكننا الدخول إلى حجرة النص لغموضه وتشابكه، ولتتم عملية الولوج إلى هذه العمارة النصية، والتقرب من حجراتها، وملامسة اتجاهاتها وحركتها في ثنا النسيج النصي وتشظياته.

وقد جاء عنوان النص جملة منمقة مفخخة ذات سبك وحبك وغواية ألوي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، شغلت مكاناً على ظهر الغلاف؛ فجاءت بين الصورة والتجنيس وطنى عليها اللون الأحمر، وقد تكررت في الصفحة بعد الغلاف، فجاءت بين اسم المؤلف والتجنيس. كما جاء طويلاً نسبياً، والذي لا يشبهه في الطول إلا عنوان "العشق والموت في الزمن الحراشي" وعنوان المجموعة القصصية "الشهداء يعودون هذا الأسبوع"، وعلى ما يبدو أن بينه وبين عنوان الرواية تناص ظاهر، وتجلى في كلمة "يعود". كما شكل العنوان مدخلا ضرورياً للنص؛ باعتباره تحديداً لاتجاه القراءة، ورسمياً لاحتتمالات المعنى، وقد أراد الطاهر وطار أن يكون عنوان روايته تفسيرياً، يجسد معنى الرواية ويختصر حكمتها لشدة التحامه

(1) جيرار جينيت، المرجع نفسه، ص 97.

(2) جميل حمداوي، السميوطيقا والعنونة، مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني، العدد الثالث، الكويت، ص 108.

(3) على جعفر العلاق، الشعر والتلقي، دار الشرق، عمان، ط 1، 1997، ص 173.

بها، ما جعله نصاً قادراً على توجيه القارئ واقتراح الدلالة الممكنة للرواية ومع حيوية عنوان الرواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي ومباشرته واتصاله بمجهر النص، فإن الروائي يعمق من هذه الصلة (صلة الرواية بالعنوان) عن طريق صورة الغلاف ونص الإهداء. ومنه نتساءل: لماذا الولي؟ لماذا الطاهر؟ لماذا إلى؟ ولماذا المقام؟ ثم أخيراً لماذا الزكي؟

إن لفظة الولي مشحونة بدلالات الاختراق للسطح والعابر؛ إنه علاقة فنية قبل أن يكون شخصية ذات ملامح وسمات وموقف تتميز بها داخل النص الروائي. والولي في منظور المتصوفة هو العارف بالله وصفاته بحسب ما يمكن، المواظب على الطاعات، المجتنب للمعاصي، المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات⁽¹⁾. والولي هو من ولي أمراً.

وبإضافة صفة الطاهر لها وهو من عصمه الله من المخالفات والمعاصي، فيمكن أن نجعل منها رمزا للسمو، قد يكون في الأفكار، في السلوك في الروح؟ هكذا يمكن للطهارة أن تكون، وباستدعاء وطار الولي المودع في الوعي الجماعي، نجد أنفسنا حيارى نتساءل: هل كان الولي - بربطه بما في النص طاهراً؟

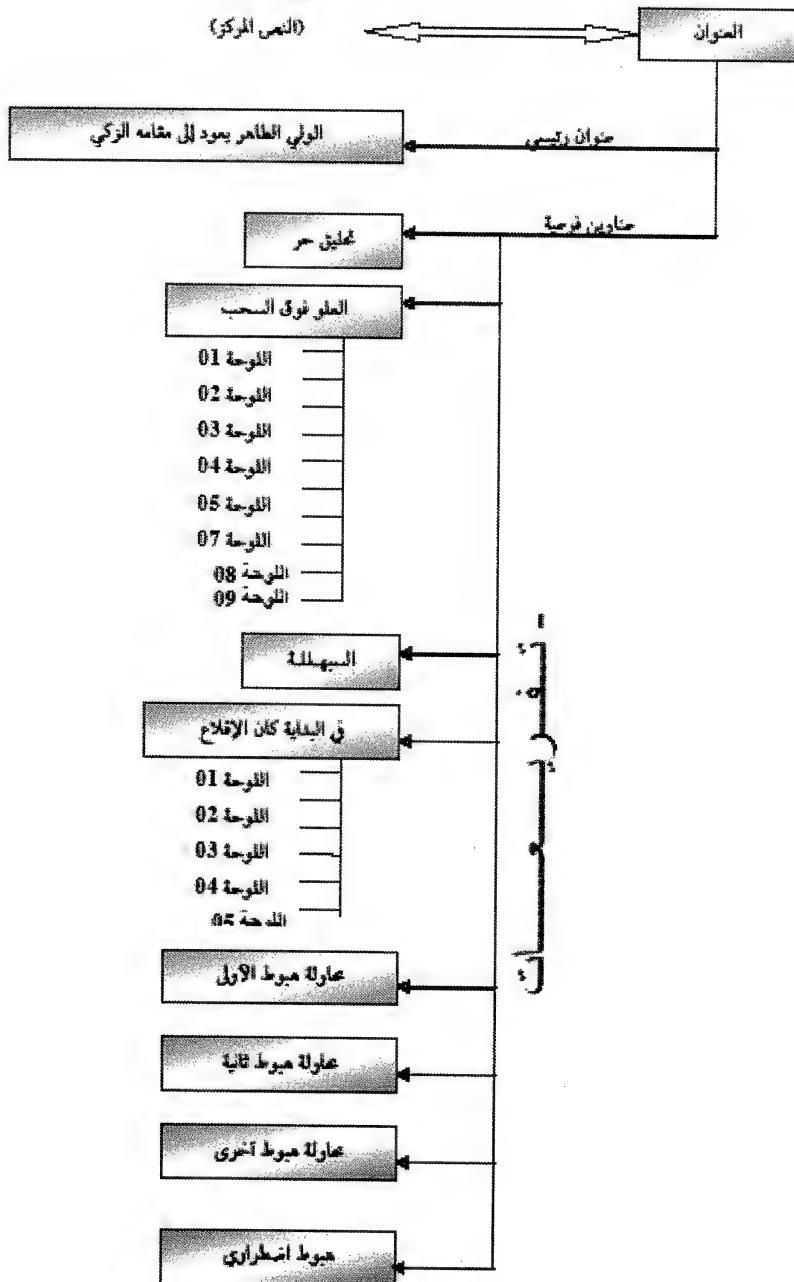
أما صيغة "يعود" فتبقى العمل في حركة لولبية، إذ أن صيغة المضارعة التي جاء عليها الفعل تجعل الولي يعود مرة واثنين وثلاثاً وربما أكثر، فهل سيصل (؟)!. وقد تبع بحرف الجر إلى الذي يدل على الانتهاء، وتحديد المكان المخصص للعودة وكأن الروائي أراد أن يجعل وليه يعرف هدفه فيصل إليه بسرعة وبأقل جهد، ولكن ما يحدث، أو ما نجد في متن الرواية هو معاناة الولي من التيه والضياح في الصحراء والفيافي. أما المقام الزكي فالمقام - عند المتصوفة - هو المنزلة الروحية التي يمر بها السالك إلى الله، والزكي هو الحلال الذي لا يستوخم عقباه⁽²⁾. إذن هذا الولي الطاهر (؟) يعود إلى مقامه الزكي (؟).

هكذا كان العنوان الرئيس متاهة نصية، أحبولة وفخ ينصبه الروائي للقارئ يوهمه أن القضية سهلة، وأن عودة الولي الطاهر أكيدة، لدرجة أنه أول ما يقرأ العنوان يظن أن

(1) الجرجاني (علي بن محمد)، التعريفات، دار الكتاب اللبناني المصري، بيروت، القاهرة، ط 1، 1991، ص 265.

(2) أحمد عبد الدايم (ت 756هـ)، عمدة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1996، ج 4، ص 57.

الولي عاد، وما على النص إلا أن يبين له طريقة هذه العودة، والخيرات التي ستحل بها. ولكن فعل القراءة في هذه الحالة يكشف عكس الأمر؛ فالقارئ سيدرك أن هذه العودة هي عودة سيزيفية، فالمقام الذي يعود إليه هذا الولي هو مقام لم يوجد بعد (؟). هذا ما ستعلمه العناوين الفرعية في المتن الروائي:



ب- العنوان كحقوق دلالية فرعية:

إنها "مجموعة العلامات اللسانية، من كلمات وجمل وحتى نصوص، قد تظهر على رأس النص لتدل عليه وتنعيه، تشير لمحتواه الكلي، ولتجذب جمهور المستهدف"⁽¹⁾، وهي العناوين التي من شأنها خلخلة التهيؤ الذي يضعه العنوان الرئيس، أو على الأقل من شأنها خلق هامش من التلقي المغاير لتلقي الأولى⁽²⁾؛ فجاءت نصوصا شارحة رغم تركيزها، ما يؤكد عناية المؤلف بالنص الكلي وبالجمهور، في جملة من الإجراءات التي عملت على تغليف وتشكيل وتأطير الرواية؛ فتحكمت في نصوصها الجزئية، بشكل يستهدف القارئ بالدرجة الأولى.

ففي البداية كان "تخليق حر" دلالية على الانطلاق و الانعتاق من قيوده لا يريد البطل الوقوع فيها، تخليق كاد يربط بين البداية والنهاية، فتظهر العضباء وقد توقفت فوق التلة الرملية عند الزيتون الفريدة من الفياء كله، قبالة المقام الزكي "بحول الله وحده ها نحن نرجع إلى أرضنا من جديد"⁽³⁾. وكان الولي الطاهر قد عثر على المقام بعد غيبة وبحث طويلين في صورة ضبابية كـ "السراب الذي يحسبه الظمان ماء"⁽⁴⁾ في هذا التخليق.

ليتلوه "العلو فوق السحاب" علو الشمس فيه ذاهلة لا تتم على أي توجه، علو قد يكون حالة صوفية أو سفر صوفي، فيه كان التوحد مع الزمان والمكان، سفر جمع بين مشاهد متباعدة الأزمان والأماكن، علو يكاد يعكس مرحلة سوداء تعيشها الجزائر. والمثير - فعلا في هذا العلو - إقصاء اللوحة السادسة⁶ حيث أننا لا نفهم لماذا هذا الإقصاء الذي جاء تحت هذا العنوان، أو بالأحرى في هذه المرحلة، لتذكر هذه اللوحة بعد ذلك.

وبعد هذا السفر الصوفي المتعب تأتي "السهلة" والتي يقول عنها الولي الطاهر "حالة صوفية كاذبة، إنها حالة تجعل الدجال يذهل عن نفسه وعن ربه، فلا هو بنائم ولا هو

(1) حسن محمد حماد، المرجع السابق، ص 61.

(2) الرواية، ص 11.

(3) الرواية، ص 13.

(4) الرواية، ص 81.

باليقظ⁽¹⁾. وهي صفة للرجل غير محمود المجيء، فكأن عودته غير محمودة، وفيها سيكون الهول الكبير. أما في البداية كان الإقلاع فهو عنوان جاء يصور حالة الولي الطاهر، وهو يبحث عن مقامه الزكي بعد فقد الذاكرة، فقد أصبح في حالة اللا عقل أو اللاوعي بعد لحظة الغواية التي مارسها عليه "بلارة ابنة الملك تميم بن المعز زوجة الناصر بن علناس بن حماد، الذي سرت إليه في عسكر من المهدية حتى قلعة بني حماد تصحيني من الحلبي والجهاز مالا يجد، أمهرني الناصر بأربعين ألف دينار، أخذ منها أبي دينار واحد وأعاد إليه البقية. ابنتي لي قصراً منيفاً سماه باسمي، لذا ما أن يقوم قصر في أي بر كان إلا وكنت سيدته الأولى والأخيرة، أنزل من السماء وأتخذ موقعي.. قبلت عن طيب خاطر الزواج من الناصر تربة العز لا لكونه سلطاناً قوي النفوذ أذل كل متمرّد، وإنما لأقي قومي شر الحرب وويلاتها..."⁽²⁾.

بهذا عرفت بلارة نفسها في متن الرواية، وفي هذه المرحلة بالذات، مرحلة الإقلاع بعد حالة السبھلة التي سادت، مرحلة ذكرت فيها اللوحة السادسة (6) المقصاة في مرحلة العلو فوق السحاب، إذن هو إقلاع قد يكون بداية البداية، إنه إقلاع بدأ في هذا الفيف الواسع، من أين؟ وإلى أين؟ الله و الولي الطاهر أعلم. وعقب هذا الإقلاع في هذا الفيف، الشيء المفروض والمتوقع أن يكون لهذا الإقلاع مرحلة أو حالة هبوط، فهل يكون ذلك؟ هذا ما صوره لنا الروائي في محاولات الهبوط الثلاث، والتي كانت بمثابة إعادة لنصوص سابقة في متن الرواية نفسها اختارها الروائي بطريقة ذكية عليها تسهم في إضاءة بعض الجوانب الغامضة من ناحية، وللدلالة على استعصاء تواصل الولي الطاهر مع الواقع من ناحية أخرى لأن الصوت بلغ منتهاه ومبتغاه، وبضرورة توقف حالة الدهول..."⁽³⁾.

وبملاحظة بسيطة نجد "محاولة هبوط أولى" تكرار لما جاء في الصفحة الأولى من الرواية، مما يعني أن نهاية أحداث الرواية ما هي إلا بدايتها المفترضة التي ستدفع القارئ إلى ملأ كل

(1) الرواية، ص 91.

(2) الرواية، ص 18.

(3) حسن محمد حماد، المرجع السابق، ص 64.

فراغ أحدثه الروائي أو صاحب النص، وتختتم الرواية بعد محاولات الهبوط الثلاث بهبوط اضطراري هبوط ينفي عودة الولي الطاهر إلى المقام؛ ولعل في عدم إكمال الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾⁽¹⁾، من سورة الأعلى، التي صلى بها الولي الطاهر في آخر صفحة من الرواية، دليل على عدم العثور على هذا المقام الزكي. كما نجد في هذا الهبوط استغلال ذكي لظاهرة الكسوف التي حدثت في يوم: الأربعاء 11 أوت 1999، في منتصف النهار، إنه كسوف غير واضح أورده المؤلف ليعبر به عن الأمور غير الواضحة التي تحدث في الجزائر، وبهذه تركت الأبواب مشرعة لنهايات مختلفة عديدة، على الرغم من زوا ربها الضيقة واتجاهاتها الكثيرة.

3- الإهداء:

وهو العتبة الثالثة للنص، تحمل داخلها إشارة ذات دلالة توضيحية⁽²⁾، حيث أن الإهداء الذي تصدر الرواية هو في الحقيقة جزء منها؛ ذلك أن القارئ قد يجد نفسه إزاء عنقود من الطرق المفضية إلى النص أو حزمة من المفاتيح، التي تصلح كلها، ربما، وبفاعلية متفاوتة لفك مغاليق [الرواية]، لذلك يظل الإهداء⁽³⁾، كما في رواية الطاهر وطار ترجيحاً لدلالة النص الأساسية واختزالاً للخيارات العديدة للقراءة، واستخلاص دلالات القول في الرواية، ويمثل ذلك اختيار لطريق محدد واهتداء إلى مفتاح بذاته. والإهداء-عموماً- هو تقدير من الكاتب وعرفان يحمله للآخرين، سواء كانوا أشخاصاً، أو مجموعات (واقعية أو اعتبارية)، وهذا الاحترام يكون إما في شكل مطبوع (موجود أصلاً في العمل/ الكتاب)، وإما في شكل مكتوب يوقعه الكاتب بخط يده في النسخة المهداة. ويفرق "جينيت" بين اهدائين؛ واحد خاص: يتوجه به الكاتب للأشخاص المقربين منه، يتسم بالواقعية والمادية. وآخر عام: يتوجه به الكاتب للشخصيات المعنوية كالمؤسسات والهيئات والمنظمات والرموز (كالحرية، السلم، والعدالة....)، وهو ما تجسد في إهداء روايتنا؛

(1) سورة الأعلى الآية 14.

(2) المرجع نفسه، ص 18.

(3) العلاق، الشعر والتلقي، ص 86.

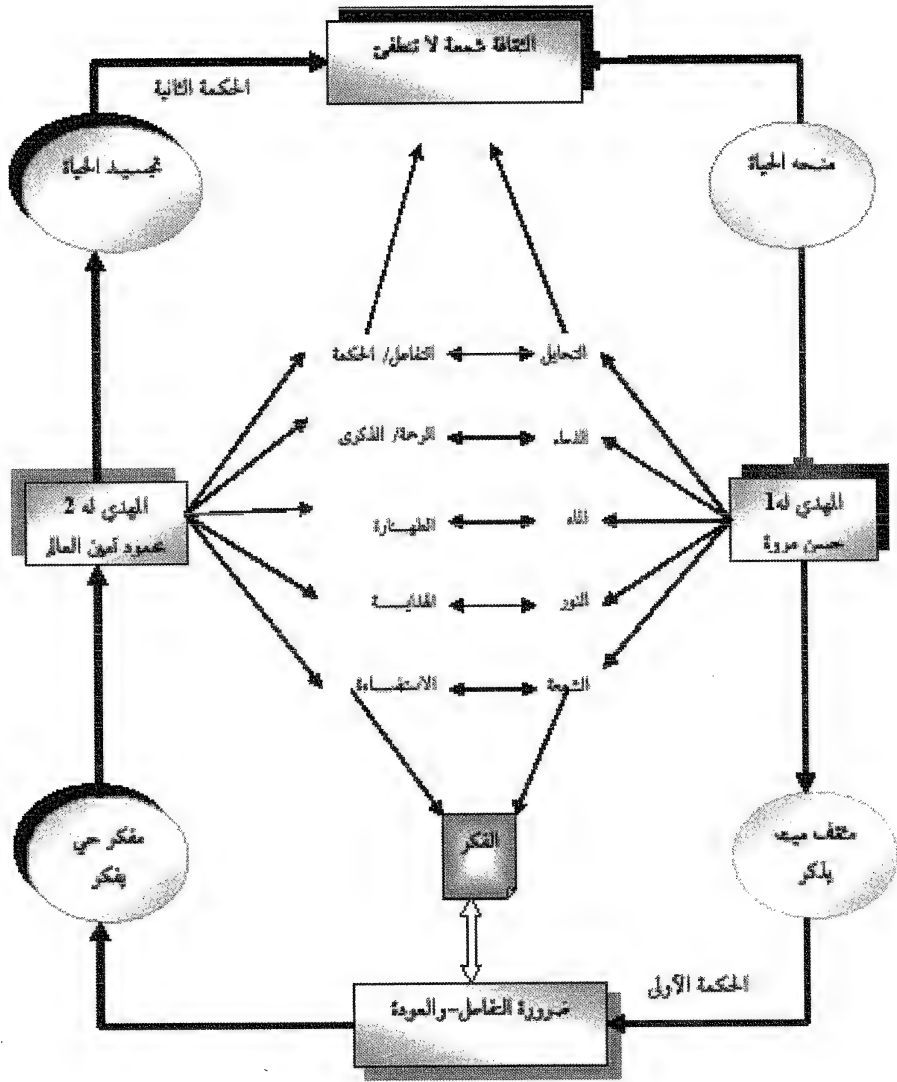
فكان الإهداء لحسن مروة وهو كاتب وناقد لبناني قتل في الحرب الأهلية ولحمود أمين العالم، وكلاهما رمز من الرموز الثقافية والفكرية العربية المعاصرة، إنهما رمزان شيوعيان، ربما لا نستطيع أن نفى القصدية في هذه العتبة حيث يمكننا القول أن وطار لا يزال حاملاً هواجس الواقعية الاشتراكية، إلا أنه في هذا النص يجسد شيوعيته بطريقة لولبية؛ فيشير الروائي بهذا الإهداء لشخص ميت، وشخص آخر لا يزال على قيد الحياة إلى أن شمعة المثقف الشيوعي لا تنطفئ، يذهب واحد ويبقى آخر يحمل اللواء ويكمل النضال، فرغم الموت تستمر الحياة، وتبقى الاشتراكية تناضلاً، لأنها صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان، كما أنها البديل في عصر البدائل لذلك المجد الضائع. إنها عملاقة كالشخصين الذين تمثلت فيهما "حسين مروة" و"حمود أمين العالم"، هذا الأخير، الذي كان الدعاء لها من خلاله بطول العمر.

والإهداء في شطره الثاني، جاء مستنداً على فلسفتين، الأولى يونانية من خلال مثل يقول: "لا يمكن أن نستحم بماء النهر الواحد مرتين"⁽¹⁾، في حين الطاهر وطار بتقنية تناصية تخالفه يقول "قد نتحايّل على النهر، فنحصر ماءه، وإن كان في بركة ونستحم فيه مرتين"⁽²⁾، فكان التحويل لذلك الرأي في الفلسفة اليونانية بينما الفلسفة الثانية هي الفلسفة الهندية، والتي استند عليها من خلال رأي من أراءها يقول: "لا يمكن أن نستضيء بنور الشمعة الواحدة مرتين" وهو الرأي نفسه عند الروائي في الشطر الثاني من القول، ولعل الناص يربط ذلك مع عودة الولي الطاهر، إذ نجد أن حركة العودة هذه تصطدم بحقيقة هذين القولين، وقبلها قال وطار ألي ولي على الجرة تعب"⁽³⁾. كما يمثلها المخطط التالي:

(1) الرواية، ص 3.

(2) الطاهر وطار، الشمعة والدهاليز، الجاحظية، الجزائر، الطبعة الأولى، 1955، ص 57.

(3) حسن محمد حماد، المرجع السابق، ص 150.



لقد حقق إهداء الرواية وظيفته الدلالية، بما يحمله من معنى للمهدي إليه، والعلاقات التي سينسجها من خلاله. ووظيفته التداولية، بما يحمل من معاني تنشيط الحركية التواصلية بين الكاتب وجمهوره الخاص والعام، محققة قيمتها الاجتماعية وقصديتها النفعية في تفاعل كل من المهدي والمهدي إليه.

وهي إحدى عتبات النص التي تشد انتباهنا، إنها قراءة يمارسها المؤلف على نصه ليوّجه القارئ إلى استراتيجيات الاستقبال لديه، ويحدد مسارات تلقيه⁽¹⁾، وهي كلمة مهد فيها الروائي للقارئ دخول عالم الرواية الساحر، هي كلمة لا بد منها قالمها وطار، وكأنه يخاف من وقوع متلقيه في مطبات عديدة، فلجأ لهذا النص المصاحب، ولعل ما يجسد خوفه هذا قوله في المقدمة: "إن القارئ الذي ليس له ثقافة تراثية عموماً، سيجد نفسه مضطراً إلى مراجعة بعض المفردات والاصطلاحات كما قد يجد صعوبة في العثور على "رأس الخيط"⁽²⁾، وبذلك يوضح وطار للقارئ ما يجب عليه فعله لفهم النص، لأن ما في الرواية من تجريد وسريالية وتاريخانية يعود إلى صعوبة القضية وتشعبها، وتكاد تكون المقدمة شرحاً لروح النص الروائي، أو استباقاً له في صياغة معناه العام، وفضحاً لشرارته الكامنة"⁽³⁾.

من هنا قام الروائي في هذه العتبة بتحليل ما اتكأ عليه في كتابة الرواية، باعتبارها نصاً مثيراً لتساؤلات مستمرة، تتوالد بتجدد فعل القراءة، الذي يسعى دوماً لتحريك تراكمات معرفية في ذهن الذات القارئة، في لحظات الكشف والرؤيا، التي تتابها، فالقراءة خلق جديد للنص، تأويل توليدي من أجل خلق التأليف الثاني، في عالم المجهول، والمقدمة باعتبارها استهلالاً تأتي مؤشراً لفهم السياق الذي ينخرط فيه الكتاب، ولا يمكن للقارئ فهمه بدونه، فهو يضعه في حالة انتظار، لأن الكتاب يعد جزءاً من مجموعة كتب لا بد أن تفهم في سياقها العام. لهذا يضع الكاتب تنبيهات توضح على السياق، خاصة في الكتب ذات الأجزاء والمجموعات. تسمى في مثل هذه السياقات "التصريح بالقصد" (déclaration d'intention)، فمن بين الوظائف المهمة للاستهلال الأصلي تقديمه تأويلاً للنص من طرف الكاتب، الذي يعلن فيه عن قصده، كأن يقول "هذا ما أريد فعله/ قصده" (في الكتاب).

(1) الرواية، ص 10.

(2) الرواية، ص 7.

(3) علي العلاق، المرجع نفسه، ص 86.

ويؤكد هذا البيان (النص الموازي) مفتخرا لكونه كاتباً سياسياً، فيقول: "ربما من هنا، تأتي ضرورة أن يضع المبدع كلاماً غير إبداعي لعمله يسميه كلمة المؤلف أو مقدمة أو ما يشبه ذلك. وأنا شخصياً لا أهدف إلى الدفاع عن نفسي أو عن هذا العمل، أو ذاك من أعمالي، فأنا كاتب تشكّل على مدى ما يقرب نصف قرن"⁽¹⁾.

هكذا كانت العتبة الأخيرة، تقريراً نقدياً على النص بقلم المؤلف ذاته، و مفتاحاً للقراءة الممكنة، رغم أن هذا البيان القانوني ربما كان ضاراً بالرواية من الوجهة الفنية؛ إذ يسوق القارئ بالضرورة إلى التوقف عند المستوى الحر للمادة الأولية، فلا تجعله يسترد وعيه أثناء عملية القراءة والتأويل، كن في الحقيقة، أن القارئ واقع في ذلك أثناء قراءة النص من تلقاء نفسه نظراً لخلفيته المعرفية، فالنص المصاحب ليس عائقاً لعملية التلقي بقدر ما يهيئ لها، كما هي مقدمة هذه الرواية، لأنه إذ كان الروائي كتب بذاكرته، والقارئ يقرأ بذاكرته، فإن للنص أيضاً ذاكرة لا يستطيع الفكّك منها مهما حاول.

والاستهلال (instance préfacielle) عند "جينيت" هو ذلك المصطلح الأكثر تداولاً واستعمالاً في اللغة الفرنسية واللغات عموماً، باعتباره كل فضاء من النص الافتتاحي / liminaire (بدائي / préliminaire كان، أو ختامي / post liminaire)، والذي يعني بإنتاج خطاب بخصوص النص، لاحقاً به أو سابقاً له، لهذا يكون الاستهلال البعدي أو الخاتمة (postface) مؤكدة لحقيقة الاستهلال. ومن نصوص الاستهلال دورانا واستعمالاً نجد:

المقدمة / المدخل (introduction)، التمهيد (avant-propos) الديقاجي (prologue)، توطئة (avis)، حاشية (note)، خلاصة / إعلان للكتاب (notice)، عرض / تقديم (présentation)، قبل (ال) بدء القول (aunant-dire)، مطلع (prélude)، خطاب بدئي (préliminaire discours)، فاتحة / ديباجة (préambule)، خطبة الكتاب (exorde).

(1) الرواية، ص 08.

وهناك ما يعرف بالاستهلال البعدي (postface) والذي يتمثل غالبا في الخاتمة، ويضم أيضا كل من الملاحق (annexe). والذيول (après-propos)، أما بعد/ بعد القول (après-dire)، الكتابة البعيدة/ ما بعد الكتابة (post-scriptum) ولكل هذه الاستهلالات والتذييلات خصائصها ووظائفها، خاصة الكتب ذات الطابع التعليمي، والتي تمتاز بوظيفتها الأكثر برتوكولية، والأكثر ظرفية بارتباطها بما يقوله النص "فبسؤال الكيفية يستطيع الاستهلال الأصلي أخبار القارئ عن أصل الكتاب، وظروف تأليفه وتحريره، وعن مراحل تكونه"⁽¹⁾.

وآخر القول، أن فاعلية مصطلح مثل المناص على هذه الشاكلة، التي برزت بها في نص رواية الولي الطاهر، بل حتى في أي نص كان، وعلى الرغم من صعوبة اجتيازه لاقترام الفضاء النصي، فيؤكد هذا حقيقة التفاعل النصي الحاصل بين المصطلحين، وإلا ما كان لجيرارد جينيت أن يقول: "أحذروا من المناص؛ لأن الخطاب على المناص، وفهم والتفاعل معه وتأويله وبلورة علاقاته البينية/ الداخلية والخارجية، بدايته المناص كبداية إذا كان قد وضع في منتهى الدقة والذكاء.

ثانيا: التناص والخطاب الروائي - تجلياته في رواية الولي الطاهر...:

1- مفهوم التناص:

يقال في اللغة نص الشيء: رفعه وأظهره، وفلان نص أي استقصى مسألته عن الشيء حتى استخرج ما عنده، ونص الحديث، ينصه نصا: إذا رفعه⁽²⁾. والتناص: أي المشاركة والمفاعلة ونقول نصبت إذا جعلت بعضه على بعض⁽³⁾، وتناص القوم: ازدحموا.

(1) جيرارد جينيت، جامع النص، ص 95-96.

(2) ابن منظور، لسان العرب، تحقيق مجموعة من الأساتذة، دار المعارف، مصر، ج (6)، دون تاريخ، مادة نص، ص 42.

(3) أحمد رضا، معجم متن اللغة، منشورات دار الحياة بيروت، ص 472.

النص: صيغة الكلام الأصلية التي وردت من المؤلف، جمع نصوص، وعند الأصليين هو الكتاب والسنة، ومنه قول نص القرآن، نص السنة: أي ما دل ظاهر لفضها عليه من الأحكام⁽¹⁾.

أما في الاصطلاح، فقد تعدد تعريف النص الأدبي بتعدد التوجهات المعرفية والنظرية و المنهجية، وتلخصت مجملها في "أن النص، هو مدونة حدث كلامي ذي وظائف متعددة⁽²⁾ أهمها الوظيفة التفاعلية، فالنص توالدي ليس منبثقا من عدم، فهو متولد من أحداث لغوية متنوعة.

ولقد شكل هذا النص الإبداعي ولا يزال، تساؤلا لدى كثير من النقاد، فظهرت عدة بحوث ودراست من آخرها البحوث السينمائية التفكيكية عن التناص.

وبهذا حدث انقلاب جذري في مفهوم النص، فلقد أصبح شبكة مختلفة، ونسيج يجتاز كل الحدود المعنية له؛ إنه لا يقوم بدفعها إلى القاع أو إغراقها في تجانس لا يعرف اختلاف، بل يجعلها أكثر تعقيدا⁽³⁾. وكما تعقد النص، وتعددت مفاهيم التناص عند النقاد، فتارة نجد توافقا، وأخرى نجد تضاربا في الآراء.

تقول الناقدة (جوليا كرسيفا): "أن كل نص هو عبارة عن لوحة فيسفسائية من الاقتباسات، وكل نص هو تشرب وتحويل لنصوص أخرى⁽⁴⁾، ومن هذا القول تجعل كرسيفا، التناص قراءة لأقوال متعددة في خطاب واحد، تحيلنا إلى خطابات أخرى متعددة يمكن لها أن تتطابق مع النص الأدبي المتعين.

أما (ريفاتير) فنجده ينظر إلى التناص في علاقته بالقراءة معتبرا إياه "أليكانيزم" الحقيقي للقراءة الخطية المتشابهة في النصوص الأدبية وغير الأدبية، والتي لا تنتج غير المعنى⁽⁵⁾.

(1) ابن منظور، لسان العرب، مادة "نص"، ص 44

(2) محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) المركز العربي، بيروت، 1992، ص 120.

(3) عبد العزيز حودة، المرايا المكدبة (من البنيوية إلى التفكيكية)، الكويت، 1998، ص 367.

(4) نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب (تحليل الخطاب الشعري و السرد)، ج 2، دار هومة، الجزائر، ص 96.

(5) عمر أوكان، مغامرة الكتابة لدى بارث، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1996، ص 30

أما (فيليب سولرس F SOLLERS) فيقول: كل نص يقع في مفترق طرق
نصوص عدة في آن واحد إعادة قراءة لها، واحتدادا وتكثيفا ونقلا وتعميقا⁽¹⁾.
وما تجدر الإشارة إليه، أن التناص ليس دائما سرقة وإنما قراءة جديدة أو كتابة ثانية
ليس لها نفس المعنى الأول، وهذا ما جعل (بارث) يقول: كل نص تناص⁽²⁾، إذ أن النص
يظهر في عالم مليء بالنصوص (نصوص قبله، نصوص تطوقه، نصوص حاضرة فيه...)
إن هذا التعاريف، وغيرها كثيرة عند النقاد الغربيين، كان لها صدى واسع في ساحة
النقد العربي، وهذا ما جعل الكثير من فُرسان النقد العربي الحديث يستفيدون من هذه
التعاريف السابقة

ويأتون بتعاريف أخرى متشابهة لها يقول (عبد المالك مرتاض): إن النص شبكة من
المعطيات الألسنية والبنوية والإيديولوجية تتضافر فيما بينها لتنتج، فإذا استوى مارس
تأثيرا عجيبا من أجل إنتاج النصوص أخرى، فالنص قائم على التجديدية بحكم مقروئته،
وقائم على التعددية بحكم خصوصية عطائته، تبعا لكل حال يتعرض لها في مجهر القراءة،
فالنص من حيث هو ذو قابلية للعطاء المتجدد بتعدد تعرضه للقراءة، وهذا ما تسميه
(كرستيفا): بـ"إنتاجية النص" (Des Textes Productivité)⁽³⁾.

أما الدكتور (الرويلي) فيقول: أن التناص وتداخل النصوص جعل من كل كتابة
نصا يتسم بالإحالات والاقتراسات التي لا يمكن بحال إسنادها إلى مؤلف ما أو إلى قصد
معين. إن مثل هذا المفهوم لا يلغي هوية المؤلف فحسب، وإنما أيضا يجعل قصده مختلطا
بقصد نصوص أخرى⁽⁴⁾ وهذا ما قال به (بارث) من أن التناص صورة تضمن للنص وضعا
ليس للاستنساخ.

(1) مارك المجينو وآخرون، في أصول الخطاب النقدي الجديد، ت / أحمد المدني، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط 2، ص 104.

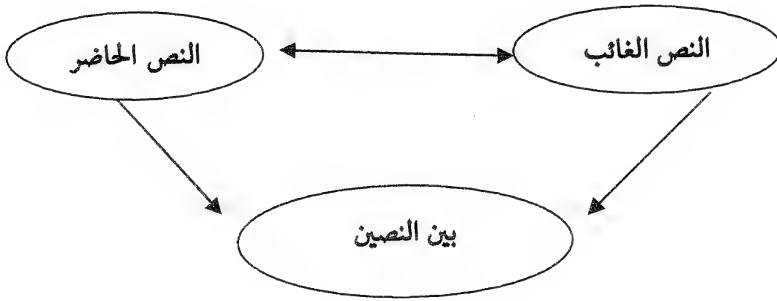
(2) عمر أوكان، مغامرة الكتابة لدى بارث، ص 30.

(3) نور الدين السد، مغامرة الكتابة لدى بارث، ص 30.

(4) د. محمد خير البقاعي، تلقى رولان بارث في الخطاب العربي النقدي واللساني والترجي، مجلة عالم الفكر، المجلد 27،

العدد 1، سبتمبر 1998، الكويت ص: 50

وإذا حاولنا صياغة تعريف للتناص - من كل ما سبق - نقول: يُمثل التناص تبادلاً، حواراً، رباطاً، إتحاداً، تفاعلاً بين نصين أو عدة نصوص، ففي النص تلتقي عدة نصوص تتصارع، يبطل أحدهما الآخر، تتساكن، تلتحم، تتعاقق، إذ ينجح النص في استيعابه للنصوص الأخرى، وتدمير في ذات الوقت، إنه إثبات ونفي وتركيب، ومن هنا فمشكلة التناص الحقيقية هو كيف يجعل نصوصاً عديدة تلتقي في نص واحد (دون أن تتدمر أو ترفض)⁽¹⁾ لم يعد العمل الإبداعي في ضوء النقد الحديث عملاً بسيط التكوين، سليم النوايا، نشاطاً بريئاً أو بئراً معزولة عن هواء العالم، بل هو نسيج محكم، تشكله و تغذيه جملة من العناصر، لعل أهمها ذاكرة المبدع وما تجيش به من خزين معرفي.



إن المتعامل مع التناص أمامه ثلاث وظائف:

- 1- استخراج النص الحاضر التناصي من البناء النصي.
- 2- استحضار النص الغائب.
- 3- تحديد العلاقة بين النصين (المستوى - النوع - التقنية).

(1) عمر أوكان، لذة النص، مغامرة الكتابة لدى بارث ص 29.

إن التناص كتقنية لم تستو على سوقها إلا على يد الناقدة البلغارية (JULIA KRISTIVA - جوليا كرسيفا) هذه الناقدة التي ثارت على مفاهيم البنيوية والشكلانية والروسية، وهذا ما مكنها من استبدال مصطلح "الحوارية" بمصطلح التناص (inter- texte)، مما أدى بالنقاد إلى الاعتراف بها كرائدة من رواد منهج التناص، فهذا (بارث) يقول في حديثه عن نظرية النص: "نحن مدينون (جوليا كرسيفا) بالمفاهيم النظرية الأساسية التي يتضمنها تعريفها للنص، وهي الممارسة الدالة (practice significant) الإنتاجية (productivité) التدليل (sinifiance) النص الظاهر (phono- texte) والنص المولد (géno-texte)، التناص (inter- texte)"⁽¹⁾ ولكن تضاربت الآراء في عطاء الريادة ل (جوليا كرسيفا)، فهناك من نفى عنها الريادة - منهم (غريماس) ومنحها ل (باختين)، ولعل هذا يعود إلى ارتباط (كرستيفا) الوثيق بأستاذها "ميخائيل باختين"، فقد ترجمت له كتابه "شعرية دوستوفسكي"، وقدمت له بأفكارها الجديدة، والتي تدعو إلى مصطلح التناص عوض مصطلح "الحوارية" الذي قال به (باختين)، وهذا ما جعل البعض يقول أن كرسيفا لم تأت بشء، فقد استبدلت المصطلح فقط، وبنيت عليه فكرتها الحديثة، المأخوذة من الفكر الباختيني⁽²⁾.

وهناك من قال بوجود التناص في القرن السابع عشر في الشعر الغربي عندما كان الشعراء ينضمون أقوال السيد المسيح، أو عبارات من الكتاب المقدس (الإنجيل)، بل إن أعظم من استخدم التناص بكثافة، هو الشاعر الناقد (ت. س أليوت 1888 - 196). وخاصة في قصيدته اليباب "حين تناصت مع خمس وثلاثين كتابا. من أشهر الذين ساهموا في إرساء هذه النظرية في العصر الحديث هو (رولان بارث) في كتابه "z/s - 1970 - وكذة

(1) حسين محمد حماد، تداخل النصوص في الرواية العربية (بحث في نماذج مختارة) ن دراسات أدبية، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 23.

(2) حسين محمد حماد، تدخل النصوص في الرواية العربية ص 23.

النص (plaisir de texte)، وبخاصة في مقولته "أنا أقرأ النص"⁽¹⁾ وذلك في قوله: "ولا تكون الطليعة أبدا سوى شكل لثقافة قديمة، وانعتاق اليوم يخرج من الأمس، إنتاجات (روب غرييه) كانت سابقة الوجود في أعمال (فلوبير)، أعمال (صولرس) في أعمال (رابليه) ن وكل إنتاجات (نيكولاي دي ستايل) مجتمعة في ستمتر مربع من أعمال (سيزان)"⁽²⁾.

لم تكن (جوليا كرستيفا) عندما راحت تبني وتضع التناص كحجر أساس تدري أن هذا المصطلح سيصبح محط أنظار الكثير من الأدباء والمفكرين، ومنه سيكون لدراسة التناص دفعه جديدة على يدة (جيرار جنيت)، فهو من اهتم بالتناص اهتماما كبيرا في أبحاثه، ويعد مشروعه النقدي، مسيرة متقدمة في دراسة أوجه العلاقات النصية، فأعطى لكل منها مصطلحا خاصا، ومن هنا أصبح موضوع البويطيقا عنده هو "التنقل النصي". وهكذا من دراسة التناص إلى دراسة "التنقل النصي"، حيث إن محاولة التمييز بين أنماط التفاعل النص، وهي التي مكنت (جنيت) من تطوير نظرية التناص، وهي التي دفعت إلى تبني مفهومه الشامل، والعميق عن علاقات التداخل النصي.

3- العلاقات التناصية عند جنيت:

إن موضوع البويطيقا عند (جنيت) هو: "معمار النص" (archi - texte) وهذا ما برز في كتابه "مدخل إلى جامع النص" 1979، أما في كتابه "أطراس" (plimp-sestes) 1982⁽³⁾، فإنه يعدنا فيه بتقديم توضيح كامل وخريطة شاملة لعلاقات تداخل النصوص، والذي يقدم فيه لنا الأدب على أساس أنه تناول ثان للنصوص يخترق بعضها بعضا، وبناء درجة ثانية مصنوع من أجزاء لنصوص أخرى سابق⁽⁴⁾. ومن هنا نجد (جنيت يقول: "إن

(1) المرجع نفسه ص: 19.

(2) رولان بارث، لذة النص، ت / فؤاد الصفا والحسين سبحان، دار توبقال للنشر، المغرب، ط 1، 1988 ص: 27.

(3) حسين محمد حماد، تداخل النصوص في الرواية العربية ص 29.

(4) المرجع نفسه ص 29.

التنقل النصي؛ هو الطريقة التي من خلالها يهرب نص من ذاته في اتجاه يبحث فيه عن شيء آخر من الممكن أن يكون أحد النصوص"⁽¹⁾، ورأى بأن تداخل النصوص له أوجه خمسة:

أ- التناص:

ويقصد به تلاقح النصوص عبر المحاورة والاستلهام والاستنساخ بطريقة واعية أو غير مقصودة، كما هو الشأن عند (كرستيفا) و(باختين)⁽²⁾، لكن عند (جنيت)، فهو أحد تصنيفات الممارسة النصية، وهو بذلك يضع التناص في إطار محدود، فنجدته يقول: ط... وفي الواقع لغا يهمني النص - حاليا - إلا من حيث تعاليه النصي، هذا ما أطلق عليه ألتعالي النصي" وأضنه ألتداخل النصي" بمعناه الكلاسيكي عند (كرستيفا)⁽³⁾، وبهذا أصبح التناص مجرد علاقة من التواجد مع نصين، أو مجموعة من النصوص؛ أي الحضور المثلث لنص آخر⁽⁴⁾، وهو يصنف التناص في ثلاث تصنيفات فرعية:

1- الاقتباس:

ويكون لمقطع أو فكرة كاملة، وهو أكثر أنواع التناص وضوحا وسهولة في تعريفه، فيقول (جنيت): ط ويعتبر الاستشهاد أي الإيراد الواضح لنص مقدم ومحدد في آن واحد بين هلالين مزدوجين، أوضح مثال على هذا النوع..."⁽⁵⁾، وربما نستطيع القول: أن النص الثاني يتخذ النص الأول محتوى له⁽⁶⁾.

2- التلميح:

يقوم على التضمين، وهو أقل وضوحا، وهنا نجد الفصل الثاني قد اتخذ من النص الأول تعبيرا له، و تضمين دون تصريح.

(1) المرجع نفسه ص: 29، 30.

(2) جميل حمداوي، السيموطيقار والعنونة، مجلة عالم الفكر، المجلد 2، العدد 3، الكويت، 1997، ص: 103.

(3) جيرار جنيت، مدخل إلى جامع النص، دار توبقال، المغرب، ط2، 1986، ص: 90.

(4) حسن محمد حماد، تداخل النصوص في الرواية العربية، ص 30.

(5) جيرار جنيت، مدخل إلى جامع النص، ص 90.

(6) محمد خطابي، ليسا نيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب)، المركز الثقافي العربي، ط1، 1991 ص 314.

3- الانتحال:

وهو يقع في المنتصف ما بين هذين القطبين، فهو غير ظاهر و لكنه اقتباس نصي على نطاق واسع⁽¹⁾؛ أي أن النص الثاني يقوم بتحويل النص الأول، لذلك فإن إدراج نص كامل في نص آخر يشبه تحويلا ترصيعا⁽²⁾.

ب- المناص:

أو النصوص المصاحبة (poratextuality) وهو عبارة عن عناوين، وعناوين فرعية، ومقدمات، وذيول، وصور وكلمات الناشر، وقد قال به (جنيت) في كتابه (seuite) "العتبات 1987"، وفيه أبان اهتمامه الزائد بهذا النمط بغية توسيعه، ليشمل كل النصوص الموازية للنص، والتي تعد نوعا من النظر النصي أو النصية المرادفة: "يمثل النظر النصي في رأي جنيت التعالي النصي بالمعنى التام"⁽³⁾ فالنظر النصي هو بمثابة العتبات والمدخل التي تربط النص الأدبي بكل ما يحيط به من نصوص، والتي سبق ذكرها، لنضيف إليها النصوص الغائبة عن دائرة الضوء، وغير المعلن عنها مثل: المسودات، والمشاريع غير المكتملة للكتاب مثل المذكرات وخطط الأعمال الأدبية.

ج- الميتانصية metatextuality:.

وهو العلاقة التي تربط نص بنص آخر يتحدث عنه، دون أن يكون هناك استشهاد يحمل منه، أو تسميته بشكل واضح وجلي، ونعني به الطريقة التي يهرب من خلالها نص من ذاته بشكل مباشر أو ضمني، ويتجه في اتجاه نص آخر⁽⁴⁾ إنه علاقة التعليق الذي يربط نصا بآخر، يتحدث عنه دون أن يذكره أحيانا.

(1) حسن محمد حماد، تداخل النصوص في الرواية العربية، ص: 30.

(2) محمد خطابي، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 315.

(3) جيرار جنيت، مدخل إلى جامع النص، ص: 91.

(4) جميل الحمداوي، السيميوطيقا والعنونة، مجلة عالم الفكر، ص: 103.

د- النص اللاحق أو التوالد النصي :hypertextuality:

هو عبارة عن علاقات تحويل و محاكاة تتحكم في النص "ب" كنص لاحق hypertexte – بالنص "أ" كنص سابق "hypotexte"، حيث إن النص اللاحق يكتب النص السابق بطريقة جديدة، ولقد اهتم به (جينيت) اهتماما خاصا⁽¹⁾.

هـ- معمارية النص "architextuality":

وهو النمط الذي تكلم عنه (جيرار جينيت) في كتابه "مدخل إلى جامع النص"، وهو الذي يبين العلاقات التي تحدد معيار وهندسة النص، إنه نوع ذو طبيعة كلية تكشف عن تصنيفات النص الفرعية والأساسية. والمعمارية النصية عمل ملحق بالأجناس الأدبية، وبمكان النص في البناء التصاعدي للأنواع الأدبية التي تكون مجال الأدب⁽²⁾ حتى يتحقق الفهم الكامل للنص وللنصوص المتداخلة معه، إنه تنميط تجريدي يستند إلى تحديد خصائص شكلية وقوالب بنيوية للأنواع الأدبية. وفي الأخير نقول أن هناك علاقات وطيدة بين هذه الأنماط الخمسة من المتعاليات النصية، فهي تتداخل فيما بينها، وتتعدد العلاقات التي تستوعبها وتجمعها.

إن التناص مسألة ثقافية، شغلت خلد كثير من الباحثين، ومن خلال التضارب الذي حدث في إرساء قواعد مرجعيتها؛ فقد تكون لها مرجعية إيديولوجية فلسفية نشأت في الغرب نتيجة لصراع الفلسفات الفكرية والمادية من النقيض إلى النقيض، وقد ساعد هذه الحركة الانفتاح الفكري والأوروبي الذي بإمكانه هدم نظرية في العلوم الإنسانية، وبناء أخرى مكانها بإيجاد المبررات المنطقية والتاريخية للفكرة الجديدة، إذن، هي مسألة قائمة على أساس التأثير اللذان هما من صميم الأدب المقارن.

(1) حسن محمد حماد، تداخل النصوص في الرواية العربية، ص: 32.

(2) المرجع نفسه، ص: 12.

4- مستويات التناص:

إن النص نسيج من الكلمات المشتبكة والمنظمة بطريقة تفرض معنى راسخا بقدره رمزية، و لكشف التناصات الأساسية فيه يجب وضعه في سياقه الفني، مع تحديد مطلقاته وخلفياته الداخلية والخارجية ومرجعياته الفنية⁽¹⁾ إن البحث في النص غوص في مكوناته الجزئية والكلية، وتبيان مستوياته التناصية التي يمكن تحديدها فيما يلي:

أولا: التناص الذاتي

"وهو العلاقات التي تعقدها نصوص الكاتب بعضها مع بعض، والتي تكشف بدورها عن الخلفية التي يتعامل معها الكاتب"⁽²⁾. إن التناص الذاتي يكشف لنا عن روافد الأديب الثقافية؛ فلا شك أن لكل كاتب عالما خاصا به، يقوم بإنتاجه في نصوصه عن طريق فهم خاص للكتابة تبرز في جميع مؤلفاته، ومؤدي هذا، إنه من المبتذل أن يقال إن الشاعر [أو الأديب] يمتص آثاره السابقة أو يحاورها أو يتجاوزها؛ فنصوصه يفسر بعضها بعضا وتضمن الانسجام فيها، أو تعكس تناقضا لديه إذا ما غير رأيه⁽³⁾ فالتناص الذاتي فهم أعمق لتجربة الكاتب ونصوصه، حيث نتمكن من معرفة هل هذه النصوص تكرر بلا بريق للشيء نفسه على نحو هستيري بالسجن في نص واحد عملاق؟⁽⁴⁾

ثانيا: التناص الداخلي:

إنه محاولة للكشف عن علاقات نصوص الكاتب مع نصوص كتاب آخرين معاصرين له، خصوصا إذا كان هؤلاء قد انطلقوا في إنتاج نصوصهم المتناصة مع نصوصه، من خلفية نصية مشتركة⁽⁵⁾.

(1) حسين محمد حماد، تداخل النصوص في الرواية العربية، ص: 45.

(2) د. محمد مفتاح، إستراتيجية التناص (تحليل الخطاب الشعري)، ص: 125.

(3) المرجع نفسه، ص: 125.

(4) حسن محمد حماد، تداخل النصوص في الرواية العربية، ص: 45.

(5) المرجع نفسه، ص: 45.

فالأديب يمتص نصوص غيره أو يحاورها أو يتجاوزها حسب المقام والمقال، ومنه نخلص إلى أن النصوص يتعين قراءتها على ضوء ما تقدمها وما عاصرها وما تلاها لتلمس ضروب الائتلاف والاختلاف⁽¹⁾.

ثالثا: التناص الخارجي المفتوح:

إنه تداخل النصوص التي يمتلئ به العالم، ولا يرتبط بدراسة علاقات النص بنصوص عصر معين، أو جنس معين من النصوص، بل هو تداخل حر يتحرك فيه النص بين النصوص بحرية تامة، محاولا أن يجد لنفسه مكانا في هذا العالم⁽²⁾؛ فهو يدخل - من أجل ذلك - في صراع مع هذه النصوص، فنكتشف بذلك مدى تنوعه أو انكماشه، ونعرف كم التناصات الموجودة فيه مع التراث العالمي والإنساني.

إن كل هذه التناصات لا بد أن يمر بها كل نص عند قراءتنا له، وإن هناك لكل نص مستويات خاصة به أو بمجموعته الصغيرة التي ينتمي إليها.

5- أنواع التناص:

إن النص بكثرة نصوصه وتعدد اتجاهاته يفترض صعوبة ضرورية، مؤداها عدد القدرة على تحديد كل ملامح النص؛ فكله يعود إلى ما يسمى ب: كيمياء المعرفة⁽³⁾.

وما يجب معرفته أن الإشكالية التي تعترض كل باحث ن متقّب في هذا النص، هي تباين الاستخدام الفني لهذا النص، فيتراوح هذا الاستخدام بين أنواع ثلاثة متفرقة؛ وقد سعى الباحث المغربي: (محمد بنيس) إلى تبني ثلاثة معايير، رأى أنها تتخذ صفة القوانين:⁽⁴⁾

(1) د. محمد مفتاح، إستراتيجية التناص، ص: 120.

(2) حسن محمد حماد، تداخل النصوص في الرواية العربية، ص: 36؛ فهو يدخل - من أجل ذلك - في صراع مع هذه

النصوص، فنكتشف بذلك مدى تنوعه أو انكماشه، ونعرف كم التناصات الموجودة فيه مع التراث العالمي والإنساني. إبراهيم رماني، الغموض في الشعر المعاصر، ص: 379.

(4) عبد الحميد هيمة، علامات في الإبداع الجزائري، ط 1، 2000، سطيف، ص: 93.

1- الإجتراح:

وفيه يعاد النص الغائب بشكل غمطي لا جدة فيه⁽¹⁾، بحيث يكون العامل الكاتب مع النص بوعي سكوني؛ فنجد أن النص الثاني يمكن أن يكون مضمونة النص الأول، مع الإشارة أنه بإمكان الكاتب إيراد النص الغائب حرفياً، إلا أن غرضه من ذلك قد لا يكون اجترار هذا النص بقدر ما يكون رغبة منه في فتح مناخ نفسي وفكري ما، تلتقي فيه تجربته هو بالتجربة التي يمتلكها التي يمتلكها النص⁽²⁾.

2- الإمتصاص:

هو مرحلة أعلى من قراءة النص الغائب، إذ أن الكاتب هنا يتعامل معه كحركة وتحول⁽³⁾، إنه النوع الذي يمثل خطوة متقدمة في الرؤيا والتشكيل، وفي ذلك تقول (كرستيفا): أن النصوص تتم صناعتها بامتصاص، وفي نفس الوقت عبر هدم النصوص الأخرى للفضاء المتداخل نصياً⁽⁴⁾، فيمكن للنص الثاني أن يمثل على مستوى التعبير النص الأول؛ وبمعنى آخر أنه يمكن للنص الثاني أن يستعير عناصر النص الأول، وبذلك تتموضع على مستوى التعبير أو المضمون، وهنا يمكن الترجيح والأسبقية⁽⁵⁾.

3- الحوار:

هو الضرب الثالث من التوظيف، هو الأكثر تعقيداً وغموضاً، والذي تعاد فيه صياغة النص الغائب على نحو مغاير تسقط منه أجزاء وتضاف إليه أجزاء أخرى⁽⁶⁾.

(1) إبراهيم رماني، الغموض في الشعر المعاصر، ص: 380.

(2) عبد الحميد هيمة، علامات في الإبداع الجزائري، ص: 94.

(3) المرجع نفسه، ص: 93.

(4) سامح الرواشدة، فضاءات شعرية، المركز القومي للنشر، الأردن، ص: 77.

(5) أنور المرتجي، سيميائية النص الأدبي، إفريقيا الشرق، المغرب، 1987، ص: 46.

(6) إبراهيم رماني، الغموض في الشعر المعاصر، ص: 380.

ويعتبر (باختين) أول من استعمل هذا المصطلح عندما قال: "إن الكلمة وهي تتجه نحو هدفها تدخل بيئة حوار مضطرب، مليئة بالتوترات، بيئة من كلمات غريبة، من أحكام القيمة والتأكيدات، وتتدخل مع علاقات معقدة، وتتملص من أخرى، تختلط بالبعض وتنفر من البعض الآخر، وتتقاطع مع مجموعة ثالثة"⁽¹⁾. وهكذا نخلص إلى أن الحوار هو توظيف واع وحي للنص الغائب، وهو أعلى مراحل القراءة لاعتماده النقد المؤسس⁽²⁾.

6- تقنيات التناص:

و نقصد بها كيف يتناص نص مع النصوص الأخرى، سواء بوعي أو بدونه، إنها من تمنح الدقة للمستويات، حيث تشكل خلفية هذا الأديب وكيفية توظيفه لها سلبا أو إيجابا، اختلافا أو ائتلافا، إن هذه التقنيات كثيرة، يمكن لنا رصد بعضها بعضا فيما يلي:

أ- تناص التألف:

وهو اتفاق الموقفين، موقف صاحب النص الأصلي، وصاحب النص الجديد أو هو تكافؤ العنصر التراثي والعنصر الحدائي، كما يقول (يوسف زيدان): "... إبراز النص التراثي الذي لا يقوم بذاته، بل بنص آخر يضاف إليه، و عن طريق الإضافة أة إشباع الدلالة، يتحدد سياق النص التراثي الأصلي، ودون الإضافة أو الإشباع يكون النص في حالة من التشظي، تؤهله لإنتاج نص جديد"⁽³⁾، إذن هي محاولة التوفيق بين ما هو تراثي، وما هو حديث في النص الأدبي عند الشخصيات، والمواقف التراثية

(1) عبد الحميد حمودة، المرايا الحدية (من البنيوية إلى التفكيكية) ص: 362.

(2) عبد الحميد هيمة، علامات في الإبداع الجزائري، ص: 93.

(3) ينظر: يوسف زيدان، الشعر الصوفي - نموذج الإمام أبو العزائم، و أحمد الشهاوي -، مجلة: "فصول" العدد الثاني، المجلد

15، صيف 1996، ص: 155.

ب- تناص التداخل:

وهو اقتران نص لا حق بنص دون المزج بينهما، أو ما يسميه البعض "التناص الشقي" أو التحول المفاجئ⁽¹⁾ أو هو الإطاحة ببنية القصيدة بكسر إيقاعها الداخلي وموسيقاها وتشيت الرؤية⁽²⁾ وهذا لنوع هو أقرب إلى الاستشهاد في الشر، أو التضمين في الشعر.

ج- تناص التخالف:

وهو تجريد النص التراثي من دلالات جديدة ومعاصرة، كاستدعاء الشخصيات التاريخية استدعاء مخالفا للمرجعية التاريخية؛ كأن يحول المؤلف حكاية هي أعلى نموذج للفرح إلى أعلى نموذج للحزن، قلبا لحقائق التاريخية. إذن، فتناص التخالف مرجعيته تاريخية وتراثية، لكن تتحول فيه الدلالات التاريخية إلى العكس إلى النقيض⁽³⁾.

د- تناص الاحتراف:

هو الكتابة بـ النص الخلفية بنمط نص سابق، اصطدام سياقين أو بنيتين إحداهما بالأخرى ضمن شبكة من العاقات، ونظام فني وفكري جديد، إنه إعادة قراءة النص القديم بفكر حديث وبدلالات جديدة، فكل قارئ يعيد كتابة النص بواسطة اكتشاف ترتيب جديد للدلالات⁽⁴⁾، إذن هو حوار جدلي يترتب وضع جديد للنصين القديم الحديث معا.

هـ- التناص الجزئي:

هو التناص القصدي، يهدف الأديب من خلاله استدعاء شخصية نص سابق أو عنوانه أو دلالاته، أو بناء النص السابق بعد تحويره، أو تمثل لغته وأسلوبه، بحيث لا يمكن

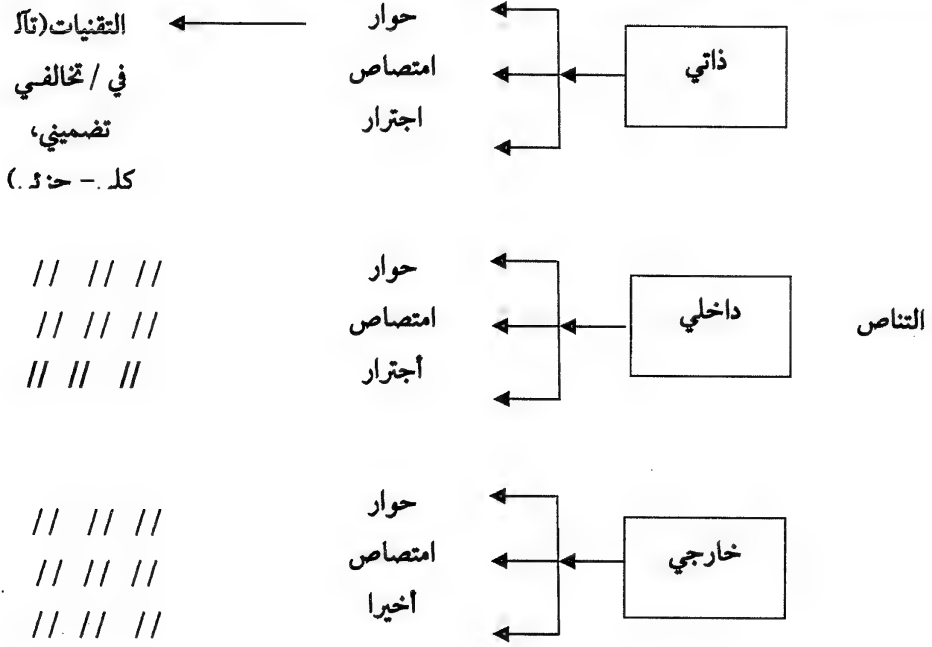
(1) ينظر: يوسف زيدان، الشعر الصوفي، مجلة: فصول العدد الثاني، صيف 1996، ص: 156.

(2) المرجع نفسه، ص: 156.

(3) ينظر: عبد الواحد لؤلؤة، من قضايا الشعر العربي المعاصر مع الشعر الغربي، مجلة الوحدة، السنة السابعة، العدد 82 / 83، أغسطس ص: 22.

(4) حسن محمد حماد، تداخا النصوص في الرواية العربية، ص: 21.

للمتلقي أن يعثر على هذا التناص إلا بعد قراءة جادة وتأويل موسوعي للنص اللاحق، لأن النص الجديد نص بمعان بعيدة كل البعد عن النص السابق، أو هو "عملية استبطان نص سابق في سياق نص لاحق، بحيث تتولد من هذه العملية دلالات متجددة لا يمكن استكشافها في النص الأسبق"⁽¹⁾ هذا ما كان من شأن التناص - تقريبا - عند الغر، لهذا المصطلح، ولكن هل كان لهذا المصطلح وجود في التراث؟.



7- مصطلح التناص في التراث:

إذا تأملنا حركة النقد الأدبي العربي، فإننا سنقف على كثير من الأمثلة الدالة على معنى التناص بمصطلح أو بآخر، يقول (زهير بن أبي سلمى):

ما أرانا نقول إلا معارا أو معادا من لفظنا مكرورا.

(1) يوسف زيدان، الشعر الصوفي المعاصر 'مجلة الفصول'، العدد 02، المجلد 15، صيف 1996، ص: 154.

إن هذا تأكيد واضح على إعاره شاعر ما من شاعر آخر، وهذا ما جعل القدامى يؤمنون بأن الشاعر لا يكون شاعرا، إلا إذا قرأ لفحول الشعراء وحفظ لهم. يقول (ابن خلدون): "إن الشاعر الذي قل حفظه للأشعار الجديدة لا يكون شاعرا، وإنما يكون ناظما، ساقطا، واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ، ثم الامتلاء من الحفظ وشحذ القرينة للنسج على المنوال..."⁽¹⁾. وما نلاحظه أن (ابن خلدون) يصطنع نسيان الحفوظ، وهو الذي يدعوه (بارث) ب: "تضمينات من غير تنصيص"، فنسيان النص يفضي إلى كتابه نص أصيل وجيد إذا كان المحفوظ المنسي جيدا⁽²⁾.

أما الجاحظ فيقول عن تقنية الأخذ: "هو استغلال الشاعر والناثر لما جاء من معاني سابقة والفاظهم بنقلها مع تحوير"⁽³⁾.

وكان العرب القدامى ينظرون إلى الاقتباس والتضمين والاستشهاد نظرة إيجابية وضرورية أيضا، على أن يكون النص النموذج "مشتغلا بحرية في النص قيد الإبداع بشكل لا شعوري، وهذا ما أشار إليه (صبري حافظ) عندما قال بالملامح الهامة في تراثنا النقدي لمصطلح التناص: "وبعد المفاهيم النقدية القديمة تقارب في دلائلها أنواع التناص وأشكاله، فأغلب القدماء يلحون على أنسج على المنوال"⁽⁴⁾، ومن أهم المصطلحات التراثية التي قاربت دلالة التناص ومفهومه. والتي يمكن استثمارها في تحليل النصوص الأدبية نجد:

1- المعارضة:

وتدل على المحاكاة والمحاذاة في السير، وإلى جانب هذا فهي محاكاة أي صنع أو فعل. إن هذا المعنى الماصدقي هو الذي سوغ انطلاق النقاط العرب على المحاكاة الشعرية اسم المعارضة⁽⁵⁾.

(1) نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، الجزء 2، ص: 118.

(2) المرجع نفسه، ص: 118.

(3) الشاهد البوشيخي، مصطلحات نقدية وبلاغية في البيان والتبيين للجاحظ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 1، 1982، ص: 56.

(4) نور الدين السد، تحليل الخطاب الشعري والسرد، ص: 116.

(5) المرجع نفسه، ص: 118.

2- المناقضة:

وتعني المخالفة، نقض الشيء نقضا: أفسده بعد حكامه، وناقض الشاعر الشاعر، إذا قال أحدهما قصيدة فنقضها صاحبه عليه رادا على ما فيها معارضا له، والمناقضة يمكن عدها مبحثا من مباحث التناص، لأن فيها يتجلى بناء نص لاحق على نص سابق أو نصوص سابقة، وهو مصطلح استعمله العرب بهذا المفهوم⁽¹⁾.

3- التضمين:

يقول القلقشندي: "إذا أكثر صاحب الصناعة من حفظ الوقائع والأحوال فأودعها في مكانها، واستشهد بها في موضعها، والطريق في استعمالها في النثر كما في جل الأشعار واستعمالها لأنها بذلك عرفت واشتهرت..."⁽²⁾ فالتضمين هو استعارة الشاعر الأصناف والأبيات من شعر غيره وإدخاله إياه في أثناء أبيات قصيدته، أما في البيع، فهو أن يأخذ الشاعر أو الناثر آية أو حديثا أو حكمة أو مثالا أو شطرا أبيتا من شعره غيره بلفظه ومعناه.

4- الاقتباس:

هو أن يزيد المتكلم كلامه بعبارة من القرآن يظهر أنها منه، وما يحسن هو أن توطن في الكلام، يمكن اعتماد الاقتباس في تحليل الخطاب الأدبي كمفهوم إجرائي يتم من خلاله رصد ظاهرة الاقتباس بأنماطه وتحديد ماهيته ووظيفته في الخطاب اللاحق، مع الأخذ في الاعتبار أن التوظيف اللاحق للمنجز السابق ووضعه في سياق جديد يأخذ بعدا دلاليا جديدا بحكم تواجده في بنية نصية جديدة⁽³⁾.

(1) المرجع نفسه، ص: 118.

(2) نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ج2، ص: 119.

(3) المرجع نفسه، ص: 120.

5- السرقة:

لقد أحصى (الرجاني) السرقات الأدبية - تقنيات التناسخ حديثاً -: "بالنقل وبالقلب، وتغيير المناهج والترتيب، وتكلفوا جبر ما فيه من النقيضة بالزيادة والتأكيد والتعريض في كل حال، والتصريح في أخرى، والاحتجاج والتعليل، فصار أحدهم إذا أخذ معنى أضاف إليه من هذه الأمور ما لا يقتصر معه عن اختراعه، وإبداع مثله⁽¹⁾ وهكذا لا يمكن لكل مبدع أن يدعي السلامة منها؛ ففيها الغامض وفيها المفصوح الذي لا يخفى على أحد. تداول المعاني:

قيل: "لولا أن الكلام يعاد لنفد"⁽²⁾، ويقول (العسكري): "ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدمهم، والصب على قوالب من سبقهم، ولكن عليهم، إذا أخذوها أن يكسوها ألفاضها من عندهم ويبرزونها في معارض تأليفهم... ولولا القائل يؤدي ما سمع لما كان في طاقته أن يقول، وإنما ينطق الطفل بعد استماعه من البالغين"⁽³⁾.
التناسخ ومستوياته في الرواية:

إذا تتبعنا المجال الجغرافي للتناسخ في الرواية "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" وجدناه ذا تضاريس متنوعة تتوسع على مساحة جغرافية واسعة؛ فالتناسخ يحتل مساحة واسعة عبر متن الرواية بمستوياته الثلاث:
1- التناسخ الذاتي:

من منطلق، أن التناسخ لا يعدو، أن يكون تحويلاً للنصوص الواحدة لنفس المؤلف، فإننا سنستقصي هذا المستوى التناسخي في فكر الروائي الطاهر وطار؛ حيث أن المتتبع لكتابات هذا الروائي يجد أن الكاتب قدم مشروعاً روائياً متسلسلاً زمنياً ومتشابكاً في إحداثه وذلك من "اللازم" إلى "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي"، وبدون قراءة ما كتبه وطار منذ

(1) المرجع عينه، ص: 119

(2) أبو هلال العسكري، الصناعتين (لا الكتابة والشعر)، ت: علي محمد البجاوي ومحمد أبو فضل إبراهيم، المكتبة العصرية، يدا، بيروت، 1986، ص: 196.

(3) المرجع نفسه، ص: 196.

بدايته حتى آخر رواية، لن يستطيع القارئ فهم مشروعه الروائي⁽¹⁾ كما أنه لن يستطيع إدراك تاريخ الجزائر المعاصرة، فهذه الانسيابية في أعماله مرده إلى ذاتيته وثقافته واديولوجيته ولغته وذوقه وعاطفته.

تبدأ دراسة التداخل النصي بالدخول إلى ذات المؤلف، ذلك الحيز الذي يتم فيه تشكل النص وفقا للتكوين الاجتماعي والثقافي للمؤلف نفسه، حيث إن التكوين هو الذي يسهم في الترتيب الهرمي بنصوص المجال التناسي داخل حيز الذات المؤلفة⁽²⁾. وقد أسهم في التكوين الثقافي / الأيديولوجي للطاهر وطار عاملان:

الأول: هو تنوع الروافد التي استقى منها ثقافته.

أما الثاني: فهو اللحظة التاريخية التي يعيشها وطار - هذا الروائي الجزائري المولود في 15 أوت 1936 - بشرق الجزائر.

وروافد ثقافة الطاهر وطار تنقسم إلى: الرافد العربي الإسلامي والرافد الأجنبي، ويرجع فضل تكامل الرافدين في شخصية (وطار) أولا دون سواه لاستعداده الذكي بحكم سعة اطلاعه، وقدرته على الآخر والتحكم فيه حسب مبتغاه، وثانيا، فضل والده الكبير الذي أراد له نشأة دينية كي يصير في قادم أيامه شيخا يشار إليه بالبنان، فوجهه لتلقي علوم الدين في جمعية العلماء المسلمين في الجزائر، ليواصل دراسته في جامع "الزيتونة" بتونس، بيد أن (وطار) بقرار حاسم انصرف عن مواصلة دراسته الدينية، والتحق بفصائل ثوار بلده⁽³⁾، يقول وطار عن هذا الرافد: "... من حسن حظ الكاتب العربي أن له امتدادا عبر التاريخ؛ عصر الماضي، عصر الحاضر، عصر المستقبل، أنا عندما أدخل مكتبي أجد الشنفرى، وأجد أبو العلاء المعري، وأجد الإمام البخاري، وأجد عبد الوهاب البياتي، وأجد البردوني، وأجد

(1) عبد الرحمان مزيان، الأزمة الجزائرية في الرواية الأخيرة، مجلة التبيين، العدد 15، ص 74.

(2) حسن محمد حماد، تداخل النصوص

(3) إسماعيل فهد إسماعيل، الطاهر وطار: المغامرة والحدس، التبيين، العدد 15، 2000، ص: 66، 67.

محمود درويش، وأتصور أنني في الصباح سألتقي أحدهم لأن هؤلاء باستمرار هم زادي رصيدي⁽¹⁾.

إن وطار دائم العودة إلى التراث العربي، لإحيائه في ثوب جديد يواكب ما هو كائن وما سيكون كما واكب ما كان، لذلك فهو يقول: أنا ابن التراث العربي الذي تشبعت به روحي ونما بين أحضانه فكري⁽²⁾.

أما الرافد الثقافي الغربي، فرمما يعود إلى أن الطاهر وطار واسع الإطلاع؛ فهو أديب يجب عليه المرور بالملاحم والأساطير اليونانية، ويتشبع من زاد الحضارة الغربية الأوربية، فينهل من آدابها ومدارسها، ويمتلك بجل - إن لم نقل معظم - الثقافات والحضارة الإنسانية، فيأخذ كل ما يناسبه من الآخر، ويحدث له عملية إسقاطيه بما كائن في بلدنا.

وبين هذا الرافد وذاك، حدث اضطراب في شخصية الطاهر وطار، ولذلك نقول أن الطاهر وطار ما وصف إلا حاله عندما قال: "نصفي ممتلئ بالقرآن الكريم، وبالحديث النبوي الشريف، وبابن عربي والمنتبي، والجاحظ والشنفرى، وامرؤ القيس، وزهير بن أبي سلمى، ومحمد عبد الوهاب، ومحمد عبده، والأفغاني، ونصفي الآخر ممتلئ بماركس، وأنجلز، ولينين، وسارتر، وغوركي، وهمنغواي، وهيغل، ودانتي"⁽³⁾.

هذه الصورة لحالة الروائي الطاهر وطار؛ هو زيتوني، إسلامي من الجهة، وماركسي من جهة أخرى، إذن هو الصراع الذي يحتدم في نفس وطار بين الإسلامية والشيعية، وهذه الحالة هي نفسها حال الجزائر الآن. وللعامل السياسي كذلك شأن عظيم في بلورة فكر الطاهر وطار، فهو فخور لكونه كاتباً سياسياً، وكل ذلك بحكم انخراطه في جيش التحرير، فاحتك بالقادة والزعماء الكبار، فتكون لديه وعي سياسي يجعله ينقد كل راهن و يتطلع إلى غد جديد.

(1) جهاد فضل والطاهر وطار، وجهاً لوجه، مجلة العربي، العدد 446، يناير، 1996 ص: 67.

(2) عياش بجاوي، حوار مع الطاهر وطار، مجلة التبيين، العدد 15، 2000، ص: 78، 79.

(3) الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، الجاحظية، الطبعة 1، الجزائر، 1999، ص: 56، 57.

وهذا ما أحدث تكاملا مع العمل الثاني الذي أثر على ثقافة الروائي الطاهر وطار، ويتمثل في الوضع الراهن أو اللحظة التاريخية التي يعيشها وطار مع الشعب العربي عامة والجزائر خاصة، إنه التفاعل مع مرحلة من أصعب المراحل التي تمر بها الجزائر بعد الاستقلال، أبرز ما يمثلها تعبير "العشرية السوداء"، إنها لحظة نبوءة الزلزال في المجتمع و الفكر والسياسة، إنه التمرد على كل ما هو فاسد، وما يحدث في الجزائر له طابع التمرد الاجتماعي والسياسي والرافض لهيمنة ثقافة الآخر على حياته ومؤسساته، وهو ناتج عن شرخ غائر في الذات الجزائرية⁽¹⁾.

لذلك فالحركة الإسلامية الحديثة بدءا من الوهابية، إلى محمد عبده، هي بشكل ما معادية للاستعمار والتخلف، "ومن هذا لا المنظر، يجب أن لا نحكم على كل الحركات الإسلامية على أنها حركات إرهابية، لأن لها رؤيتها الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، وهي تفعل في الوقت الذي اكتفت فيه المنابر بالكلام، وهذا لا يحجب عنا أن بعضها لا يملك أية رؤية واضحة في العمران والمدينة، ولهذا تلجأ إلى التقتيل والهمجية"⁽²⁾، كما أن الطاهر وطار - حسب تصريحاته - ينفي أن تكون لديه مشكلة الدين، وخصمه الوحيد هو الاستغلال باسم الدين، وقد أنشأ الأولى إذاعة القرآن الكريم في الإذاعة الجزائرية التي عمل مديرا عاما لها في (1991 - 1992)، وشتت عليه الصحف الناطقة بالفرنسية هجمة واسعة اتهمته بالظلامية، فهو يقول: "الإسلاميون في الجزائر هم خصومي وليسوا أعدائي، أدافع عن حقهم في العمل والتعبير، وعن حريتهم حتى وإن اضرموا لي القتل ذبحاً"⁽³⁾.

ومن هذا المنطلق، كانت رواية الطاهر وطار، التي تعبر عن آمال الكاتب في رفض العنف والقتل إلى أقصى الحدود، إنها دعوة إلى السلم، ولذلك قال: "أنا لي رأي، وربما تجده في الكثير من أعمالي، وهو أنه يكفي أن نعيش فترة معينة لنذوق جميع ما يذاق، ونمارس

(1) عياش مجايوي، حوار مع الطاهر وطار، مجلة التبيين، العدد 15، ص: 83.

(2) المرجع نفسه ص: 83.

(3) المرجع عنه ص: 86.

جميع ما يمارس، ثم نعود من حيث جئنا، وكان ولا بد فلنعد جميعا سليمين وصاحين⁽¹⁾، إذن هي الدعوة للعودة، عودة تضمن لنا الاطمئنان والسلام بعد كل هذا الظلام.

لقد كان لتداخل النصوص، في المستوى، حضور مميز في الرواية، وخاصة مع الرواية التي سبقتها "الشمعة والدهاليز"، وبرز ذلك عبر ملامح أهمها: ملمح شخصية المثقف؛ تمزقها وقتلها، هذا المثقف الذي يعمد وطار دائما لاضطهاده و قتله في كل أعماله، لأنه يثير الكثير من الأسئلة، فهو ينظر للرسائل بوجهة تختلف عن وجهة نظر الإنسان العادي، يقتله كما قتل عبر التاريخ، يقتله ليمنحه الخلود، فنجده يقول: "ما معناه، يموت واصل بن عطاء، يموت الجاحظ، يموت ابن رشد، يموت ابن الهيثم، يموت البيروني، يتربع ابن حنبل من جديد على العرش... تموت أنت" ودائما في كل روايات الطاهر وطار المثقف يقتل على يد ما يسميه بالرجعي؛ ففي اللازما قتل زيدان رمز المثقف لصمته، لحنكته لذكائه ولوطنيته، من طرف الشيخ الرجعي صاحب الوقار الكاذب المستتر باسم الدين، لبيسط سلطانه على الشعب، ويجعل وطار امتدادا له في الرواية "العشق والموت في الزمن الحراشي"، في شخص مصطفى الذي يمثل خير خلف (؟) خير سلف (؟)، الذي يعمل دائما على اضطهاد كل مثقف، ثائر: "من هو الفدائي؟ من منكم حمزة؟ أين خالد بن الوليد سيف الله المسلول من بينكم؟، إن ضرب البنات هنا معناه إنزال الرعب في قلب كل الجامعيات...⁽²⁾.

إنه الفكر الرجعي الذي يجعل المثقف الذي يقول: "إما أن نسلم أعناقنا للذبح وإما أن نتخلى عن معتقدنا"⁽³⁾، وهو الفكر الذي وجد امتدادا في شخص الإخوة الثلاث لعلي الحوات في "الحوات والقصر"، الذين اضطهدوه، وعملوا على قطع لسانه كمصادرة حرية التعبير، كضمان للحكام لعدم إظهار الحقيقة: "إن الحقيقة تجلت، وأن أعداء على الحوات لم يستطيعوا أن يمنحوه من التعبير عن الخير الذي جاء يسم العصر به"⁽⁴⁾ ويواصل الامتداد لهذا

(1) الطاهر وطار وجهاد فاضل، وجهها لوجه، مجلة العربي، 446، ص: 70.

(2) الطاهر وطار، العشق والموت في الزمن الحراشي، اللازما، الكتاب 2، دار رشد بيروت، ط 1، 1980، ص: 130.

(3) المصدر نفسه، ص: 140-141.

(4) الطاهر وطار، الحوات والقصر، دار البحث للطباعة والنشر، قسنطينة، ط 1، 1980، ص: 268.

الفكر عند الوزير الذي يضطهد مستشاره الشيوعي بالإهمال والتهميش، فيقول: "أنا مستشار الوزير الذي لا يشاوروني في شيء إيه يا زمن؟"، ويبقى هذا الفكر هو الشاغل الرئيسي للروائي ويجوله في كل روايته، إنه الفكر الإرهابي المصوب ناحية المثقف الحر، فنجده يقوم بقتل الشاعر الفيلسوف في رواية "الشمعة والدهاليز"، إنه أكثر تأصيل مع الأنا، وأكثر إدراكا لخطورة الآخر. إنه يخاطب الحركات الإسلامية التي تدعوا إلى العودة إلى الخلف عبر واد من الدماء: "إن هذا الحلم ينبغي ألا يتحطم على الأقل بهذا الشكل الغبي"⁽¹⁾، وصولا إلى الرواية التي بين أيدينا فيكاد يقتل فيها الروائي "نجيب محفوظ" بطعنة من سكين الولي الطاهر. هذا الأخير الذي يسعى لقتل رمز المثقف الذي لا ذنب له سوى التساؤل في حين يبرز لنا مفارقة غريبة من خلال شخصية عيسى حليح الذي يجمع بين النقيضين، إنه مثال رمز المثقف المهش؛ فبمجرد أن يؤخر إلى ويقفز إلى النقيض من النقيض.

وقبل هذا القتل للمثقف، نجد إيراد أزمته ألا وهي تمزقه بين الأنا والآخر التي برزت في كل أعمال الطاهر وطار؛ فالمستشار يعبر عنها قائلا: "هم الأصل... أنت واحد من الهم وأنا! هذا الأجنبي تماما عنهم، لا هم لي، إلا أن أناي يشكل نهائي عنهم"⁽²⁾. والفكرة ذاتها تتمص لتخرج على لسان الشاعر في رواية "الشمعة والدهاليز": من أنت؟ من أنا؟ لقد علمتني ما يجب أن أعلم، وإنني أبحث عن علاقتي بك"⁽³⁾ وتستمر هذه الفكرة بتحوير يعمم حالة الانقسام هذه على كل مثقف عربي مسلم؛ لا الجزائر فحسب، تمزق تمثل في شخص "نجيب محفوظ": رأيتني ممزق بين أنا وبين آخر غيري، إنه تمزق المثقف العربي الإسلامي الذي أصبح خليطا من المواقف و الثقافات المتناقضة، أصبح يشكل جزء مهما في الأزمة؛ فهو أحد عناصرها الأساسية عن طريق صدمته بالحدثة الغربية فأصبح إما منخرطا فيها بشكل سلبي أو رافضا لها بشكل سلبي أيضا.

(1) الطاهر وطار، تجربة في العشق، ص: 12.

(2) الطاهر وطار، تجربة في العشق، ص: 12.

(3) الطاهر وطار الشمعة والدهاليز: ص 180.

أما الملمح الآخر الذي يبرز في كل روايات الطاهر وطار أو بالأحرى النص الذي يظهر في كل مرة هو ذلك النص الذي يصف العمل الديني، ودوره من خلال ممثليه "شخصيات النص" يصنع الأحداث وتوجيهها بما يرسم لوحة استشراقية وفقت لأن ترصد بإحساس واقعي مرهف، ما اعتمد في البنية التحتية للمجتمع الجزائري من تيارات سيكون لها دورها الفعال والمؤثر مستقبلا حيث رصد - قبل أي من كتاب جيله - تشكيل تيارات الإسلام السياسي في رحم جبهة التحرير الجزائرية قبل الاستقلال، للاحق تطورها بعد ذلك، كاشفا دائما عن استغلال الدين في أمور السياسة، وهو استغلال ينكره بشدة الروائي ويهاجمه دائما، وهو يصرح أنه عندما يدين التيارات الرجعية، لا يدين الإسلام أبدا على العكس من ذلك، أنه يرى الإسلام ضرورة دنيوية⁽¹⁾، وهذا هجوم تجلّى في الرواية الأخيرة، وفي تحطيم الولي الطاهر بإظهاره رجلا صوفيا تارة و حاكما متسلطا يغامر بكل شيء من أجل كل شيء، حتى العنف تارة أخرى.

لكن ما يثير الاهتمام، هو التناص الكبير الذي نجده بين الشمعة والدهاليز والولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي. وهذا ما اكتشفناه في قوله، بأنه أجاب على قدر الإمكان في هذه الرواية على أسئلة طرحتها سابقتها الشمعة والدهاليز ونظرا للتفاعل الحاصل بينهما قالوا: إنما بأسلوبهما ومحتواهما التجديدي -بعض الشيء- رسم لايدولوجيا جديدة تقوم على حطام من الايدولوجيا المهمشة.

وأول ما يسترعي انتباهنا - هو ذلك التشابه بين الخيزران بطلة الشمعة والدهاليز، وبلارة بنت تميم - بطلة الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" وكأن الثانية امتداد للأولى، إنما المرأة الغواية التي تظهر في جل أعمال الطاهر وطار فمن مريانة في "اللاز" إلى "جميلة" في "الموت والعشق في الزمن الحراشي" جميلة الفتنة... بقرة إبليس، هي تغويهم بالتطوع⁽²⁾ هكذا وصفها مصطفى، ثم تأتي الخيزران التي تغوي الشباب، فيقتحمون لها قلوبهم، ويعرف من خلالها ما يشغل بال المعرب غير المتطرف، والتي بسببها يقتل الشاعر بتهمة لإغوائها وفساد علاقتها

(1) واسيني الأعرج، الطاهر وطار، تجربة في الكتابة الواقعية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص: 60.

(2) الطاهر وطار، العشق والموت في الزمن الحراشي، ص 130.

بالأجهزة التي تستخدمها⁽¹⁾ في معرفة هذا المعرب هي نفسها بلارة الولي الطاهر، هذه المرأة الغواية التي أرسلت إلى الولي لتعيش معه حالة تنجب بها نسل كل الناس، لكنه رفض وتمادى في الرفض بإراقة دمها، رغم أنها حذرته من ذلك، لكنه لم يصغ لها، تأوّهت واختفت وتلاشت، وراح هو يعيش حالة ضلال وتيه لا حدود لهما، باحثاً عن مقامه الزكي بعد أن أصبح في حالة اللا عقل، و السؤال: لماذا رفض الولي الطاهر عيش الحالة مع "بلارة" الخوفه منها بعد أن أدرك خطورتها في فكرة؟ أم أنه يريد أن يبقى مقامه معزولاً عن الآخر. وفي كلتا الحالتين، البطل هو رجعي، لا يعمل للمستقبل بل يعمل للماضي، وهو يحاول - في حالة يأس - أن يطيل ما أمكن عمر الماضي، تماماً كبول رواح في بعض ملاحقه، كما أن الرويتين وكسابقاتها - يطرحان إشكالية الأنا والآخر عند المثقف العربي، المسلم، هل يمكن إعادة ما كان على ما كان عليه؟ أم يمكن العودة إلى نقطة النور ثم الانطلاق صانعين مجداً كما فعل أسلافنا؟ ولكن هل يفيد هذا مع سياسة من ليس معنا فهو ضدنا؟ هل يفيد ببحر الدم هذا؟ أما زالت الخيزران تعيش بيننا؟⁽²⁾.

ونستطيع القول أن الولي الطاهر حالة جامعة ومكثفة، إنه مفرد بصيغة الجمع، كالآز و كعلي الحوات وكالشاعر الفيلسوف، إن وطار يلجأ لهذا البناء جاعلاً عنصراً مشتركاً في جميع رواياته، هو التجوال، الذي يشبه تجوال الشاعر في الأدب الإغريقي، فمن خلال تحرك الأحداث الحقيقية.

ثم إن تيه الولي الطاهر يكاد يستحضر تيه "مصطفى" في قصة "صحراء أبداً"، فمصطفى يعيش حالة تمزق ويصارع من أجل الخروج من هذه الصحراء التي وجد ففيها؛ متى ستخرج من الصحراء. يا مصطفى؟⁽³⁾. سؤال راح يردده مصطفى طيلة القصة، فقد سئم الصحراء، فهو يقول: سئمت حياة الصحراء... الصحراء يا رب... الرمال ممتدة على مدى البصر⁽⁴⁾.

(1) الطاهر وطار، الشمعة والدهاليز، ص: 194.

(2) المصدر نفسه، ص: 87-88.

(3) الطاهر وطار، الشمعة والدهاليز، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1982، ص: 36.

(4) المصدر السابق، ص: 37.

الولي الطاهر يعاني التمزق بسبب بحثه عن المقام الزكي، الذي يكاد يتلاشى في القصور التي تضاعفت على مدى بصره في هذا الفيف السحيق، تحت شمس ذاهلة وضلال غير ممتدة⁽¹⁾.

وأما الملمح الأخير، الذي اهتدينا إليه، هو ذلك الاستعمال اللامنطقي للزمن؛ فنجد الزمن في كل الأعمال إنما هو زمن في، زمن الإحساس، لا زمن التاريخ والمنطق، وطار يقول: أن الأدب العظيم هو الذي يتنبأ عن طريق دراسة الواقع ونقده⁽²⁾ والزمن الحق هو الذي يربطك ما سبق بما سيأتي وفق إحساس صاحبه، وهي الفكرة التي يسعى جاهدا لتوضيحها عبر السنة أبطال أعماله؛ فها هو "بولرباخ" يقول: "الزمن يطول أو يقصر، الزمن الحقيقي إحساس"⁽³⁾، والزمن في "الشمعة والدهاليز" زمن أهل الكهف، زمن التذكر والتنقل من هذه اللحظة إلى تلكم. ويعمل الأديب هنا إلى طي الزمن وجعله وقتا حلميا يقع في مناطق مظلمة ومناطق مضاءة، مناطق واعية ومناطق موهومة الإحساس فيها يغلب طولها أو قصرها⁽⁴⁾.

أما الزمن عند الولي الطاهر فهو زمن الذاكرة التي تسافر بين الماضي والحاضر، إنه زمان قد يصغر وقد يكبر، قد يطول وقد يقصر⁽⁵⁾، يبقى مفتوحا بمصراعيه على المستقبل بالقدر الذي يبقى موضوع القصة مستمرا، إنه زمن لا تعرف له بداية كما لن تعرف له نهاية. وكل هذا يبرر مهارة الروائي، وتمكنه من لعبة الزمن، بنأي عن الزمن الواحد والمتسلسل والمنطقي والمحسوب، إذ يجد القارئ أن أحداث الرواية وشخصها تسير عبر أزمنة متداخلة دون أن يختل البناء الروائي أو يضطرب تطور الشخصيات والأحداث⁽⁶⁾.

(1) الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، ص: 13.

(2) واسيني الأعرج، الطاهر وطار، تجربة في الكتابة، ص: 60.

الطاهر وطار، الزلزال، ص: 28.

(3) الطاهر وطار، الزلزال، ص: 28.

(4) الطاهر وطار، الشمعة والدهاليز، ص: 6.

(5) الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، ص: 20.

(6) واسيني الأعرج، الطاهر وطار، تجربة في الكتابة، ص: 60.

وهكذا نجد الروائي عن طريق التحويل والامتصاص والاجترار، في هذه الرواية يتناص مع رواياته السابقة؛ روايات تكاد تدور في فلك واحد هو: المثقف الجزائري، أو بالأحرى المثقف العربي الإسلامي، والتمزق الذي يعاني منه في ظل حكم استغلالي وانتهازي؛ يستغل الدين من أجل تحقيق أغراضه، أي "عملية تسييس الدين بهدف تدين السياسة والسلطة".

2- التناص الداخلي المغلق:

إنه ثاني السياقات أو المستويات التناصية، الذي يتناول العلاقات التناصية للنص مع النصوص المكتوبة بنفس اللغة سواء معاصرة له، قبله أو بعده، قصد الكشف عنها، وتبيان مدى تحققها لهدف الكاتب، ومدى فنيته وأصالة كاتبها في إبداعه هذا، وقد وجدنا الرواية زاخرة بهذا المستوى من التناص، لذلك ارتأينا أن نجعله في خمسة أقسام:

1- قسم مع القرآن الكريم:

يحتل تناص الرواية مع الفضاء القرآني مرتبة كبرى، وهو تناص حول ثيمات تعمق من أجواء الرواية وانشغالاتها الفكرية والنفسية، ويظهر هذا القسم في النص بطريقة اجترارية - في معظمه - فيها الكثير من الأدبية، إنه تناص ظاهر يخضع لعوامل الحفظ الذي نشأ عليه الأديب منذ الصغر.

واستنصاح القرآن في نظمه المعجز أكثر من الاستنصاح العام الذي يعسر⁽¹⁾، وهو ظاهرة يستحيل أن يفلت منها أي أديب مسلم مهما حاول، وما نلاحظه في هذه الرواية هو الحضور القوي لسورة الأعلى والفاتحة؛ ترداد الفاتحة ربما يعود لما فيها من حمد كثير لله والابتهالات الكثيرة التي هي تضرعات بطلب الهداية. فلا هادي سواه، قد يكون حال الولي الذي يستحق الهداية لينجوا بنفسه وبأهل مقامه، وأما ترداده لسورة الأعلى خاصة: ﴿سَيِّدُكَرُ

(1) عبد المالك مرتاض، تحليل الخطاب السردى، ص: 279.

مَنْ خَشِيَ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿١٣﴾ (١)

لماذا يتوقف الولي عند هذه الآيات دائماً؟ أهو خوفه أن يكون من الأشقياء الذين يصلون النار الكبرى؟ أم خوف من أن يعدم الذاكرة مرة أخرى، أهو يدعوننا باستعادة الذاكرة كلها دون الخشية؟ (٢)، كما نجد إصرار عنيف عبر صفحاتها على آية ﴿سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى﴾، وكأن الروائي يحذر القارئ من نسيان المجازر التي لم يعتبر منها أحد عبر العصور. إن الروائي عبر هذه السورة يلقي الضوء على ما حدث في الجزائر وفي العالم العربي، فأوضاعه مزرية تدور في حركة سيزيفية لا جدوى منها، حركة تنتهي بتغير وتطور المجتمعات العربية الإسلامية.

واستحضر وطار آيات أخرى لمأرب في نفسه؛ فمرة يستدعيها لتوافق دلالتها مع دلالة نصه، وأخرى مخالفة لها، وهذا إما اجتراراً أو امتصاصاً أو حواراً؛ ففي قوله: "وهذه الشمس الذاهلة، هل فقدت اتجاهها ضاع عنها المشرقان والمغربان فلا تدري أين تذهب؟" (٣) إن الروائي هنا يمتص النص القرآني: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ (٤) الذي يعب عن توقف الشمس في منتصف المساء، فلا تنم عن أي توجه لها. والروائي بهذا التشخيص في اللبنة التخيلية، مكننا من قراءة نص قديم في نص جديد، لأنه استغل سكون الشمس المفروض في الآية وبني عليه الرواية. لأما في قوله: "قلت ومن أدراكم فيوم ربكم كآلف سنة مما نعد" (٥) فهذا تضمنين لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا

(١) سورة الأعلى، الآيات: 9-10-11-12.

(٢) الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، ص: 20.

(٣) الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، ص: 16.

(٤) الفرقان، الآية: 45.

(٥) الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، ص: 18.

عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿١﴾، ولعل من أجل التناصت القرآنية بطريقة اجترارية فنية، هي تلك الصورة التي يمنحها الروائي للولي الطاهر وهو تائه في الفيف العميق ينشد الخلاص، مستحضرا في ذلك صورة سيدنا موسى - عليه السلام - عندما سار من مصر إلى مدين دون طعام، حافي القدمين، ورغم الجوع راح يقول: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٢) وهو القول ذاته للولي الطاهر عندما كان يبحث عن الماء، وعن الظل، وعن الخلاص. فسيدنا موسى - عليه السلام - وجد الظل، في حين الولي لم يجد ذلك رغم كون الاثنين ضائعين في الصحراء.

ونجد استحضاره لقصة سيدنا إسماعيل عليه السلام عندما قال: ﴿أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (٣) ثم فدى بذبح عظيم، استحضرها ليسقطها على حال الأديب العالمي "نجيب محفوظ". وكأنه قال للذين قرروا قتله وقد أصر على آرائه افعلوا بما أمرتم ستجدوني من الصابرين، وفدى بعد ذلك بذبح عظيم، فبقي على قيد الحياة لأن البشرية بحاجة إلى أديب مثله، يثور عند الحاجة.

وبعبرية فنية استحضر قصة أهل الكهف بطريقة حوارية تعبيراً عن خيبة الولي الطاهر: "لا يدري الولي الطاهر كم استغرقت هذه الغيبة، فقد تكون لحظة، وقد تكون ساعة، كما قد تكون قرونا عديدة" (٤)، وهذا إيحاء لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۖ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ (٥)، لإذن، غيبة الولي الطاهر شبيهة بغيبة أهل الكهف، لا يعرف لها مدى.

(١) الحج، الآية: 47.

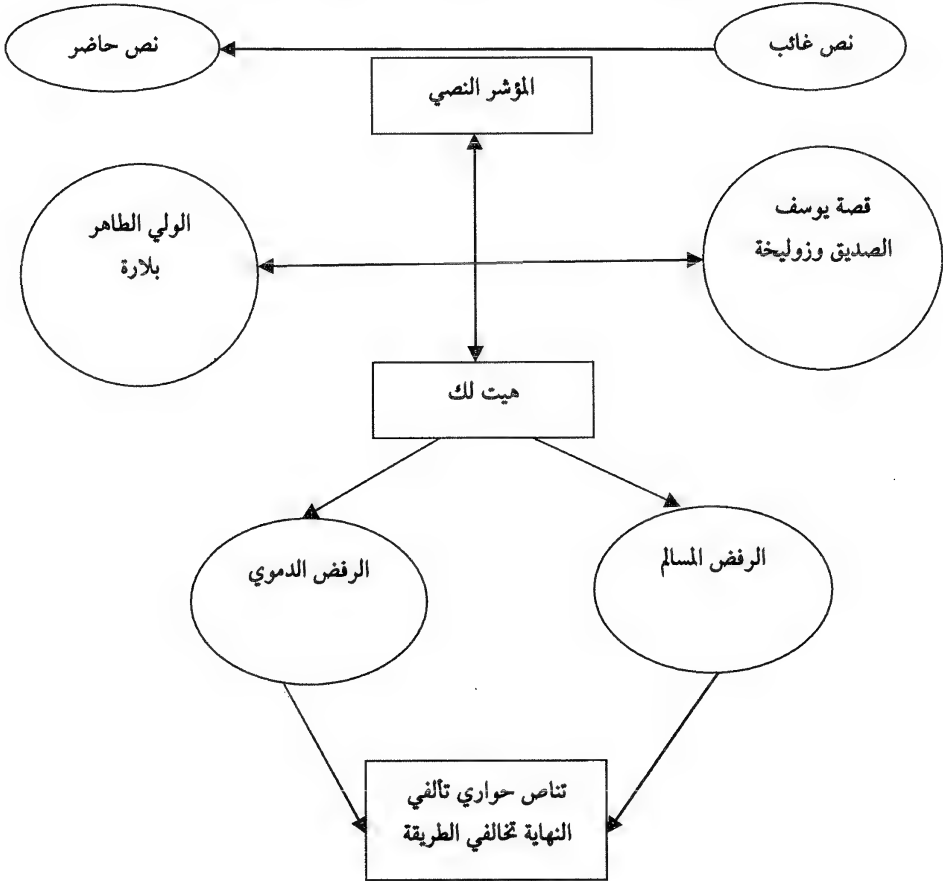
(٢) القصص، الآية: 24.

(٣) الصافات، الآية: 102.

(٤) الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، ص: 13.

(٥) الكهف، الآية: 19.

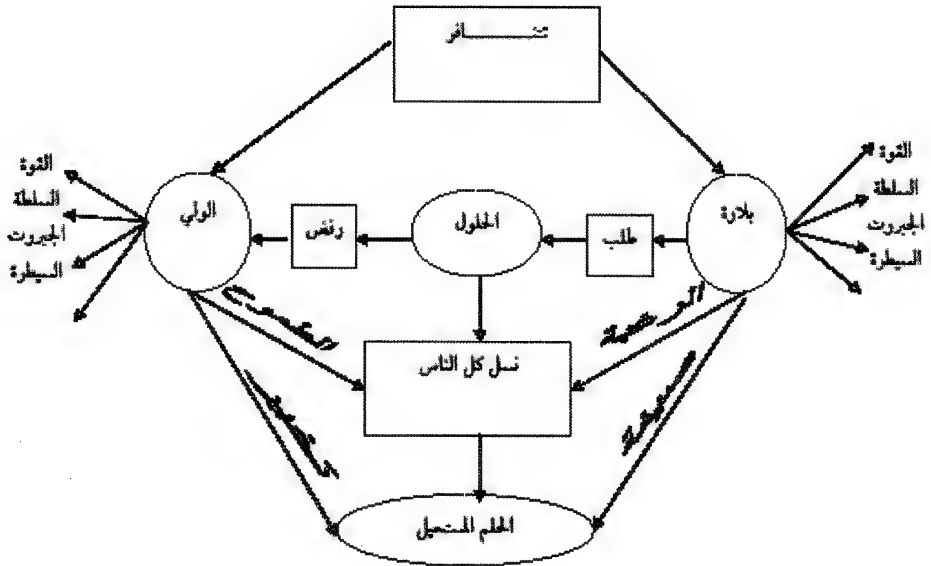
كما استدعى دعاء سيدنا نوح - عليه السلام - لسفينة: ﴿يَسْمِ اللَّهَ مَجْرَهَا
وَمُرْسَهَا﴾⁽¹⁾. طالبا منه تعالى أن تجري هذه السفينة باسمه. وترسو باسمه إلى متنهاها.
ليلصقها بالولي الطاهر عندما ركب على الأتان، راجيا من أن تجري هذه الأتان باسم الله
تعالى، وتصل إلى هدفها باسمه أيضا، إلى المقام الزكي. (؟).
كما استدعى الكاتب بطريقة حوارية احترافية قوله تعالى: "هيت لك" من قصة سيدنا
يوسف ليقابل بها لقاء الولي الطاهر وبلارة في لقاء صدامي دموي نبرزه في هذا المخطط:



(1) هود، الآية 41

أما عن طريق الاستلھام فقد استحضّر الروائي قصة آدم وحواء، ليعبر عن البداية التي تطلبها: بلارة من الولي الطاهر: بلارة رمز الغواية والفتنة الأمازيغية⁽¹⁾.

إنها فاكهة وهبها تعالى للولي الطاهر، فهل يمد يده إليها يقتطفها، أم لا؟. ربما فكر آدم هكذا. عندما بدأت الغواية. من هذا الجانب فيه تأجيل حسرته وأسفه والاعتذار إلى وقت آخر. والله تعالى يقول: ﴿وَقُلْنَا يَتَعَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾⁽²⁾، إن بلارة رمز للإغراء الدائم ورمزها بالفاكهة التي أكلها آدم عاصيا أمر ربه. وهنا نجد أنفسنا بازاء مجموعة من الثنائيات الضدية (حواء، آدم)، (الروح، الجسد)، (العاطفة، العقل). فهل يأكل الولي الفاكهة، ويعيد الحكاية من البداية أم يعصي أمر بلارة؟، إن الولي الطاهر عصاها وراق دمها، وقرر أن لا يعيد الحكاية، حكاية آدم وحواء، وبالتالي تلاشى السلام.



(1) الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، ص: 118

(2) البقرة: الآيتين: 35-36.

وهكذا، نجد أن الروائي في توظيفه للنصوص الغائبة من النص القرآني لا يحمل نظرة خلفية فقط، في بعض المواقف، وإنما يجعل النص التراثي يحيا على أرض الواقع من خلال الدلالات المختزنة.

2- قسم من التصوف:

إن التصوف - كما هو معروف -: "حركة دينية انتشرت في العالم الإسلامي عقب اتساع الفتوحات وازدياد الرخاء الاقتصادي كرد فعل مضاد للانغماس في الترف الحضاري..."⁽¹⁾. وللحضور الصوفي في هذه الرواية مكان كبير نظرا لحالة الولي الطاهر ومريديه، فهم يعيشون في حالة صوفية كردة فعل في الانغماس في الترف الحضاري الأوروبي. ولذلك جاءت الرواية على غير سابقتها ملغمة بالمفردات والأجواء الصوفية، وأبرزها ذلك الدعاء الذي تكرر قرابة الأربعين، وكأنه لازمة "يا خافي الألفاظ فنجنا مما نخاف"، إنه الالتجاء إلى التوسل للقوة الأزلية، وقد ورد على لسان الولي الطاهر دون سواه، إنه مناشدة الذات الإلهية كي تقيها من شرور الدنيا وهي التي تورث الخوف للإنسان، إنه دعاء كان تردده ألسنة جماعة من الناس باعت نفسها لله فراحت تتضرع له كي يقيها بطش المماليك"، وذلك إلى جانب هالة من الأدعية الأخرى.

واقترب الروائي بلغته من الماضي - في هذه الرواية - لغة تحك شفيتها بشجرة الأقدمين، ويقتربون بها في أدائهم من غرابة جليلة وتشم الشجن الكريم الذي يتفقد من أجسادهم وقلوبهم⁽²⁾.

ف نجد زخم من المصطلحات الصوفية، استحضرها الروائي، نذكر منها: الحلول: وهو عبارة عن اتحاد الجسد بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر⁽³⁾، وفي الاصطلاح فهو "حلول الذات الإلهية طائفة مختارة من البشر وامتزاجها بها، بحيث يصبح

(1) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العلمية للشباب الإسلامي، ط2، الرياض، 1992، ص: 346.

(2) علي جعفر العلاق، الشعر والتلقي، ص 107.

(3) سارة آل سعود، نظرية الاتصال عند الصوفية، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة السعودية، ط1، 1991، ص34.

الذاتان ذاتا واحدة...⁽¹⁾. وتجلى ذلك عندما طلبت بلارة الحلول مع الولي لإنجاب نسل: كل الناس".

كما نجد مصطلح التوحد الذي يعني: ط اتحاد الخالق والمخلوق مع احتفاظ كل منهما باستقلالية ذاته، بحيث يبقى الخالق خالقا، والمخلوق مخلوقا⁽²⁾. وهذا الاتحاد تجلى في أقول عديدة "أشهدوا أنني ما انفك شاعرا أهفو إلى الملكوت"⁽³⁾ وكذلك: "...فضاءات أخرى أروع وأغنى، ترفع الإنسان إلى مستوى آخر غير المستوى الطيني الذي خلق منه، تعيده إلى الملكوت"⁽⁴⁾. أليس هذا توحد الكائن في خالق الكائن، كما تجلى في توحد الولي مع المريدين في شخص مالك بن نويرة، واتحاد المريديات في شخص أم متمع. إنها السبيل، حيث أن الشخصية حالة تعيش حالات متعددة تخترق جميع الأزمنة والأمكنة، لا تستقر، كثيرة الحركة، دائمة السير، حاضرة في الماضي والحاضر، وربما في المستقبل؛ فالزمن صوفيا، لا ينحصر في لحظة راهنة، يرى الكل في لحظة واحدة تضم الحقيقة من أزله إلى أبدها، فالحقيقة واحدة وإن تعددت تجلياتها⁽⁵⁾. وبلارة تقول: "حبيبي، مولاي الحبيب، هذا الفيف ليس سوى حالة عشقها، فأنزلتني من السماء ولا مهرّب لك أن عمره"⁽⁶⁾. إنه توحد الكائن بخالق الكائن، توحد روحي، معنوي، كما كان فيما سبق توحد الكائن بالكائن حيث يرى الولي الطاهر جسدا نورانيا في الظلمة، أعطيت له كرامات - التي هي فنون الأفعال الناقضة للعادة⁽⁷⁾.

(1) المرجع نفسه، ص 33-34.

(2) المرجع نفسه، ص 34.

(3) الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، ص: 140.

(4) المصدر السابق، ص: 140.

(5) زكي نجيب محمود، المعقول اللامعقول في تراثنا العربي، دار الشروق، ط 3، 1981، ص 481.

(6) الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، ص: 85.

(7) المرجع نفسه، ص 21.

إن اختيار اللغة الصوفية يبرز رغبة في مجافاة الواقع ورفضه وإدانتة والتجربة الصوفية تتضمن الرفض كأساس لها، كنقطة ابتداء، فالصوفي منخلع عن عالمه الواقعي، إنه يعيش مع عالمه حالة قطعية⁽¹⁾.

ولاشك في أن اكتشاف ما فوق الواقع أو الواقع الاسمي، كان سببا في إنكار الواقع أو رفضه⁽²⁾ فالصوفية، إذن، خوض الحقيقة، ولذلك تتلقى كل منهما في مبدأ المواجهة والترفع عن الواقع.

إذن كان للتراث الصوفي حضور مميز وكثيف وصريح وخفي وكأنه عنصر من عناصر المتن الروائي، لما لهذا الموروث من خصب. إنه غامض كملامح مضيئة في الإبداع العربي الإسلامي ومجالا ملائما لمواقف الرفض والتضحية.

3- قسم مع التاريخ الإسلامي:

أن التاريخ يعيد نفسه، لكن حركية لتاريخ لا تسمح أن تعيد الحادثة كما هي. والإنسان-فهذه الحالة- له مطلبان لا ثالث لهما: إما أن يتجدد وإنما أن يتبدد، فقد بنى الروائي روايته على حادثة تاريخية-هي قتل خالد بن الوليد مالك بن نويرة، واختلاف أبي بكر الصديق و عمر بن الخطاب بشأن ذلك - ليقوم بإسقاطها على ما هو كائن فوطار لا يعيد كتابة الخطاب التاريخي و لكن انطلاقا منه يكتب الرواية.

والذي يريد البحث عن جذور الأزمة الجزائرية - بل العربية الإسلامية ككل - فما عليه إبلا العودة إلى تفاصيل هذه الواقعة لفك غموضها. إنها قصيدة التعبير عن التطابق: التطابق التاريخي والواقعي، التخيل والحقيقي⁽³⁾، ولا يعني التطابق هنا إلا عمق الصلة الرابطة بين التاريخ والواقع، ومن خلال ذلك يتحقق الامتداد؛ فالتاريخ كالواقع مضيء، يجد

(1) زكي نجيب محمود، المعقول اللامعقول في تراثنا العربي، ص 481.

(2) عبد القادر فيدوح، الرؤيا والتأويل (مدخل لقراءة القصيدة الجزائرية المعاصرة)، ديوان المطبوعات الجامعية، ط 1، 1994، ص 62.

(3) سعيد يقطين، الرواية و التراث السردى، ص 51.

امتداده في واقع حي ومعاش. فلكل حادثة تاريخية لا تعرف لها نهاية، وتأثيرها سوف يبقى مستمرا إن لم يكن اليوم فغدا. لهذا اختار الروائي حروب الردة التي ضربت بأشعتها عصرنا الحالي. وكان وطار يشير إلى أن للقتل في التاريخ الإسلامي "فتاوي" تنبع من تكيف المجتهد للحادثة فيقول: "أنكأت في الرواية على هذا البعد التاريخي لأعرج على القتل في الزمن الراهن"⁽¹⁾

إن الروائي يربط بخيط رفيع جدا الماضي والحاضر، ينطلق من شيء يفوق الشعور ليصل إلى التاريخ الإنساني، فينقل لها الظواهر السياسية الدينية الراهنة كتفاعل رهيب وغامض بين الماضي والحاضر؛ فلا يرسم الحاضر إلا بتجاعيد الماضي في الرواية كما في سابقاتها، نجد أن التاريخ بأكمله هو تاريخ هذه الحادثة التي تمثل الخطيئة. فكل الشخص في الرواية أم متمم، وكلهم مالك بن النويرة. فيتوقف الزمن، ليفسح المجال للقتل والذبح. وتظهر الأحداث التاريخية متجاوزة وأليفة ومألوفة كالأقدار يجب الخضوع لها، أفعال تجري منذ الأزل بفعل القدر.

والمعرفة الخلفية تساهم بشكل فعال في تكسير العلاقة المتوترة بين القارئ والنص، وبالتالي تجعله يشعر بإمكان الفهم والتأويل⁽²⁾. كما يظهر في توظيفه لمقاطع من أقوال زعماء التاريخ في متن الرواية لتشمل توظيف الأسماء البارزة - أيضا - حيث تجد أسماء كثيرة قد أخذت طريقها إلى النص، أعلام تعالقت مع الراهن⁽³⁾. فصعب أحيانا تمييز الأشخاص المشاركين في القصة عن غيرها من الشخصيات المستدعاة من عمق التاريخ كاسم "بلارة بنت تميم"، التي أوقفت الحرب القائمة بين الملك الناصر وابن عمه تميم بن المعز؛ بأن قبلت الزواج من الملك الناصر" لا لكونه سلطانا قوي النفوذ أذل كل مترد، وإنما لتلقي ستر الحروب

(1) عياش مجايوي، حوار مع الطاهر وطار، الخليج، عدد 498، 29/11/1999.

(2) محمد خطابي، مدخل إلى إنسجام الخطاب، ص 326.

(3) علي جعفر العلاق، الشعر والتلقي، ص 135.

وويلاته⁽¹⁾. وهكذا كانت بلارة سببا في احلال السلام بين الملكين للبناء والتعمير، وأما بلارة في الرواية فلها خصال أربع:

1- لقد كانت تتحدث مع الولي "شبه عارية، طرحت جلبابها ثم قميصها الوردي، الحريري، وقذفت بجذائها ذي الكعب العالي"⁽²⁾ وهذا رمز لتخلي المرأة عن تقاليدھا المتمثلة في اللباس المحتشم.

2- إنها تمثل الخلاعة والميوعة والرزيلة، إذ عرضت نفسها على الولي وقالت هيت لك⁽³⁾ تعبيرا عن الإباحة الجنسية كما عند الغرب.

3- إن بلارة تتحكم فيها قوى خارجية تريد أن تمرر بواسطتها مشروعها التخريبي الاستتصالي، وذلك بانحجاب نسل جديد: "إن الذين أرسلوني إليك يريدون ملء هذا الفيف بنسل خاص"⁽⁴⁾.

4- لأنها تمثل مشروع العولة المهيمنة: "إنهم صاروا كل الناس بعدي يا مولاي. ففي اللحظة الواحدة وقبل أن تعيد طرفك إليك تكون من خلال الأقمار التي تجوب الفضاء حيثما شئت".

إن الروائي أراد وراء اختيار بلارة أن يبعث رسالة سياسية نقدية وتحذيرا للأوضاع الاجتماعية التي تسود بلادنا على حساب أصالتنا⁽⁵⁾.

وأما استدعاء أم تميم أو ليلي الجميلة التي تزوجها خالد بن الوليد بعد قتل زوجها مالك بن النويرة، لإعادة حب قديم كان في الجاهلية. وهذا ما أغضب أبو قتادة الأنصاري وعمر بن الخطاب وللتعبير عن هذا بأكثر دقة ولجعل التاريخي، يحتل الواقعي استدعى المؤلف مقاطع تاريخية، وجعل الولي الطاهر يقرأها في كل مرة. وفي هذا نجده يشير إلى أن جهاد خالد بن الوليد في هذه الحادثة هو جهاد مادي ومصلحي، غير إسلامي، وكأنه طبق-

(1) الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، ص 91.

(2) المصدر نفسه، ص: 89.

(3) المصدر نفسه، ص: 84.

(4) المصدر نفسه، ص: 84.

(5) حوار مع الطاهر وطار، في جمعية الجاحظية يوم السبت 20 / 01 / 2001، الجزائر العاصمة.

في ذلك- "أثار للتي أحب ممن كره" ولعل هذا ما قصده وطار عندما قال: "إن أم تميم رمز من رموز القضية المتصارع عنها، و جانب من جوانبها"⁽¹⁾، وإذا صدق هذا التصور لخالد بن الوليد، العالم بجرمات الإسلام، أحد أعلام الصحابة، وسيف الله المسلول، فإننا نشعر باختلال الموازين؛ فاسم خالد- دائما وأبدا- ارتبط بالفتوحات الإسلامية، فكان الأحرى باستدعائه أن يكون إثارة لماضي الشهامة، و حاضر التنكر لكل قديم، فاسمه دلالة على العروبة، وإن كان أخطأ فلا أحد أعلم بالتاريخ، لأن دائما هناك حلقات مفقودة فيه.

كما يشير وطار أن الجهاد في العصر الحالي شبليه بجهاد الخوارج الذين أشاعوا الرعب، واعملوا القتل، واهدروا الحريات، وفرضوا التعذيب، ومارسوا التنكيل، وشرعوا الاغتيال باسم الإسلام والإسلام منهم براء"⁽²⁾. كذلك ما يجري في الجزائر - فعقب خروجها من ظلمات الاستعمار- كأنها خرجت من الجاهلية، وتحقق الاستقلال، فكان الصراع من يحكم السلطة، وبعد ربح من الزمن تأتي جماعات متطرفة شبيهة بالخوارج في الدعوة للإسلام، وبالتالي تطبق عليها حكم الخوارج، وما طبق على الخوارج(؟)⁽³⁾ هؤلاء الخوارج منذ ظهورهم أصبح فكرهم الدموي القاتل وتفسيرهم الخاطئ للجهاد أسلوبا دائم الظهور في التاريخ الايلامي. ولفظ الخارج هو أصدق تعبير لمن خرج بذاته على روح الدين والشريعة؛ فيتلاعب بالألفاظ و يتماكر بالعبارات ليشغل الدين في تحقيق أطماع سياسية باسم الله مثل: القتل والعنف والرعب"⁽⁴⁾. في أوساط الأمة باسم الله "لقد امتلأ مسجد الله بدم عباد الله باسم الله"⁽⁵⁾، إن امتداد التاريخي في الواقعي من خلال السياسي، جعل هذه الحركات بإيماء من الروائي ترفض الانفتاح على العالم، والفهم الصحيح للطبيعة الإنسانية. فهي تفكر كل المجتمعات لأنها تعيش ظروف عصرها. لذلك نقول عنها أن تتلمس من

(1) حوار مع الطاهر وطار، في جمعية الجاحظية يوم السبت 20/01/2001.

(2) محمد سعيد العشراوي، الإسلام السياسي، سلسلة صاد، للنشر 1996، ص: 34.

(3) المرجع السابق، ص: 134.

(4) محمد سعيد العشراوي، الإسلام السياسي، ص: 35.

(5) الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، ص 91.

التراث أسوأ ما فيه ⁽¹⁾ فتجعل من اغتيال العالم والمصلح والمفكر جهاد في سبيل الله، والله من ذلك براء.

وربما قصد وطار من خلال ترداد صوت مالك بن النويرة، وهو يطلب تطبيق رأي عمر بن الخطاب عليه عبر متن الرواية، أن يشير باشتراكية الخليفة الرشيد "عمر بن الخطاب"، الذي يطالب بالعدل، والمساواة، في حين يهاجم حكم أبي بكر الصديق الذي يرى عدم تطبيق لحكم على العظماء - حسب رأي هيكل - وحكم خالد الغاية تبرر الوسيلة، ولكن أي قيمة لهذا الإسلام أمام المنطق الهيكلي وأي أخلاق؟.

4- قسم مع التراث الشعبي:

إن التراث الذي وصل إلينا لا يزال فنيا ولا نزال نحيا بواسطته شئنا أم أئينا، وعينا ذلك أم لم نعه، يحضر بأشكال متعددة في مخيلتنا وذاكرتنا، ويتجلى بصورة مختلفة في تصرفاتنا وطرق تفكيرنا.

ولعل أقوى معتقد برز في الرواية الولوع بالعدد الفلكلوري (7) ولوعا شديدا، فقد كان له حضور قوي، وربما مرد ذلك إلى وجوده في جميع الطقوس الدينية والحكايات الخرافية ⁽²⁾ وفي الإسلام تكرر هذا العدد كثيرا فقد ذكر في القرآن الكريم 24 مرة. ولم يحدث لأي آخر أن تردد مثله، ولا حتى قاربه في الترداد. ونجد الطواف في مناسك الحج سبعة أشواط. وفي هذا تناس مع "طاف بالمقام الزكي، وهو كذلك سبع مرات" ⁽³⁾ كما نجد ترده الكبير عبر متن الرواية؛ فكانت السجدة التي استغرقت سبعة أيام، والتي لا مثيل لها. والمقام ذو سبع طباق، فكان كأرام ذات العماد؛ مقام جسد الهرم الاجتماعي وعلاقته بالسلطة في هذه المجتمعات؛ فالطابق الأول للزوار ليثبت به أن النظام الإسلامي ذو نزعة شعبية، والطابق الثاني لتعليم القرآن وعلوم أخرى. لأن النظام الإسلامي لم يعرف يوما فصل الدين عن

(1) محمد سعيد العشاي، الإسلام السياسي، ص: 134.

(2) عبد المالك مرتاض، عناصر التراث الشعبي في اللاز، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ط 1، ص 24.

(3) الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، ص 30.

الدولة. والطابق الرابع عبارة عن مرقد للطلبة، والخامس مرقد للطالبات، وهذا رمز للديمقراطية فالمرأة أخذت مكانها في النظام الإسلامي. أما الطابق السادس، فنصفه للشيوخ ينامون فيهو يعدون دروسهم، والنصف الآخر للمؤذن. دلالة على إعطاء مكانة للمعلمين تحت لواء هذا النظام، وأما الطابق الأخير هو خلوة الولي رمز السيادة.

كما نجد اليوم والسابع الذي قال عنه غالي شكري" يوم المحاورات الكبرى والصغرى في تاريخ الأمم والأفراد والمجتمعات، هو ملحمة الصراع التي لا تنتهي منذ استراح الرب بعد أن خلق العالم في ستة أيام..."⁽¹⁾، كيوم يحتفل فيه بالمولود الجديد، إذن كان للعدد سبعة حضور قوي في المخيال الشعبي العربي والإسلامي، إنه عدد فلكلوري، سحري، بحق. حتى في الألوان السبعة عند المتصوفة، والتي تشكل الحضرة الصوفية، وشكلت جزءا مهما في الرواية⁽²⁾.

وقد وصف الحضرة وطقوسها من نقر الدفوف، وحالات الإغماء والعطور والبخور وغيرها. من قبيل التناص الواقعي، وهذا يقودنا (أي حضرة الولي الطاهر) إلى الحديث عن الاعتقاد ببركة الأولياء، حيث أنه لا مجال أخصب في عالم المعتقدات، الشعبية من هيمنة فكرة أولياء الله الصالحين، وقدرة تصرفهم أحياء وأموات. فهي هو أحد المواطنين يصرخ عندما هاجم عليه الولي ومريديه: "يا أولياء الله الصالحين، يا سيدنا تيجاني يا سيدي الغماري، يا سيدي عبد الرحمان، الغيث، الغيث، مسلمون ومكتفون، يا أسيادنا، يا أولياء الله الصالحين"⁽³⁾، وياله من مفارقة عجيبة يطرحها الطاهر وطار الاستنجد بالولي الصالح ليقيه شر الولي الطاهر(?) .

(1) إدريس بوذبية، الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار، ص: 239.

(2) عبد الرحمان مزبان، الأزمة الجزائرية في رواية الولي الطاهر... مجلة التبيين 15، ص: 7.

(3) الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، ص 68

وحنين: هو حنين بن بلوعا حسري، مختلف في نسبة، يكنى أبا كعب، و كان شاعرا، مغنيا فحلا، وله صنعة فاضلة متقدمة، فيكري الجمال إلى الشامة وغيرها. كان نصرانيا، عاش في العهد الأموي في خلافة خالد بن عبد الله القسري.

5- قسم مع الآداب العربية:

قسم برز في ثلاثة ملامح، الأول؛ كان استشهاد واقتباس من أشعار القدامى كحنين⁽¹⁾ ومسكين الدرامي⁽²⁾، وعروة بن الورد الذي يقولك

لحى الله صعلوكا إذا جن ليله مصافي المشاش ألفا مجزر⁽³⁾
يعين نساء الحى ما يستعنه فيضحى طليحا كالبعير المحسر⁽⁴⁾

وقد يكون الروائي استحضّر البيتين تعبيرا عن الحيادية التي مست المجتمع. فالناس همهم فقط الأكل والنوم. لذلك فعليهم اللعنة قبله عروة بن الورد. والروائي هنا جعل عيسى لحليح هو الذي يقول البيتين وكأنه صعلوك ثائر، متمرد مثل عرة، ولذلك نجد بينهما عناصر مشتركة. وما اختلاف إلا في خدمة مقصدية الأديب الجديدة. وهذا الاستشهاد وكسابقه، إنما من باب تناص التداخل. أما الملمح الثاني، تجلّى في التناص مع الآداب العربية المعاصرة. ونتناول في عنصرين:

أ- مع الأديب الجزائري:

وهذا بحكم المنطلق واحد وهو الأزمنة الجزائرية، ومنحه العشرية السوداء "تيميمون" رواية لرشيد بوجدرّة، والتي ظهرت في فترة ساخنة (1994)، ولدت في رحم الجحيم الإرهابي الذي خيم آنذاك⁽⁵⁾. إنها رواية الجولة الطويلة عبر الصحراء الشاسعة التي لا نهاية لها تناص الطاهر وطار كثيرا معها؛ فالبطل يفتح المذيع ويلتقط الأخبار - فيها - أما الولي

(1) ابن منظور "ختار الأغاني" دار الكتاب المصري، الجزء 3، ط1، 1، 1964، ص 36.

(2) المرجع نفسه، ص 86، ومسكين هو: ربيعة بن عامر بن أنيف بن شريح بن دارم بن مالك بن تميم، قام بهجاء الفرزدق، عاش في خلافة بن أمية، كان يؤثره يزيد بن معاوية.

(3) لحى: قبح ولعن، المشاش: رموس العظام اللينة، مجزر: موضع الجزر.

(4) الطليح هو المعى ومثله المحسر.

(5) مخلوف عامر، اثر الإرهاب في الكتابة الروائية، عالم الفكر، مجلد 28، العدد 1، مطابع السياسة الكويت، سبتمبر 1999، ص 305.

يفتح الصندوق ويقرأ أخبار كذلك. و الأستاذ في رواية تميمون يقتل كما كاد "نجيب محفوظ" في الرواية الثانية. كما نجد بروزا لتقنية الخبر - فيهما - فالروائي على لسان الولي الطاهر يقول: "طائرات أمريكية تقصف معملا للأدوية بالسودان"، "الولايات المتحدة الأمريكية واثقة من أن العمل من إنشاء بلادنا والمعمل يقال أنه للأسلحة الكيماوية، تشترك في العراق" والإمام الخميني يعلن أن أمريكا هي الشيطان الأكبر⁽¹⁾، إنها التقنية ذاتها التي برزت في "تميمون" الإرهابيون الإسلاميون يضرمون النار في مدرسة ابتدائية بمدينة بليدة...⁽²⁾ وغيرها. كما تناصت الرواية مع رواية "سيدة المقام" لواسيني لعرج، ولكن في هذه الرواية لسنا أمام بطل تأتية الأخبار مسموعة أو مكتوبة تقتحم عليه خلوته بل إن الروائي ينقلنا من الأخبار إلى الأفعال يقوم بها حراس النوايا، في تصوير العنف؛ فالوالي تارة، قارئاً، وسامعاً للخبر وتارة أخرى مشاركاً فيه. كذلك نجد رواية فتاوى زمن الموت التي ترصد التحولات الأخيرة التي طرأت على المجتمع الجزائري خلال العشرية الأخيرة من فساد وسقوط أخلاقي أملاً في مجتمع جديد ونسل جديد. إذن هي الأوضاع الواحدة، في كل روايات هذه الفترة، فنجد فيها قمة الواقعة بطريقة تجريدية في العرض، لأن الوضع يتطلب ذلك، والروائيون الجزائريون لا يعمدون إلى توظيف الظاهرة الإرهابية على سبيل الموضة أو لمجرد مواكبة الأحداث بل الأصح أن الإرهاب يحضر في الأذهان شئنا أم أبينا، ولا بد من ترك بصماته في الأعمال الروائية⁽³⁾.

ب- مع الآداب العربية:

وإذا قلنا بالآداب العربي وتناصه الطاهر وطار، فإننا سنقول الرواية المصرية، هذه الرواية التي حاولت تجسيد "رؤيا التطرف الديني" وحاولت بوسائط مختلفة لكن موازية لوسائط

(1) الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، ص 68.

(2) مخلوف عامر، أثر الإرهاب في الكتابة الروائية، ص 308..

(3) مخلوف عامر، أثر الإرهاب في الكتابة الروائية، ص 308..

الطاهر وار في ملاحقه تصاعد متواليات العنف العاري لجماعات الارهاب الديني⁽¹⁾، كما فعل "لنين الرملي" بسيناريو فيلم "الإرهابي" وغيره من الأعمال الحريضة تتبع سرعة تغيير عالمها في تعدد جوانبه، دون أن ننسى الروايات التي احتجاجا على القمع الذي صب على المثقف مثل: "الكرنك" لنجيب محفوظ، و"العسكري الأسود" ليوسف إدريس و"حكاية تو" لفتحي غائم، و"شرف" لصنع الله إبراهيم و"الزيني بركات" لجمال الغيطاني، وغيرها، ربما إشكالية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" تصب في إشكاليات كل هذه الروايات سالفه الذكر، كحالة لويس عوض" في روايته "العنقاء"، والتي تتناص كثيرا مع رواية "الولي الطاهر" فرواية العنقاء تعالج العنف من حيث هو الإرهاب، وذلك اختلاف منظور المعالجة بالطبع، ومغايرة هوية الفعل الإرهابي في انتسابه إلى اتجاه مضاد تماما من المنظور الاعتقادي⁽²⁾؛ فرواية الولي الطاهر تبنى على عنف يقوم على التأويل الديني والفتوى لمجرد الشك، أما عنف العنقاء فهو إرهابي، اعتقادي، ماركسي، يفضي تطرقه إلى العنف العاري نفسه مع الاختلاف في الدرجة⁽³⁾.

والروايتان تميلان إلى تغيير أسس هذه السياسة يمكن أن يتم دون إراقة الدماء - ولكن إراقة الدماء فتحت أبوابها عندما أراق الولي دم بلارة، رغم تحذيرها المستمر له، وذلك لاستحالة التفاهم بين بلارة والولي - حسب مفهوم الولي - كاستحالة التفاهم بين المصريين والانجليز، والمصريين والمصريين، في رواية "العنقاء" وكان كل شيء يشير إلى كل المتمردين على الأوضاع السياسية - التي عرضت في الروايتين - إلى أن الاحتكام إلى السلاح هو المخرج الوحيد من المأزق الوطني والاجتماعي، حسب الحلول المطروحة في الساحة.

(1) جابر عصفور، الكتابة عن الإرهاب، جريدة الحياة، 1996، ص 16.

(2) جابر عصفور، الكتابة عن الإرهاب، جريدة الحياة، 1996، ص 16.

(3) المرجع نفسه، ص 16.

3- التناص الخارجي:

من أجل كشف العلاقات التناصية لرواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، نضعه في ثالث السياقات أي "التناص المفتوح الخارجي"، وهو سياق يفتح النص على تاريخ الثقافة و على النصوص السيارة في فلكها، انه الانفتاح على النصوص و الشفرات النصية كافة، و السابجة في هذا العالم⁽¹⁾.

1- قسم مع الآداب العالمية:

ولو ابتعدنا عن الأزمة الجزائرية أو بشكل عام الأزمة الإسلامية في الرواية الأخيرة للطاهر وطار، بالتأكيد سنطرح الأسئلة التالية: ما الذي يحدث في هذه الرواية؟، ما الذي أصاب الولي الطاهر في عودته إلى مقامه الزكي؟، ما هذه الدوخة التي شدت بتلابيبه وجعلته لا يعرف اليمين من الشمال، ولا الأمام من الخلف كسباق العهد؟، ما الذي جعل الأمور تختلط بين يديه وجعل الأشياء تتشابه بين ناظره دون أن يستطيع التمييز أو حتى القبض عليها⁽²⁾.

كأنه الحلم، وكأنها أطياف وسربات تلك الأحداث، التي تحدث والتي لا تحدث، من القاتل ومن المقتول؟ أين المبتدأ وأين المنتهي؟ أين العقل وأين الجنون من كل هذا الذي تحويه صفحات الرواية؟ أين المدخل وأين المخرج؟ أين النور؟ وأين الظلمة؟ وتبدأ الرواية بعبارة: "مجلول الله وحمده، ها نحن من جديد نرجع إلى أرضنا"⁽³⁾، إذن، عاد الولي الطاهر إلى أرضه، إلى مقامه بعد الطريق الشاقة والمشوار الععب، لكن وصوله إلى هذه النقطة لم يدم طويلا، لأنه حدث المتوقع، عندما حمل الولي الفأس وراح هاويا عليه يحطمه، هنا يكمن معيار قوة الصورة السريالية وأصالتها، وتقطعها في مفاجأة انبثاقها، وكأنها المفارقة التي تؤكد أن العرب اليوم - عرب النظام الثقافي السائد - يحاولون أن يحيموا بثقافة

(1) حسن محمد حماد، تداخل النصوص في الرواية العربية، ص 128.

(2) ادريس انفراس، قراءة في الرواية الولي الطاهر، جريدة الاتحاد الاشتراكية، المغرب، الجمعة 19/05/2000. الصفحة الأخيرة.

(3) الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، ص.

ملتت، ويحاولون أن يميّتوا الثقافة التي هي وحدها الحية⁽¹⁾، وهذا ما أكدته الفلسفة الهندية لاغ يمكن أن تستضيء بنور الواحدة مرتين.

إن الفلسفة السريانية في الحياة، هدفها تغيير الحياة لخلف إنسان جديد، إنسان يجد الحرية المطلقة عن طريق الخيال⁽²⁾، وهذا ما برز في طلب بلارة بإنجاب نسل كل الناس من الولي الطاهر.

إنها رواية كلها متاهات، وسرايب ولا قرار لها، تجاوبف سحيفة تلف كل الداخلين بإرادتهم أو بغيرها، ورغم أن فضاءلت حدثت وجثا مزقت، ومنازل أحرقت بطونا بقرت بالفؤوس والمعاول يعودون من دوختهم و سراديبهم، هكذا جاءت الرواية ثائرة على القواعد والتقنيات، متفتحة على الهمش وأدخلت الحلم والرؤى والهلوسات، انه الانغماس في الأعمال السريانية الغربية - مدرسة ما وراء الواقع، آخر مراحل التطور الرومنطقي - وبريتون يقول: "ثمة نقطة إذ بلغها الفكر بطل التناص عندها بين الحياة والموت الحقيقي والخيال في الحاضر والماضي والمستقبل"⁽³⁾، والوصول إلى هذه النقطة حضور معرفي ووجودي، وتجاوز للنفي، إنها رواية الخروج من المنفى وفيها يتضح كيف أن حياة الانسان مغامرة سفر بين حياته والزائفة الحاضرة وحياته الحقيقية الغائبة، ف(ايجاد المقام الزكي هي النقطة العليا التي يتلاشى فيها التناقض، وهذا لا يكون إلا بعد نسل يكون البداية الثانية بعد آدم وحواء. ولكن الولي الطاهر رفض وأضاع الحلم في انتصار للذات، إنه البحث الماورائي، الذي برز في قصة ارنست همنغواي "ثلوج كليمنجارو" والتي كان موضوعها الإنسان والبحث الماورائي، حيث جعل هيمينغوا القارئ يدرك مع هاري -بطل الرواية- أن الخلاص الحقيقي هو موضع آخر، و يتشكل في صورة العودة إلى الذات.

الولي أيضا يعي أن الواقع هو التفسير الصحيح لحياته الوجدانية، ولوضعيته، لا يهم بقايا الإنسان هنا يا مولاي الطاهر، سوى أن يخاف من الماضي، يخاف من المستقبل،

(1) أدونيس، الصوفية والسريالية، ص 230.

(2) إحسان عباس، فن الشعر، دار صادر، بيروت، بيروت، دار الشروق، عمان، ط 1، 1996. ص 86

(3) إحسان عباس، فن الشعر: 186.

يخاف على كل شيء ما عدا على نفسه⁽¹⁾، تلکم هي الدوامة التي وقع تحت سطوتها الإنسان المعاصر الجزائري، فأصبح في عالم سوداوي الإنسان فيها ضحية صودرت إنسانية بالعنف والخوف، فالحرب تثير الفزع لأنها تخرج الإنسان عن المألوف إنها شيء جديد عليها هي الحرب ولا قانون بعدها يحکم، الإنسان فيها أصبح وسيلة لتحقيق غاية ولم يعد غاية يقصد لذاتها وغدا للإنسانية مفهوم مشوه قابل للشك والريب، إنه التمرد والعبث واللامعقول نظرا للتناقضات العجيبة في الرواية؛ القاتل يزداد إجراما وقتلا وهربا من حسرته وندمه والمقتول يتشبث بالأرض عليها تحميه وتضمه إليها وأحيانا يتوحد بالموت ويصبحان شيئا واحدا⁽²⁾ خواء مطلق وحنين موجع وعطش مميت، الماء القدامى ولا الحقنة، إني جمرة التهب كلما ازداد هبوب الريح⁽³⁾ وقمة اللامعقول تكمن في تصوير الروائي للحيوانات بأنهم أشد رحمة من الإنسان: كلب راح يشتم الجثث أرسل عواء موجع عندما تعرف على واحدة منها راح يحير الرأس من الشعر حتى أوصله إلى الجثة⁽⁴⁾ إنها قسوة الحرب التي قتلت في الإنسان الإنسان فقد كان القتل الجماعي يجري بصورة لا مثيل لها، إن لها دائما ما يبررها، ومادام المرء في الحرب فلا عمل له سوى الحرب⁽⁵⁾ وبهذا، فوطار قد عرف كيف يوازي بين الكتابة الواقعية، وبين التجريد والسريالية في بلورة اللاتاريخي في التاريخ، إن الرواية ترفض الواقع وتميل من الرموز إلى إعادة تشكيل الواقع واستنفاد بائتلاف أسلوب يتركى على خصوصية إبداعية مشعة ونافذة.

(1) الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، ص 89.

(2) المصدر نفسه، ص 98.

(3) المصدر نفسه، ص 89.

(4) المصدر نفسه، ص 111.

(5) المصدر نفسه، ص 114.

2- قسم مع الأساطير:

رغم عدم إيمان الإنسان المعاصر بها إلا أنه يلجأ إليها ويستفيد منها⁽¹⁾، هي بالنسبة إليه سراب لكن فيها بريق ذهب؛ هي أقدم رؤيا للمستقبل⁽²⁾. إنها تهتم ببث المقدس في عالم دنيوي آخر.

ولأنه لا وجود- تقريباً - لنص لا يلجأ إلى الأسطورة في العصر الحديث، لم لهذه الأخيرة من جماليات فهي تسعى جاهدة لاستعارة كمال البدايات، بما تقدمه من تأويل جديد للوجود.

يمكن اعتبار، أن الطاهر وطار استحضر بعض الأساطير، والتي لم يبرع نصه في توظيفها فقد ورد في النص ما يرمي إلى تضمين أربع أساطير:

الأولى: أسطورة البعث من جديد، فقد جاء في الرواية بعدما أصاب الوباء الناس أنت تتوق إلى نسل جديد محصن ضد الوباء ينشأ على الإسلام صاف⁽³⁾؛ بالابتعاد عن الوباء والاتجاه صوب الزكي تحضرنا فكرة هروب الأنبياء بأقوامهم طلباً للنجاة من أعدائهم الكفار.

لكن مع الولي الطاهر يختلف الأمر؛ إذ سيحتم الواقع على المقام الزكي وسيهجم عليه، وأثناء غياب الولي الطاهر الغياب الذي لم يدري أمده ولم يعه حتى أنه لم يعرف أين كان غيابه ليعود إلى المقام ويواصل عملية الحفر ويكتشف بعد ذلك أن المقام تلوث لأن الوباء وصله، فامتلاً بالتقتيل والتذبيح وبدا الولي بالعمل على انتشال الجثث والجماجم والبقايا- بقايا الزمن المعطوب- زمن العرس الذي طال فإلام سيتهي العرس الهجين في هذا المجتمع الهجين⁽⁴⁾.

(1) مجاهد عبد المنعم مجاهد، جماليات الشعر العربي المعاصر، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط 1 1997، ص 88.

(2) المرجع نفسه، ص 89-91.

(3) الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، ص 89.

(4) المصدر نفسه، ص 139.

الثانية: أسطورة عودة أوديسيوس: لقد استحضر الروائي هذه الأسطورة وبرز ذلك من خلال فعل العودة الذي يمارسه الولي الطاهر طيلة أحداث الرواية حتى أصبح هاجسه الوحيد "أنهم يا معشر المريدين والمريدات أنا شيخكم - الولي الطاهر- صاحب المقام الزكي أعلمكم بعودتي"⁽¹⁾، إذن هي عودة للوطن، عودة للذات؛ لقد لاق أوديسيوس الأهوال والمصائب، ولكن بدل العيش في سلام كما كان عند أوديسيوس نجده قام بتحطيم المقام وفتح بذلك بوابة الدماء و بقي الرابط بينهما خفي، لأن الأسطورة- أصلا - عبارة شعرية لمعنى خفي، فهي لا تعطي لنا المعنى الحقيقي⁽²⁾ فكيف نطلب من الرواية أن تعطينا إياه.

الثالثة: أسطورة عودة المسيح: هته الأسطورة التي كان لها حضور مميز في هذه الرواية، إذ نجد أن الأدباء المحدثون يتكثرون كثيرا على الإنجيل حتى غدا المسيح عند بعضهم رمزا نمطيا جاهزا، إنه رمز الفداء والتضحية من أجل الخصب و النماء؛ فالولي عاد إلى مقامه بعد غيبة لا يدري أين كانت؟ وكم دامت؟ فهو يقول: لقد وهبتي لنصرة دينك⁽³⁾، كما نلمح ذلك عندما تخيل نفيه صاحب الدابة المصلوب فقد قتل كثيرا ومات كثير اقتل في كل الحروب كما صلب قبلها على أنه أبو زيد صاحب الحمار⁽⁴⁾، إنه يتصور نفيه منقذ البشرية من الوباء ألج القصر، أخلص الجميع، واستعيد المقام؟ وكأنه المهدي المنتظر الذي سيخلص البشرية ويستعيد مجد الخلافة الإسلامية، فهذا هو على لسان بطلة الرواية تصرخ ط تعالى يا ولي الله الطاهر لإنقاذي⁽⁵⁾.

الرابعة: عن تيه الولي الطاهر في الفيف العميق يميلنا إلى تيه بني إسرائيل، حيث نجده صارخا بلارة، آه "إنني ألهث بجثا عنك في الفيف منذ رميتني من داخل المقام الزكي إلى تيه بني إسرائيل"⁽⁶⁾؛ فقد خرج الولي الطاهر تائها أسير هواجس البحث عن المقام، والروائي

(1) المصدر نفسه، ص 36.

(2) مجاهد عبد المنعم مجاهد، جماليات الشعر العربي المعاصر، ص: 91.

(3) الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، ص 63.

(4) المصدر نفسه، ص 146.

(5) المصدر نفسه، ص 144.

(6) المصدر نفسه، ص 118.

كغيره من المعاصرين عبر عن ذلك بالتيه الإسرائيلي، عصوا أمر اله ورسوله موسى - عليه السلام - وخالفوه واستولوا على الأرض المقدسة، فعوقبوا بالتيه والتمادي في اليسر حائرين لا يريدون كيف يتوجهون فيه إلى مقصد يسرون دون أن يهتدوا للخروج من هذا التيه، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾⁽¹⁾، والولي شخصية أسطورية، دائمة السير والبحث متسائلة أسئلة كبرى، بركاتها وخوارقها تحاول تغيير ما يجري، فكلهما يشتركان في البحث والسؤال والسير غير المستقر في هذا العالم، ومن ثمة، فهو أقرب إلى عدم منه إلى الوجود.

إن هذا البحث المستمر غير مستقر يحيلنا إلى طقوس "أسطورة الزيف" هذا الملك الأسطوري الذي كان يحكم "كورنث"، وعوقب من طرف الآلهة التي حكمت عليه بحمل صخرة عظيمة إلى قمة الجبل، فيعيد الكرة مرات ومرات، تستمر المحاولة الأبدية التي تنتهي دوما بالفشل⁽²⁾، إنها اللاجدوى، التي تحذيرها له بعواقب هذا العصيان "تجوب الفيف هذا مئات السنين، فلا تعثر عن طريقك ويوم تعثر عنه تبدأ من البداية، وفي كل عودة لك تعاودك بلوى البحث عني من جديد دون أن تدري عم تبحث"⁽³⁾.

حتى ان الماء قدامه فلا يلحقه كما هو الحال سيزيف، الخلاص أمامه ولا يدركه، إنه البحث الذي لا طائل منه، و الذي دفعه إليه بلارة، سعيا وراء لا شيء.

هكذا تحضر الأسطورة من خلال ثلاثة عناصر:

- محاولة إيجاد تفسير للعالم والعلاقات والأشياء وإيجاد معنى لما يحدث.
- واختراق الزمن والمألوف، من خلال تداخل الأزمنة وتداخل الطبيعي مع فوق طبيعي⁽⁴⁾.
- محاولة استيعاب الواقع المؤسطر بصراعه المتنامي من أجل البقاء.

(1) سورة المائدة، الآية: 26.

(2) إدريس بوديبة، البنية والرواية في رواية الطاهر وطار، ص: 246.

(3) الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، ص 119-120.

(4) حوار خاص مع الطاهر وطار يوم السبت 20/01/2001، بمقر الجاحظية، الجزائر العاصمة.

ونخلص في آخر الأمر أن إحضار النص الغائب - خاصة الأسطورة - ذا قيمة للنص الحاضر، قيمة تفوق الحضور وأن اعتمدت عليه حيث يصير الغياب جزءاً جوهرياً في جسم النص وفي تكوين دلالاته وتأثيراته، من حيث يصبح النص إشارة حرة غير مقيدة فتنشأ الاجتهادات القرائية على وفق الاستجابات الثقافية و المعرفية و الذوقية.

3- تقنيات التناص في الرواية وجماليات تلقيها:

أ- تناص التداخل:

يكاد الكثيرون طاغيا في النص نظرا للتناصات التي وردت في النص بطريقة اجترارية وفيه خدمت مقصديه الأديب "باسم الله مجراها و مرساهاً، وسورة الأعلى التي كان لحضور مميز في هذا النص مع الفاتحة، وغيرها من الآيات التي استدعت لخدمة مقاصد جديدة دون أن يحدث في النص تحويل ولا امتصاص ولا تحوير، إنما جاءت من قبيل الاستشهاد والاقتراس مع إظهار للمقارنة بين النصين لإحداث المفارقة.

وكما برزت هذه التقنية مع التناص في استحضار نصوص تاريخية بحرفيتها، كالقول الذي استحضره الروائي بلسان (زيد بن عمر): أما الرجال فما الرجال! وأما الرجال فما الرجال: اللهم اعتذر إليك من فرار أصحابي، وإبرأ إليك مما جاء به مسيلمة الكذاب ومحكم بن طفيل⁽¹⁾؛ فهنا الروائي استدعى نص قد يكون في الكتب التاريخية التي تناولت حروب الرد بالتفصيل، والتي تطرقت لخلاف أبو قتادة الأنصاري مع خالد، كما نجد قول جماعة بن مراة في دفاعه عن أم متمم زوج مالك بن النويرة، من باب تقوية المعنى.

ونلاحظ في هذه الرواية توظيف العديد من الآيات الشعرية فجعل الروائي بلارة

تقول⁽²⁾:

ليس الفتى كل الفتى عندنا
إلا أن الذي ينهي عن الفحش

(1) الطاهر وطار، الولي الطاهر...، ص 43.

(2) المرجع نفسه، ص 53.

يأتي للإسلام عن بابه ويتبع الحق بلا غش

عندما استفاق الولي الطاهر، وامتنطى عضبائه، وقرر السير تجاه المقام، لجأ الروائي إلى هذا المشهد ربما ليجعل من بلارة بنت تميم ناصحا للولي الطاهر ومن حذا حذوه، واستحضر الروائي كذلك أبياتا لحنين الحيري⁽¹⁾.

أنا حنين ومنزلي النجف	وما ندمي إلا الفتى القصف
أقرع بالكأس ثغر باطية	مترعة تارة ⁽²⁾ اغترف
من قهوة باكر التجار بها	بيت يهود قررها الخزف
والعيش غص ومنزلي خصب	لم تغذني شقوة ولا عنف

وقد جعل وطار - هنا - المغنى، قصير اللدن، يهتف بالأغنية والناس يتماوجون تهليلا وتكبرا، وعندما يركز على المقطع الأخير من الموالم الذي فيه ينهي أهداف محددة كان هدفها في لحظة المقطع الأخير للموالم الأديب العالمي - نجيب محفوظ - بتهمة التساؤل الحاد، كما ارتكب في حق كثير من المواطنين العزل، ثم يعود ويكمل العرس الهجين؛ مآثم هناك، عرس هنا، لا أحد يكثرث، السكير في العرس الهجين يحمل كأس الخمر بيد وفتاته باليد الأخرى، و يهتف الله أكبر "وباركها الله"، هل كل هذا من الدين؟ يا لا من متناقضات في المجتمع الجزائري خاصة، والعربي الإسلامي عامة! وبألها من مفارقات عجيبة!

ب- تناص التآلف:

تجلى التآلف في استدعاء (مالك بن النويمة) لإسقاطه على "عيسى لحيلج"، حيث أن التشابه بينهما برز في الشاعرية، فكلاهما شاعر، وكلاهما صاحب فكر وقلم، وهذا كنقطة أولى،

(1) ابن منظور، مختار الأغاني، ج 3، ط 1، 1964، ص: 36.

(2) تارة: جاءت هذه الكلمة في الأبيات التي وردت في الرواية مغايرة فنجدها نارية (نارية) وليست تارة.

أما النقطة الثانية تكمن في الثورة ضد السلطة وضد الحكم، إنه التمرد الذي لا يحدث إلا من أصحاب الذهن الثاقب و تطلع إلى مستقبل أفضل.

أما النقطة الثالثة، ففي اشتراكهما في صفة الثقافة والوعي والتساؤل، مما سبب للأول القتل الحقيقي، وللثاني القتل الرمزي، قد يصبح حقيقيا في يوم ما.

كما نجد تألفاً يصور حال الولي الطاهر باحثا عن الخلاص، ومحاولا الخروج منة الفيف العميق، وحال الملك سيزيف، فكلاهما يسعيان إلى اللاجدوى، إذن، هي محاولة التوفيق بين النصين كي يكون الفهم أكبر للنص الجديد من خلال النص القديم.

ولعل من أجل التانصات التألفية في الرواية هي تلك اللحظة التي انصبت فيها بلارة بنت تميم أمام الولي الطاهر، شبه عارية بغية إغوائه واغراءه، وجعلها تقول له هيت لك⁽¹⁾، اليس هذا استحضار للآية القرآنية ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ⁽²⁾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ⁽³⁾﴾، فكان تداخل بين النصين، تداخل يصعب فيه إيجاد الاختلاف بينهما، إذن، فقد كان توظيف اجتراري في، ويالها من عبقرية للكاتب إذن يجمع بين الصورتين و يجعل الدليل كلمة: هيت لك.

والجدير بالذكر، أن الكاتب لا يتعامل مع التاريخ معاملة الراوي الذي يقتصر على نقل الأحداث واجترارها- وإن نجد ذلك الاجترار الحرفي لبعض النصوص التاريخية عبر متن الرواية- بل ينظر إليها كمادة خام لا يخرجها إلى عالم الوجود إلا بعد أن أضاف إليها أشياء من عنده، منبهة من واقع مجتمعه، كما أنه لا ينظر إلى التاريخ نظرة جامدة، بل ينظر إليه نظرة تطويرية متغيرة باستمرار، ولعل ذلك راجع إلى إيمانه بمقولة: التاريخ يعيد نفسه، ولذلك نجد الشاعر يجمع بين حروب الردة وما يحدث الآن بالجزائر، واستطاع أن يجمع أهم الشخصيات التاريخية البارزة في حروب الردة والمتباعدة من حيث الزمانية والمكانية وبين

(1) سورة يوسف: الآية 23.

(2) الصادق إبراهيم عرجون، خالد بن الوليد، دار السعودية للنشر والتوزيع، ط 1، 1403هـ - 1986م، ص: 392.

- رهقا، تعني ظلما.

شخصيات العصر الحالي الذين يعيشون الأزمة، هي إذن محاولة الإسقاط لما فات على ما حضر تنبأ لما هو آت.

ج- يتناص النص الروائي مع النص التاريخي بوصفه نصاً ضدياً، وبإمكاننا أن نطلق على هذه العلاقة التناصية التي عقدها الروائي بين النصين بـ"تناص المفارقة"، ذلك التناص الذي يشعرنا دائماً بهذا البعد الضدي المفارق بازغاً لنا، ونحن ننظر إلى الرواية و تصويرها لزائف لشخصية "خالد بن الوليد" سيف الله المسلول- ماذا يقصد وطار من هذا(؟)، يقصد إدخال الريب في نفوس قرائنه، بأن يجعل خالد لا يبعد عليه أن يقتل مالك بن النويرة ليتزوج بامرأته دون أن يكون مالك مستحقاً للقتل(؟)، أيقصد جعله من الظالمين والخارجين عن القانون، فينطبق عليه قول عمر- رضي الله عنه-: "إن في سيف خالد رهقاً، وقد رأينا كيف يجعل وطار من المريدين في المقام الزكي يشتبكون بمالك بن النويرة على حساب خالد- سيف الله المسلول- (؟).

وقد برز تناص المفارقة في استعمال كلمة الكرامات للولي الطاهر؛ فالكرامات هي قدرة يهبها الله لمن يشاء من عباده الصالحين الطاهرين، إنها عبارة عن أفعال ناقضة للعادة، وعندما نربط كلمة "كرامات بالولي، نجدان الأولياء ببركة حلولهم تمطر السماء، وينقاء حياتهم ينبت الزرع من الأرض و بدعائهم ينتصر المسلمون على الكفار⁽¹⁾، ولكن الولي الطاهر في الرواية ماذا وجد(؟) صحراء لا نهاية لها تمتد بامتداد البصر، لا مدخل ولا مخرج منها، شمس ذاهلة، منها لا مناص، إن قلبه غير طاهر يده ملطختان بالدماء، فهو لا يمتلك كرامات الأولياء، إذن هو ليس بولي وليس بطاهر، فهنا برز الاستعمال الضدي للنص الأول، كما تجلّى في استحضار صورة سيدنا موسى، وهو عار في الصحراء، السائر، التائه، سيدنا عليه الصلاة والسلام لنقاء سيرته، كتب له الخلاص من ذلك الشقاء، والولي في لحظات تقمص شخصية سيدنا الطاهر "موسى" فما وجد(؟)، إنها الصحراء، إنها المتاهة الأبدية.

(1) زكي نجيب محمود، المعقول و اللامعقول في تراثنا الفكري، ص: 316.

وكلمة "الولي الطاهر" بمجرد سماعها يحدث لدينا وعي بأن هذا الولي الطاهر، إنسان مقدس، صالح، سام في الروح، هكذا هي صورته في المخيلة الشعبية، لكن الروائي والمعتاد يحطم كل مقدس، يحطم هذه التقاليد البالية، فنجد أنه قام بتعطيمه ثلاث مرات؛ الأولى، عندما منحه صفة الولاية مع صفة الطهارة، أما الثانية، عندما فأسا وجعله يكسر مقامه الذي بحث عنه طويلا، والذي يشير إليه وطار في بعض المواقف - بالتفكير الإسلامي الهش -، وأما الثالثة، عندما وضعه وجها لوجه مع غانية، شبه عارية، فهل يعقل أن يرتكب هذا الولي الطاهر وهذه الحماقات في الواقع إن كان طاهر حقا.

هذا يحيلنا على التناقض ذاته الذي برز في استدعاء شخصية بلارة، فبلارة التاريخية إنسانة متفهمة ورمز للتضحية، أما بلارة عند الطاهر وطار امرأة خلعة وغانية، إنها رمز الإغراء والإغواء.

وفي صفحة من الصفحات الروائية جاء قول الولي: وما غنمتم من شيء فله خمسة استحضر لقوله تعالى بطريقة اجترارية: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾⁽¹⁾، شرع الله القتال ضد الكفار في هذه الآية، أما الولي الطاهر قتاله ضد من(؟)، أناس مسلمين عزل في بيوتهم، إخوان في الدين، والله تعالى يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَّتْهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَقَبَّلُونَهَا وَلَمْ يَلْقَ إِلَيْكُمْ أَلْسَنُ الْمُؤْمِنِينَ﴾⁽²⁾، ألس هذا التناص يشعرنا ببعده ضدي مناقض، أنه بارز لنا بمجرد النظر في الرواية، وكيفية تصويرها للواقع، تناص جرد النص السابق من دلالاته وأعطاه دلالات جديدة تلائم رؤية الكاتب، أو تلائم تصور من يتحدث عنه المؤلف.

وهكذا نرى كيف تتحول دلالات النصوص التراثية من النقيض إلى النقيض، إنه التناص الآخذ بجزء من الحقائق دون الآخر، إنه الهدم كما يقول وطار: "إننا بمثل هذه

(1) سورة الأنفال: الآية 41.

(2) سورة النساء، الآية: 94.

الذهنيات لا نعلي بنيانا، شرع فيه قبل تواجدنا، ولكن نلجأ إلى هدمه وتقويضه، ثم نشرع في عملية بناء جديدة⁽¹⁾.

وخلاصة الأمر، أن النص لا بد أن يمد القارئ بعلامات تجعله يحدد نوعية النص الذي يتعامل معه، والقص الذي يقوم على التناقض تشع فيه علامات التحالف في كل اتجاه، وهي تشير على الدوام إلى انحراف ما، غما على مستوى منطق الفكر، أو على المستوى اللغوي، وهذا الانحراف والتخالف هو الذي يحدث المفاجأة لدى القارئ.

د- تناص الانحراف:

وهو كما ذكر سابقا- الكتابة بنمط نص سابق-، وفي الرواية يبرز أكثر ما يبرز في التعبيرات الصوفية التي تكاد تغطي على الرواية إلى جانب الأساليب السريالية، نظرا لما في هذه الرواية من جديد من جهة، ولأن لا وجود لأساليب أخرى تصور حالة اللاعقل التي بلى بها الولي من جهة، والتي آل إليها كل المجتمع الجزائري من جهة أخرى. فنجد أن الروائي جعل بطله صوفي، يعيش حالات تتجسد في حالة واحدة لأنه يقرأ التاريخ ومضة بل حالة، فالروائي استعمل الأساليب الصوفية، ليجعل البناء لولبيا، وليعطي الديمومة للحالة، وذلك تجلّي في إعطاء نهايات للرواية، وأدو نيسويقول: "شكلان-الرمز الصوفي والأسطوري- للاتجاه نحو أعماق أكثر اتساعا والبحث عن معنى أكثر يقينية"⁽²⁾.

وقد برز التداخل بفتية رائعة، عندما تناص أسلوب الطاهر وطار وطار مع أسلوب سارتر؛ فالولي الطاهر يقول: "لا ادري من أين خرج ذباب أزرق، صغير، نشط، لا يرفع رأسه إلى فوق، ولا يبتعد عن الجثة غير آبه بشيء آخر غيرها، كل جثة وذبابها، من أين يأتي هذا الباب الذي لا يرى إلا عند الموت"⁽³⁾، وكأن الروائي استحضّر حشود الذباب، فحال الولي الطاهر بعد المجزرة التي شارك فيها وقتل الأبرياء يشبه حال (الكتر) التي وقعت أسيرة

(1) الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود...، ص: 17.

(2) أدونيس، الصوفية والسريالية، دار ساقى، بيروت لبنان، ط 1، لبنان، 1992، ص: 156.

(3) الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود...، ص: 113.

لأشباح الندم، التي عبر عنها ساتر بجشود من ذباب صغير، تراه (الكتر) غيدة وذهاب، وبذلك جعلها ساتر أسيرة وهم كبير مسيطر على كل مشاعرها أمام الجريمة، جاعلا محاولات عديدة لأخيها (أورست) لتخليصها، و عبثا حاول، كما فعلت بلارة محاولات مع الولي الطاهر لكنها فشلت، إن التخلي عن المسؤولية هو في الحقيقة قضاء على وجود الإنسان، من أجل ذلك هاجم ساتر بكل قوته فكرة الاستسلام للخطيئة والشعور بالندم، ومع الغثيان (la nausée) يتناص أسلوب الروائي مع أسلوب ساتر، أيضا، عندما يقول: "ضاق، ضاق، حتى أحس أنه أشبه ما يكون بمقط لم يكن ما يحاصر، صلبا، بل بالعكس من ذلك كان لدنا طريا، كأنما هو إسفنج إلا أنه يخنقه"⁽¹⁾، وتداعى على المقعد الصغير، والألوان تدور حوله على مهل، وكانت له رغبة في التقيؤ، بينما الولي الطاهر - أيضا - اعتراه التعب، وشعر بضرورة الاستسلام للمادة الأسفنجية، فتمتصه حتى يصير جزء منها.

والجمالية التي تجلت في كل هذا، أن في المرات الثلاث التي تناص فيها الأسلوب الوطاري مع الأسلوب الساتري؛ تكرر الدعاء "يا خفي الألفاف نجنا مما نخاف"، وكان الروائي بذلك - يحذر من أن يدمن الفكر العربي الإسلامي على الفكر الوجودي الساتري الإلحادي.

هنا نرى كيف جاءت الروائي بالنص الغائب، وصب فيه كل مآربه ومقاصده التي يريد توصيلها إلى القارئ، وكأنه يرد على فلسفة بفلسفة مضادة.

والمأمل يجد متعة مثيرة تجلت في ذلك التحصل على المعرفة التي يجدها القارئ الباحث عنها في الفصول الواقعة والمقاطع الصحافية والرسائل في هذه الرواية فيشعر بسعادة الارتواء المعرفي الذي لا يقف عند الحصول على المعلومات، بل رؤية هذه المعلومات خاصة التاريخية الإسلامية، في سياقها الجديد.

وهكذا كان الصدام في هذه التقنية بين النصين، النص القديم والنص الجديد، هذا الأخير الذي أضيفت فيه شحنة جديدة للدلالة في كل البنيات وكأنه قراءة القديم في الفكر

(1) المصدر نفسه، ص: 142، 143.

الحديث تعطيه معان جديدة لتحديث بينهما التوافق مع متطلبات العصر، وهذا ما تجلّى في استحضار المفردات والأساليب الصوفية، واستغلال المنطق السريالي والجدل التاريخي.

هـ- التناص الجزئي:

لقد استدعى وطار بطله نصه السابق: "الشمعة والدهاليز" في بعض الملامح، إن لم نقل في كل الملامح، حتى تكاد تجزم أن بلارة هي نفسها الخيزران، إنها امتداد لها؛ إنها بنفس الملامح؛ فهما رمز المرأة الغواية والفتنة الأمازيغية البربرية، الاثنان وظفتا لهدف أرسلتا إليه، الأولى أرسلت للولي كي تنجب نسلا صالحا يكون كل الناس، يزيل كل الأجناس الأخرى، والثانية، أرسلت للشاعر تستقصي أخباره، لكنها أحبته، وتناست مهامها وأهدافها في الجماعة، وكان الجزء في الثانية قتل الشاعر، وفي الأولى تيه الولي وضياعه، انه لا يفهم شيئا في السياسة لكنه حاكم متسلط.

والتناص الجزئي تجلّى في استحضار الأسطورة التي يصعب الاهتداء إليها بسبب التناقضات الموجودة بينها وبين نص الرواية، ربما تعود هذه التناقضات للضرورة للأزمة الجزائرية ذاتها، فكل شيء فيها غير واضح؛ حتى أن الأمة باتت تشك في كل مكوناتها، بل تكاد تفقد هويتها في ظل هذه الأزمة ف"ما الذي جعل صوامعها تختفي دون أن تلف أثرا⁽¹⁾.

إن الجزائر بؤرة توتر حقيقية وملتقى لعدة قنوات فضائية تستطيع استقطاب كل تلفات العالم، فالمثقف انهار، السياسي تابع، والمجتمع يشكو من الشرخ، والنظام السياسي معزول، والبعض يبحث عن الأزمة في المنطق البارد من الي أعلى الكثبان الرملية، وحرارة الشمس، والبعض الآخر يجسد في الغرب، الجسم المتناقضات؛ الشعر والأحاسيس النبيلة بالبندقية والموت، والآخر يتصلون مع الأخريات عن طريق الحلم⁽²⁾.

كل هذه المتوترات، جعلت الروائي استحضّر طقوس وملامح نصوص سابقة في نصه تستدعي القراءة المتأنية والتأويل المحايث، للإهداء إلى "رأس الخيط" وقد يعود ذلك إلى

(1) الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود...، ص: 65.

(2) عبد الرحمان مزيان، الأزمة الجزائرية في الولي الطاهر يعود...، العدد 15، ص: 75.

بعد معاني النص الجديد عن النص القديم، وربما هذا ما قصده وطار عندما قال في مقدمته، سيجد القارئ الذي ليس له ثقافة تراثية عموماً، نفسه مضطراً إلى مراجعة بعض المفردات والاصطلاحات، كما قد يجد صعوبة في العثور على "رأس الخيط"، وعذري أنني حاولت تقديم ملحة وليس قصة فقط⁽¹⁾، هكذا قال وطار في مقدمته كلمة لا بد منها، إنها كيمياء المعرفة، فالنص بكثرة نصوصه وتعدد اتجاهاته يفترض صعوبة ضرورية، مؤداها عدم القدرة على تحديد كل ملامح هذا النص⁽²⁾، ذلك أن النص الواحد ليس حديثاً، وليس قديماً، ولكنه مجموعة نصوص دفعة واحدة، وكل طبقة رسوبية من طبقاته تنتمي إلى عصر معين دون غيره، إنه مطعم بمجموعة هذه الطبقات والتشكيلات الرسوبية النصية.

إن قراءة تناصات النص هي وحدها الكاشفة عن أهمية استخدام هذا الشكل الجديد من الكتابة، بوصفه تقنية وروائية تسعى من خلال تأويلها إلى فهم النص، سواء كانت النصوص المكونة تتجسد في النص الجديد، أو تترك - فقط - إشاراتها الدالة عليها.

يتكون النسيج النصي لرواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي من عدة خيوط تناصية تشابكت وتضافرت لغزل هذا النسيج كما أوضحنا ذلك في الفصل السابق، والحقيقة أن اكتشاف هذه الخيوط التناصية ليس بالأمر العسير، فدراسة التناص لا تريد أن تكشف عن هذه الخيوط فحسب، بل تريد أن تحقق فهماً أفضل للنص من خلال تأويل تناصاته، وكشف علاقات هذا التناص بوضع النص في العالم، وبتراثيبه النصوص التي يتناص هذا النص في الثقافة التي ينتمي إليها، وبتاريخ صراع هذه النصوص، وتأثيرها في إنتاجية هذا النص، حيث إن هذه العلاقات هي تساعد على تأويل هذا التناص⁽³⁾.

أما عن أفق التناص في الرواية له ارتباط وثيق بـ"عالمية النص"، التي يروج لها (ادوارد سعيد)، وبتأثير الأديب بالتكنولوجيا المعلومات التي رمت بالأدب بين أحضان الوثائق،

(1) الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود...، ص: 10.

(2) ينظر إبراهيم رماني، الغموض في الشعر المعاصر، ص: 380.

(3) حسن محمد حماد، تداخل النصوص في الرواية العربية، ص: 152.

خاصة عند إدراجه لرسائل نموذج المثقف الذي شارك في الأزمة الجزائرية، والممثل في شخص (عيسى حليح).

كما تبرز في إيراد أشهر المجازر التي وقعت بتوارينها خلال العشرية السوداء مع ذكر لأهم العناوين الصحفية التي ميزت الساحة آنذاك.

وتساعدنا فكرة؛ أن النصوص يتم الشروع في تفسيرها بفضل دقة وضعها في العالم، في فهم التناص الموجود في رواية- "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي"- على ضوء عالميتها وظروفها التي أنتجت فيها؛ حيث أن علاقات الرواية بالنصوص تكون محكومة بعالمية هذه النصوص، بل ربما -أيضا- تسببت هذه العامية في دفع النص إلى نوع معين من العلاقات⁽¹⁾.

وفي ظل تحولات جديدة نجد أن المجتمع الجزائري خاصة و المجتمع العربي عامة، يعيش على هامش الحادثة، ما بعدها، في حين أنه في حقيقة الأمر لا يملك حتى الآن مقومات إنتاج هذه الحادثة، إنه التناقض الذي عبر عنه وطار بلفظه "البوء" الذي أصاب الإنسان العربي فأضحى لا هو بمسلم، ولا هو بكافر، لا هو تراثي أصيل، ولا هو غربي حديثي، فهو غارق في ما قبلها بشكل سلمي، وفي ظل فترة مليئة بالأحداث وشارات التحول، خلال عشرية سوداء، يغامر الطاهر وطار بكتابة رواية تجمع عديد المتناقضات، وسط ما يشهده المجتمع من توتر، ونستطيع أن نلاحظ في رواية "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" وظيفتين أساسيتين، ظاهرتين، ربما مقصودتين كذلك؛ الأولى، هي الامتناع و المؤانسة، وهو ما جعل روايته محملة بكل أساليب التشويق، الإثارة، وقد حقق وطار هذا الامتناع من خلال الوصف الدقيق لمجزرة "أولاد علال"، ففي أحد مظاهرها يقول على سان إحدى الضحايا: "رضعة واحدة فقط لوليدي، اسمعوا إنه يصرخ...رض... يهوى الساطور، يتدفق الدم... يتطاير الرأس"⁽²⁾.

وتلك المظاهر وما تحدثه في النفس من أثر مقارب لما تحدثه أفلام الرعب والجنس في السينما؛ فالولي الطاهر شبقي إلى أبعد الحدود، وهو يرى بلارة تقفلا بين يديه كانت شبه

(1) المرجع نفسه، ص: 153.

(2) الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود...، ص: 105.

عارية، طرحت جلبابها ثم قميصا حريريا ورديا ثم سروال جينز بعضه مبيضو بعضه يحتفظ بزرقته الدكناء، وقذفت بجذائها ذي الكعب العالي بعيدا عنها غير مبالية بموقعه⁽¹⁾ ثم تقول: "هيت لك".

وأما الوظيفة الثانية؛ فهي الوظيفة الاجتماعية، السياسية التي يرجع اهتمام الطاهر وطار بها إلى أن القضايا التي تواجه الأدب العربي اليوم قضايا إبستومولوجية، أساسا فالأدب هو الوسيط ذو الامتياز، وربما الوسيط الأساس للمعرفة؛ معرفة العالم ومعرفة الذات، وفي مجتمعنا يتم فيها إخفاء الحقيقة وتشويهها وقمعها تصبح وظيفة الأدب هي كشف الحقيقة وفضحها.

وقد اعتمد الكاتب في بناء العمل الأساسي في تشكيل خيوط وتفصيل الرواية، وهو يحاول ربط تلك الأحداث القديمة والمعاصرة في عالم يعج بالفتنة، كما لم تكن العضباء إلا وسيلة من وسائل الارتكاز على التراث لتذكرنا بقوله: "يا خيل الله اركبي"، ترى ما الذي يجعلنا نصدق ذلك الربط بين هذه الأتان المشرومة الأذنين، وتلك الناقة المأمورة يوما؟، لا شك أنها حالة الربط التاريخي المزدوج على أساس الفكرة، والمتباعد على أساس العمل والموقف، وعلى القارئ الفطن أن يدرك الحقيقة المستترة.

كل هذا ساعد على إعطاء بعد جديد للتناسخ، حيث أن إدماج الوثيقة في طلب العمل الأدبي يشكل تحديا لا يستهان به، فعلى الأديب أنه يطمس الحواف الحادة لقصاصات وثائقية، ويضيف على ضفافها ليونة، كي يتأتى له أن يحدث التوتر، ويثير السخرية في نفس القارئ، ويحث على استخلاص العبرة واكتشاف التناقض والتقاط الحقيقة المبعثرة على شظايا الوثائق المستترة وراء ظاهرة نصوصها⁽²⁾.

وقبل أن نغادر هذا البحث، يجدر بنا الإشارة إلى ذلك التكرار المعتمد والالاف للالتباه، الذي اعتمد الطاهر وطار من البداية إلى النهاية؛ خاصة في دعاء "يا خافي الألفاف" نجنا مما نخاف"، والذي تكرر أربعين مرة دلالة على خطورة الوضع، وفي قصة الولي الطاهر

(1) المصدر نفسه، ص: 86.

(2) حسن محمد حماد، تداخل النصوص في الرواية العربية، ص: 157.

مع بلارة بنت تميم التي تكررت ثلاث مرات في الرواية بمجمل نصها وصورتها؛ الأولى كانت في لوحة السبيللة، حالة اللاوعي التي ارتكبت فيها مجازر وجرائم عديدة دون حسابان عبر الصفحات (ص 93، 92، 91)، والثانية جاءت في لوحة "في البداية كان الاقناع"، مرحلة بداية الاقلاع والبناء، ولكن دون أخذ العبرة من جرائم ومجازر حالة السبيللة، وكانت عبر الصفحات (ص 119 - 120)، أما الثالثة جاءت عبر الصفحات (ص 153 - 154 - 155)، وبهذه الصورة تختتم الرواية؛ صورة جمع فيها الروائي الولي الطاهر مع بلارة، التي حاول الطاهر وطار أن يرسم فيها معالم ذلك الوطن الجميل الرائع، الفاتن ونستفيد على لسان بلارة أو بالأحرى الجزائر قولها: "أحذرك يا مولاي من سفك دمي، ستلحقك بل والبحث عني فلا تعثر على حتى وان كنت تحت قدميك"⁽¹⁾.

ولعل هذا أبرزه تكرار أحذر يا مولاي الذي جاء أربع مرات في صفحة واحدة، إنه التكرار الذي يفيد التأكيد على خطورة الوضع وعلى النهاية المؤلمة التي ستلحق الولي الطاهر ومن حذا حذوه، إذن هي صورة ختم الطاهر وطار بها الرواية لتبقى مفتوحة على مصراعها، فالمأساة ستكرر كلما تكررت هذه الصورة، وكلما تمت إراقة الدماء.

وأخيرا، أصبحنا ننظر إلى النص المنجز - بعد ظهور التناص - بين أيدينا بوصفه الأثر المتبقي من عملية تخلق النص، فهو ليس النص على الإطلاق، ولكنه - فقط - جزء منه؛ هو بمثابة الطبقة، الظاهرة ضمن طبقات أخرى متراكمة ومضمرة ومغطاة في الوقت نفسه⁽²⁾.

ولقد استخدمنا التفكيك بوصفه تقنية، إجرائية تساعدنا كثيرا على الولوج إلى هذه الطبقات النصية ونزعها وتفكيكها وتقشيرها؛ ويجدر بنا الذكر، أن التفكيك أساسا ليس تدميرا أو هدمًا كما يتصور البعض، وإنما فصل طبقات النص التي ترسب بعضها فوق بعض، لذلك كانت البداية قراءة النص بالقشرة الخارجية التي هي وحدها المرئية مثل النص والمصاحبة والعناوين، أما الطبقات الأخرى المغمورة والمطورة في الأعماق، المرتبطة بالزمن البعيد و القرون المتتالية، والتي تعد بمثابة الطبقات التحتية للنص، وقد حاولنا التنقيب في

(1) الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود...، ص: 92.

(2) حسن محمد حماد، تداخل النصوص في الرواية العربية، ص: 37.

عمق تاريخ النص للكشف عنها واحدة تلوى الأخرى، ولنستنتق النص أكثر حيث أن التناص عبارة عن وسيلة تواصل لا يمكن أن يحصل القصد من أي خطاب لغوي بدونه، إذ لا يكون هناك مرسل يغير متلق، مستقل، مستبعد، مدرك لمراه⁽¹⁾.

إن التعامل مع نص الطاهر وطار ما هو إلا جدل بين النص وقارئه في الوقت ذاته، ينطلق من مكونات النص دون أن يلغي مكونات القارئ الثقافية، فتصبح القراءة بذلك عملية تأويل واعية بذاتها أولاً، وبالنص ثانياً، كون أن اكتشاف الترسيبات والعلاقات التناصية ينطلق من النص ومن القارئ معاً، ومن جدل الاثنين خلال القراءة: القارئ بما يحمله من خلفيات ثقافية وحضارية، لا يمكن إلغاؤها أثناء التعامل مع النص والنص الذي هو مجموعة علامات لا يمكن تجاوزها في عملية القراءة، حيث أن الرواية عالم عميق وشائع، فهي وأن كانت الأحداث تشكل نواتها فإنها أقرب من أي جنس أدبي آخر إلى الفلسفة ولهذا فهي تقتضي روائياً عارفاً عالماً بخبايا المجتمع وتاريخه وخاصة الإنسان عن النص الذي بين أيدينا هو ذلك الجزء المتبقي من عملية إنتاجية التي تمر بها، لأنه نشاط نفسي وتاريخي، والقراءة في تناصاته تعني أمرين:

- الأول: إن قراءة هذه التناصات لا تعني التوجه إلى تلك السطوح التناصية اللامعة في جسد النص، فهي تبدو لنا وكأنها قمم وجبال من الثلج، لا تكشف عما تحتها من جليد، بل تعني التوجه إلى قراءة هذه التناصات، من خلال عملية الإنتاج ذاتها؛ أي أثناء تخلص النص وتناصاته، وقت صراعه النصي مع النصوص الأخرى داخل الذات الكاتبة، فإنتاج التناصات لا يتم إلا خلال تقاطعها مع الذات التي تعيد إنتاج هذه التناصات، وتعطيها دلالات جديدة، نابعة من الوضع السوسيو ثقافي لها.
- أما الأمر الثاني: فهو انفتاح التناصات على ذات القارئ وتقاطعها مع ما يملؤه من نصوص، وهو ما يكشف عن مصنع النص في الثقافة، وفي التاريخ الأدبي.

(1) د. محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، ص: 136.

وبهذا، فنحن لا نبحث في انتاجية النص الروائي للطاهر وطار، خلال تخلقه وتشكله عبر ذاته فحسب، وإنما كذلك نبحث انفتاحه على ذات القارئ المحملة بمجموعة من النصوص التي يشارك عن طريقها في هذا الإنتاج.

وكما يقول (امبرتو إيكو eco umberto): "إن النص هو انتاج يجب أن يكون مصير تأويله جزءاً من آليته" son mecanisme "التوليدية الخاصة"⁽¹⁾، وهذا التعريف فضفاض لا يحدد بشكل دقيق درجات القراءة لا نوعية النصوص، وهو ما سنراه مع القارئ المفترض في الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي "قارئ نص الطاهر يفترض فيه أن يكون في مستواه، لأن هذا النص ليس سهلاً أو بسيطاً، وإنما هو نص ملتبس ومركب جاء نتيجة ذلك لسببين:

- 1- الكاتب: له تجربة طويلة في عالم الكتابة.
- 2- النص يتطرق إلى قضية ليس من السهل الإمساك بها. فأحداثها متشابكة أحياناً، ومتنافرة أخرى، كما أن هناك بيضات تاريخية في الموضوع الواقعي للقصة ذاتها⁽²⁾.

وهكذا نخلص بالذكر إلى أن عمليات إنتاج النص الأدبي "وتلقيه" لا تأتي من فراغ، بل هي عمليات معقدة للغاية، فالنصوص تنتج ضمن بنية نصية منتجة سلفاً، هي التي تشكل الخلفية النصية للكاتب والقارئ على السواء، وهذه الخلفية النصية هي المسؤولة عن إنتاج المعنى، فبداية تتم عملية الإنتاج الروائي في عالم مملوء بالنصوص التي يحاول النص الروائي الجديد أن يصنع لنفسه مكاناً بينها، ويتخذ لنفسه موضعاً في سياقها عن طريق صراعاته معها من خلال عمليات الإحلال والإزاحة لهذه النصوص في حيز متوهم، يسمى المجال التناسي⁽³⁾.

(1) عبد الرحمن مزيان، الأزمة الجزائرية في الولي الطاهر يعود...، العدد 15، ص: 70.

(2) المرجع نفسه، ص 70،

(3) حسن محمد حماد، تداخل النصوص في الرواية العربية، ص: 41.

لتساهم الخلفية النصية للكاتب في كتابة النص، كما تعد الخلفية النصية للقارئ، المختلفة من قارئ إلى آخر، هي - بحق - المدخل الأهم الذي يساعده على فهم النص وتعيين دلالاته؟ حيث إن انتاج دلالات المقروء مرتبط بنوعية الخلفية النصية التي يملكها، وباتساعها أو ضيقها، فالقارئ - في حالة اتساع خلفيته النصية - قد يحمل النص دلالات جديدة ربما لم تخطر من قبل على أذهان الآخرين، بل على ذهن الكاتب أصلا، وهو يكتب، لذلك يقول (المجبتون): ان المؤلفين يضعون المعاني بينما يحدد القراء الدلالات⁽¹⁾. غير أن اتساع دائرة العلاقات النصية التي توسعها خلفيات القارئ غالبا ما تأتي بنتائج فيها تعسف كثير، لا يحد منه إلا الارتباط المباشر بالخلفية النصية للمؤلف التي تحد من سلطة القارئ التي لو تركت لفتحت بوابات سدود مفضية إلى معان لا نهائية، لأن القراءة مهما كانت جادة فانها تبقى دوما نسبية، وليست بالضرورة مماثلة لوجهة نظر الكاتب، لأن هذا الأخير يصبح قارئاً، ونسبية القراءة هي التي تنفخ الروح في النص مرة بعد مرة⁽²⁾.

إن اكتشاف المجال التناسي للنص المقروء؛ هو الجدير بتقديم قراءة ناجحة لا تحد من رقعة الاستقبال النص، ولا تترك للمتلقي فرصة ليقحم النص في علاقات متعسفة، فالمجال التناسي ضروري لعملية التلقي، كما هو ضروري لعملية الكتابة؛ فمعرفة المجال التناسي الفاعل في تكوين عمل ما، لا تقل أهميته بالنسبة لفهمه عن معرفة اللغة التي كتب بها، ذلك أن المجال التناسي لأي نص يزود القارئ بمجموعة من المعارف، الضرورية، وليدرك مختلف طموحات هذا النص وشفراته المتراكمة والمتداخلة معا، إن النص يفرض على القارئ طريقة الرواية يقول (ادوارد سعيد) إن بداية أي نص هي النقطة التي يبارح فيها النص كل النصوص الأخرى، فالبداية تؤسس على الفور علاقة النص بالنصوص الأخرى سواء أكانت علاقة استمرار واتصال أم علاقة انفصال أم خليطا من العلاقتين⁽³⁾.

(1) عبد الرحمان مزيان، الأزمة الجزائرية في الولي الطاهر يعود....، التبيين، العدد 15، ص: 70، 71.

(2) حسن محمد حماد، تداخل النصوص في الرواية العربية، ص: 42.

(3) المرجع نفسه، ص: 43.

ويبدو أن النص المنتج كان نقطة جامعة لإشعاعات واضواء ذات مرجعات مختلفة، فضل المؤلف فيها انه استطاع توليفها وإحكام قبضته عليها وصياغتها على النحو الذي ينسجم والمعطيات التي يريد التعبير عنها⁽¹⁾، ليزيح بها إلى القارئ جيد، واسع الثقافة، قارئ ماهر ينتظر منه مشاركة فعالة في عملية التلقي لتأويل النص الذي بين يديه، وله مهارات ثقافية تمكنه من فرز العناصر الغائبة في النص، وكل هذا وفق منظوره الخاص.

المقاربة الثانية: السيمياء والشخصية السردية؛

أولاً: سيمياء الشخصية في رواية وجهان لعنقاء واحدة للكاتب عبد الكريم ناصيف

قبل البدء: حظيت الشخصية باهتمام الدارسين المحدثين، باعتبارها مكوناً سردياً فاعلاً ومتفاعلاً تدخل في شبكة علاقات متعددة مع الشخصيات الأخرى ضمن حيز الخطاب السردى (Didcours narratif) فهي نقطة تقاطع بين جميع الأجناس السردية لما تقتضيه من فاعلية وحركية.

من الدراسات التي استهدفت هذا العنصر الحكائي، وتحديد وظائفه في العمل السردى ما قام به الناقد فيليب هامون^{Philippe Hamon} في تصوره الإنسانى للشخصية ودور القارئ في إعادة بناء زمن القراءة فهو يفرغها في أي حكم جاهز، ويمكن تحديد الشخصية بأنها المورفيم الفارغ، أي بياض دلالي لا تحيل إلى نفسها، فهي ليست معطى قبلياً كلياً⁽²⁾.

1- الشخصية الحكائية:

تعد الشخصية الحكائية بوصفها كائناً إنسانياً يتفاعل داخل النص السردى مع عناصر السرد الأخرى في تكوين المشهد، ومن خلال هذا المستوى فإن الشخصيات يمكن أن تتفاوت من حيث مركزيتها أو هامشيتها ومن حيث حركيتها أو ثباتها، وكذلك من حيث تجانسها الذاتى أو عدم تجانسها، لأن الشخصيات كما يقرر بارت هي كائنات من ورق

(1) سامح الرواشدة، فضاءات شعرية، المركز القومي للنشر، الأردن، ص: 78.

(2) سعيد بنكراد، سيمولوجيا الشخصيات الروائية، دار الكلام، الرباط، المغرب، 1990، ص 9.

وعلى ذلك ففي هذا المستوى سيتم التعامل معها بوصفها وجودا مستقل محدداته من الوجود الإنساني وإن كان الأول مقصورا على عالم السرد بناء على ذلك يمكن أن يتم رصد صفات الشخصية العقلية وكذلك رصد تعليقاتها مع باقي شخوص النص دون أن يغيب عن بالنا كون الشخصية الحكائية تتمتع بوجود مستقبل الشخصية الواقعية فالأولى هي علامة فقط على الشخصية الحقيقية إن بطل الرواية هو شخص في الحدود نفسها يكون فيها علامة على رؤية للشخص⁽¹⁾.

إن الشخصيات الروائية ليست وجودا واقعيًا، وإنما هي مفهوم تخيلي، تدل عليه التغيرات المستخدم في الرواية، فالشخصية في الرواية تتجسد لتتخذ شكلا دالا من خلال اللغة كما يرى "فيليب هامون" (Philippe Hamone) أن الشخصية الروائية هي تركيب يقوم به القارئ أكثر مما يقوم به النص⁽²⁾.

يضاف إلى ذلك أن هوية الشخصية الحكائية ليست ملازمة لذاتها، أي أن حقيقتها لا تتمتع باستقلال كامل داخل النص الحكائي أولا لأن بعض الضمائر التي تحيل عليها إنما تحيل في الحقيقة كما يؤكد (بنفست) (Benveniste) على ما هو ضد الشخصية أي على ما هو ليس بشخصية محددة مثال ذلك: ضمير الغائب فهذا الضمير في نظرية (Benveniste) ليس إلا شكلا لفضيا وظيفته أن يعبر عن اللاشخصية: لأن القارئ نفسه يستطيع أن يتدخل برصيده وتصورات القلبية صورة مغايرة عما يراه الآخرون عن الشخصية في الحكى تركيب جديد يقوم به القارئ أكثر مما هي تركيب يقوم به النص.

يقول "رولان بارت" (LR.BARTHES) معررفا الشخصية الحكائية بأنها: نتائج عمل تألفي كان يقصد أن هويتها موزعة في النص عبر الأوصاف والخصائص التي تستند إلى اسم "علم" بتكرار ظهوره في الحكى⁽³⁾.

(1) أيمن بكر، السرد في مقامات الهمداني، دار الهيئة المصرية، 1998، ص 50.

(2) محمد عزام، شعرية الخطاب السردى، دراسة - دار اتحاد للكتاب العرب، دمشق، 2005، ص 9.

(3) حيد حميداني، بنية النص السردى من منظور النقد الأدبي،

فهي ليست جاهزا، ولا ذاتا نفسية بل بمثلثة دليل له وجهان احدهما دال، والآخر مدلول فتكون الشخصية بمثابة (دال) عندما تتخذ عدة اسماء أو صفات تلخص هويتها، أما الشخصية (كمدلول) فهي مجموع ما يقال عنها بوساطة جمل متفرقة في النص أو بوساطة تصريحاتها وأقوالها وسلوكها وهكذا فإن صورتها لا تكتمل إلا عندما يكون النص قد بلغ نهايته ولم يعد هناك شيء يقال، ولهذا السبب لجأ بعض الباحثين إلى طريقة خاصة في تحديد هوية الشخصية الحكائية تعتمد محور القارئ لأنه هو الذي يكون صورة عنها⁽¹⁾.

وبناء على ماسبق فإن التعامل مع مفهوم الشخصية يتم من خلال مصادر إخبارية

ثلاثة:

- ما يخبر به الشخصيات ذاتها.
- ما يستنتجه القارئ من أخبار عن طريق سلوك الشخصيات⁽²⁾.
- أ- شخصيات مرجعية: وهي عنده كل الشخصيات التاريخية ل (نابليون) أو الأسطورة ك (فينوس) والمجازية كالحب والكراهية والاجتماعية كالفراس والمحتال، وكل هذه الأنواع تميل إلى معنى ثابت تفرضه ثقافة يشارك القارئ في تشكيلها.
- ب- شخصيات إشارية: وهي الشخصيات الواصلة الناطقة باسم المؤلف وأكثر ما تعبر عن الرواة والأدباء والفنانين.
- ج- الشخصيات الاستذكارية: وهذا النوع كما يرى (هامون) تكون فيه المرجعية لنسق الخاص للعمل هي التي تحدد هويتها تقوم هذه الشخصيات داخل الملفوظ ينسج شبكة من الاستدعاء والتذكير بأجزاء ملفوظية وذات أحجام متفاوتة ووظيفتها تنظيمية وترابطية بالأساس⁽³⁾.

(1) محمد عزام، شعرية الخطاب السردى، مرجع سابق، ص 9.

(2) فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، دار العربية للعلوم، ط 1، الجزائر العاصمة، 2010، ص 218.

(3) ذوبي خيثر الزبير، سيمولوجيا النص السردى، مقارنة سيميائية روائية الفراشات والفيلان، رابطة أهل القلم، ط 1، سطيف، الجزائر، 2006، ص 24/23.

فشخصيات عبد الكريم ناصيف شخصيات تقترب ن الواقع في بعديها: النفسي والاجتماعي، لتكون -بذلك- عمقا استراتيجيا، ومقياسا يؤسس للبناء السردي والجمالي للعالم الروائي، وعليه، ارتأينا الوقوف عند مؤشر الأسماء سواء أسماء أعلام أم أسماء شخصيات مختلفة وما يتبعها من صفات في المتن الروائي.

2- اسم الشخصية ودلالاته:

تعيش الشخصية في فضاء ورقي يتخيل فيه المبدع لرسم ملامح شخصياته وتوجهاته الإيديولوجية والوظيفة، فالكاتب سجل شخصياته في السجل المدني، ومن ثمة توجب عليه تسميتها، لما للتسمية من أهمية في تحديد الشخصية وما تقوم عليه⁽¹⁾؛ ذلك أن الاسم دال يضفي دلالات معينة، ويوحى إلى ذهن القارئ، إنه علامة لغوية، تجربنا في سبيل تحديد دلالاتها على استحضار السياق النصي العام الذي حوى هذه العلامة، من مقصدية خطائية وظروف انتاجية وتوقعات مرجعية.

إن حضور الاسم في العمل الإبداعي، يرتبط بمقصدية معينة تتجلى في خصوصية التعامل مع الاسم في التجربة الأدبية نحاول الآن، ونحاول الآن استقراء السماء سيميائيا ونتوقف عند أهم الشخصيات في هذا العمل الروائي، لتحل دلالاتها أسمائها وتبدأ بأول الشخصيات وهي الشخصية البطلة الموسومة ب:

1- ديمة:

- البطلة صاحبة حصة الأسد في الحضور والتمركز في هذا المتن الروائي بالقياس إلى كل شخصيات الأخرى وغن اسمها مشتق من الديمة، والجمع ديم وديمات، ويدل اسمها على المطر الذي يلوم في سكون دون برق أو رعد لمدة يوم وليلة ويقال لخمسة أيام

(1) ينظر: عبد المالك مرتاض، تحليل الخطاب السردي، الجزائر، 1992، ص 128.

ودوما كذلك هو نوع من النسيج⁽¹⁾. ووردت كذلك بمعنى سحابة يدوم مطرها يدوم في سكون، فهي رمز للخير والعطاء⁽²⁾.

- والسحاب رمزا للمستقبل الغامض الذي ينتظر الإنسان الذي لا يعرفه عنه شيئا⁽³⁾. وهذا الاسم اختاره له أبوها حيث قال: أنا ابن الجفاف أحب ما أحب في هذا العالم الديمة الملاء بالمطر تمر في البادية فتملاء أرضها خيرا وعطاء وتكون بشير خصب ونماء⁽⁴⁾.

أما إذا وضعنا ديمة في إطارها الفني فنجدها هي الفتاة المدللة التي لا يرفض لها طلب أو وحيدة أبويها، في المحافظة على عاداتها وتقاليدها، المتحررة: صحيح أن الحياة صارت أكثر انفتاحا والبنات أكثر حرية لكن الصحيح أن بيئي، تربيني كلما نشأت عليه يرفض على أن أحافظ على نفسي⁽⁵⁾ المثقفة التي تحب العلم والمعرفة، فقد كان الكتاب رفيقا الدائم قوية شجاعة لا تقبل الهزيمة أبدا متفوقة في دراستها، وتحصلت على أعلى الدرجات من أجل تحقيق حلمها أن تصبح ممرضة نساء، "حلمي أن أصبح قابلة قانونية، يناديني الناس بالدكتورة، تحتاجني النسوة كلهن يشرف إلى البنات وأية متعة تفوق متعة أن يشير إليك الناس بالبنات"⁽⁶⁾. كما انها باحثة عن المتعة والشهرة تريد الاستمتاع بما هل لذة، تحب عملها فهي ترى أن تحقيقها لذاتها وكيانها وحريتها لإثبات لوجودها فهي التي تحلم بالتفرد والكينونة الخاصة، لا تسمح لأحد أن يحولها إلى ذيل تابع مجرد حرمة لاطئة في زاوية البيت، أنا لي كياني ذاتي، أنا لي كياني وأريد أن أعيش هذا الكيان أحقق تلك الذات⁽⁷⁾.

(1) عبد المالك مرتاض، تحليل الخطاب السردى، الجزائر، 1992، ص 185.

(2) خضر أحمد الخالدي، مرجع سابق، ص 164.

(3) عبد المالك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، منشورات اتحاد الكتاب، دمشق، 2005، ص 89.

(4) عبد الكريم ناصيف، وجهان لعناء واحدة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004، ص 224-225.

(5) الرواية ص 20.

(6) الرواية ص 07.

(7) الرواية ص 42.

ومن أجل هذا الحلم فارقت أهلها ورحلت من مدينة إلى أخرى، وفضلت العيش في دمشق هذا المكان الذي حمل لها العديد من المفاجآت والمستقبل الغامض المجهول. هي تلك الفتاة التي رفضت الرضوخ لرغبة أمها وأبيها من أجل تزوجها من ابن عمها الذي تربت معه همام لقد نشأت مع همام جنباً إلى جنب، نأكل معاً ننام معاً، كل ما في البيت يجمعنا فلا أرى فيه إلا أخاً عزيزاً غالياً أُلجأ إليه⁽¹⁾ بعد طرق ذكية ومراوغتها بأساليب شتى لإقناع والديها، حتى لا تخسر حبها وفتى أحلامها، وكذلك حب والديها، فهي تريد الزواج من الشخص الذي أحبه وحلمت أن تعيش معه ولا تخسره وكذلك لا تريد خسران والديها وإرضاءها وإقناعها بالقبول بالرجل الذي اختاره فهو حامياً وحامياً عرضها الذي وقف إلى جانبها في مرحلة طفولتها وكلما احتاجه تجده قبل أن تطلب حتى منه المساعدة لا يرفض لها أي طلب، فهي لا تستطيع أن ترى فيه صورة الزوج إلا أحل تسند عليه أوقات الشدائد، فهي تحبه ولكن حب إخوة.

ديمة فتاة طموحة متفائلة دائماً، لا تخشى مواجهة الحياة، تتحدى الصعاب وتخرج منتصرة من معركتها، تراوغ وتراوغ إلى أن تصيب الهدف ولا تتراجع ولا تستسلم فبرعم من مرضها الخطير والقاتل مرض "قصور القلب" وحرمانها من الزواج والولادة⁽²⁾ إلا أنها وقفت محاربة في وجه الموت ولم تدعه يحرمها من الزواج بفارس أحلامها، صارعت الموت إلى آخر لحظة في حياتها، وأخفت مرضها على زوجها "مازن" حتى لا تخسره وجعلته يمارس حياته بشكل طبيعي وبالرغم من تحذير الأطباء من إنجابها للأولاد نجدها قد ضحت بنفسها وأنجبت فتاة قبل موتها وسماها أبوها "ديمة" على اسم أمها حتى لا يحرم من سماع ديمة طوال حياته.

فهي شخصية ليست انهزامية لا تستسلم بسهولة على الرغم من كل الصعاب.

(1) الرواية ص 63.

(2) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ص 250.

2- مازن:

اسم مازن معجميا مأخوذة من المرن الإسراع في طلب الحاجة من مزن، يميزن، ومزونا وتمزنا، فهو بيض النمل⁽¹⁾.

وورد كذلك بمعنى السخي الظريف، والجميل المضئ الوجه⁽²⁾.

وهي معاني وجدت صداها في شخص مازن الفني داخل عالم الرواية.

وإذا وضعنا "مازن" في إطار النص نجد ذلك الولد الوحيد لدى أمه وله ثلاث أخوات، فهو ذلك الفتى الجميل، صاحب الوجه الضاحك والمستشرق "هو هكذا دائما وجهه ضاحك ثغرة باسم" ومن صفاته الرجولة الكاملة والقوية فهو رجل مثقف كثير الاطلاع محبا للمعرفة منذ كان صغيرا كان يقرأ وكان حلمه ان يصبح كاتباً أو شاعراً⁽³⁾ ولكن ظروفه القاسية ووفاة والده حرماه من هذا الحلم ليتجه ليعمل "مساعد مهندس في البلديات والشؤون التحتية من الحياة الدنيا"⁽⁴⁾. كما اتسم مازن بالشجاعة والمروءة، لقد شخضا مهذباً وخلق.

وقد كان لقاء الأول بديمة من خلال تقديم مساعدته لها من خلال مطاردته لمن سرق حقيبتها اليدوية، فوقع في حبها ابتسامة فموعد فلقاء وهكذا بدأت قصتها، تزوج مازن ديمة فكان أبوها وأمها وأخوها لم يكن زوجها فقط، أحاطها بالعطف والحب والحنان والرعاية وحسن المعاملة.

فقد وجد مازن ذاته ونصفه الآخر في ديمة "أجل صدقوني وجدت ذاتي كان ضائعا فوجدته في ديمة"⁽⁵⁾ وقد كان له طموحات كثيرة لكن هناك ظروف لم تسمح له بتحقيقها، كأن يصبح شاعرا أو فيلسوفاً، فقد كان يمرض ديمة وأخواته الثلاث وسندا لهن ولأمه.

(1) خضر أحمد الخالدي، السماء معانيها العربية واشهر من حملها، مرجع سابق، ص 400.

(2) الرواية، ص 10

(3) الرواية، ص 32.

(4) الرواية، ص 31.

(5) الرواية، ص 31.

حزن مازن على موت ديمة حزنًا شديدًا وكان يحمل نفسه كل المسؤولية، حيث له بدا له أنه هو من قتلها بزواجه منها وهي محرم عليها الزواج، وكذلك ألحبت من أجله وهذا الإنجاب دمر حياتها وعند فقدانها بكى عليها الدموع الفرار فقد كانت حبه الوحيد، أحبها حبا كبيرا، فقد كان يحترمها يرعها لا يرغمها على شيء يعاملها بعطف حنان، لكن ديمة ذهبت وتركتني وحيدا لعد تعد غلى جانبي⁽¹⁾ ولكن كانت ابنته الصغيرة ديمة عزاء الوحيد فهي من راحة حبيبته وامتداد لها ستظل ذكرها بوجود طفله الصغير.

3- همام:

مأخوذة من الهمام وهو الملك العظيم الهمة، وفي حديث ابن سدة اسم من أسماء الملك لعظم همته وقيل كذلك لأنه إذا هم بأمر أمضاه لا يرد عنه، والهمام الأسد، والسيد الشجاع السخي⁽²⁾ وقيل كذلك كثير الهمة والهمام المقدام من إذا عزم على الشيء قام به⁽³⁾. همام ذلك الفتي الذي فقد عائلته في حادث سير من كان صغيرا رضيعا فأخذته خالته وزوجة عمه، وربته مع ابنتها ديمة، فقد كان هو رعيها اليمنى وهي عينها اليسرى، فغمر بالحب والعطف والحنان، ولم تفرق بينه وبينها بكل رعاية أحطته بكل حنان أغرقته، حتى أنه لم يشعر يوما أنه شيء آخر بجانبهم، فهي تلك الشخصية الصبورة وهمها الوحيد أن تزوج ابنتها من الشخص الذي أرادته لها، والتي كانت تعتبرها ملكا لها، تنصرف بها كما تشاء، كما تظهر في وسط الرواية إنسانة تحكي قصة زواجها، بمسلم وعن هذا الزواج التقليدي بحسب العادات والتقاليد بأهل وعشيرة عروس الفرات وما عانته من هذا الزواج، فقد كانت علاقتها بزواجها الصارم دائما⁽⁴⁾ جدية وما كانت تتلقاه من ضرب وشتم إلى حد الإنهاك ولكن كانت في زوجها صفة فيه هي صفة الوفاء والإخلاص⁽⁵⁾ فبرغم من معاناتها

(1) الرواية، ص 248.

(2) الرواية، ص 248.

(3) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ص 222.

(4) الرواية، ص 210.

(5) الرواية، ص 215.

من أجل الإنجاب فقد كانت تحمّل عدة مرات ولكن كل أولادها كانوا يموتون لها ما إن تحمّل يسقطون وإذا أنجبت يموتون في السبوع الأول، ورغم الشتائم التي تعرضت لها من أجل زوجها والإهانات والكلام الجارح لكنها تحمّلت وصبرت خمسة وعشرين سنة إلى أن حملت بديمة وكانت أم زوجها تريده أن يتزوج امرأة أخرى تنجب له الأولاد ولكنه لم يرد ذلك فهو كان يحبها لكن لا يظهر ذلك وتلك هي طبيعة الرجل الشرقي في البادية، إلى أن تظهر في آخر الرواية الأم التي فقدت ولديها وتتلقى العزاء فيهما والتي يحترق قلبها على فقدانها للحرّة واحتلال وطنها.

4-أم مازن:

هي شخصية متشددة بخيلة أحيانا، قليلا تحب السيطرة في بعض الأوقات لتفرض سلطتها وتبسط نفوذها في البيت فهي ملكته، دمية لطيفة الجانب قريبة إلى القلب، حسنة المعشر، بل أن لحديثها مذاق العسل فلسانها طق، ذاكرتها ملأى بقصص وحكايات⁽¹⁾. ويتجسد دورها في المتن الحكائي في دور الحماة التي تمكن يوما إلا أما ثانية لديمّة تكن أقل تجاوبا معها بل حريصة دائما على إرضاءها باذلة أقصى جهدها لتمتين عرى الحب بينهما وأواصر الود بينهما وبين مازن لا تتدخل ولا تتطفل تعرف ما لها وما عليها سوى ابني، لم افرق بينهما في الطعام ولا بملبس، مصروف معاملة⁽²⁾ حتى دخل همام إلى المدرسة وقد كان "حلم أبوه أن يصير ضابطا لامعا على كتفه نجوم مسؤولا كبيرا أو طبيبا المعيا يرفع به رأسه أمام الناس، ولكن همام أخفق ولم يفلح في الدراسة وأخفق في الكفاءة فحلمه أن يصير لاعبا في كرة القدم" فقد كانت كرة القدم قد أخذت بلبه والرياضة أمسكت بمجامع فؤاده يهرب من الدرس ليمارس الرياضة فلم يصل إلى الصف التاسع إلا بالويل والثبور وعظائم الأمور⁽³⁾ وعندما رأى أبوه أنه لم يفلح في دراسته أدخله في تجارة القماش، لم يكن قد

(1) الرواية ص 34.

(2) الرواية، ص 255.

(3) الرواية، ص 13.

كسب من الثقافة شيئاً فيما كان يتمه قد جعله يؤثر الانطواء والانزواء، وعقده تجعله أقرب إلى الفحاحة والفظافة⁽¹⁾.

أحب همام حب الجنون، حب المعبود لمعبود، وقد حاول بشتى الطرق والسبل عن توقيفها عن دراستها فهو الذي لم يفلح في ذلك خوفاً من تصبح أكثر علماً وثقافة منه وأن ترى رجالات آخر غيره قد عجب به وهو الذي يحلم أن تتزوج منه ولكن دون جدوى، قديمة أحببت غيره، عندما تزوجت، وهب حياته ونفسه لخدمة وطنه الغالي العراق الذي كان في ذلك الحين قد تعرض للاحتلال الأمريكي، فهو ذلك الفتى صاحب البنية القوية، الشجاع صاحب الميمنة والنخوة والشجاعة والشهامة، ذهب مقاتلاً، فدائياً نداه وطنه فلب النداء، ذهب متطوعاً في جيش المقاومة الوطنية وعاد شهيداً في سبيل الوطن والحرية وبهذا يمكن القول أن معاني الاسم اللغوية قد وجدت لنفسها طريقاً في شخصية همام الروائية داخل العبارة النصية من شجاعة وإقدام وهمة.

5- ناجية:

معجمياً هي السريعة، وقيل تقطع الأرض بسيرها والناحية النافقة السريعة تنجو بمن ركبها⁽²⁾ وقارئ رواية وجهان للعنقاء واحدة سيجد شخصية ناجية قد امتلكت صفات عديدة كالنافقة السريعة، فهي شخصية متعددة لها أكثر من صفة، حيث تنحصر في بداية الرواية بصفة الم حنون التي رعت أولادها ووقفت ولكنها عندما تأخرت ديمة في الإنجاب تدخلت وبدأت تلمح لها متى تنبت ومتى نرى الزرع وأصبحت تلومها على هذا التأخر في الحمل، فهي لم تكن تعلم بأن ديمة مريضة بمرض "قصور القلب" حتى أرغمتها على الحمل والولادة، فكانت توجه لها العديد من الأسئلة وأحياناً تقسو لهجتها معها "ماذا ديمة؟ أمك تأخرت في الحمل الأول؟ سلالكتن خصبة أو مجدبة؟ أنت تحبين الأولاد أم لا؟ ألم يقل لكي

(1) الرواية، ص 36.

(2) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ص 306.

مازن عليك الإنجاب له دزينة أولاد؟⁽¹⁾ وفي بعض الأحيان كانت تهاجمها بالكلام القاسي "كنتي عاقر مسكينة مقطوعة النسل" حتى هديتها بأنها ستجلب لمازن امرأة أخرى تنجب له وإن كلفها ذلك عمرها كله⁽²⁾. وكانت تخفي عنها جبوب منع الحمل، وعندما أصبح الضغط أكثر على ديمة و تحولت حياتها إلى جحيم فوق الاحتمال غامرت بحياتها حتى تتخلص من نقيق أمه، فهي من دفعها إلى الحمل والموت.

6- مسلم:

من مُسَلِّمٍ ومُسَلِّمة، والمسلم من صدق برسالة محمد صل الله عليه وسلم وأظهر الخضوع والقبول بها⁽³⁾. فقد ورد في المتن الحكائي أن شخصية مسلم الأب الحنون الذي يحب ابنته الوحيد المدللة ولا يرفض لها أي طلب، فهو لم يرزق بالأولاد في بداية زواجه إلا بعد مرور خمسة وعشرين سنة بعد فقدانه الأمل، وقبوله بالأمر الواقع، وكذلك خضوعه وتقبله لرفض ابنته الزواج من الشخص الذي اختاره لها والقبول باختيارها لطريق حياتها إنه مسلم بآراء الوحيدة ومسلم في حياته إذ آخر الانتظار خمسة وعشرين سنة، فاسم الشخصية دال على صفاتها.

3- البناء المورفولوجي للشخصيات:

تطرق الراوي إلى كوكبة من الشخصيات ليرسم بشكل مسهب ملاحظها، فلم يترك وجها ولا فما ولا عينا ولا قاما إلا وأضفى عليها أولانا تبرز تضريسها الدقيقة وتمايزها فيما بينها، وهي بهذا التقريب المادي والجسدي تساعدنا في العملية التخيلية لاستحضار هذه الشخصيات وإعطائها صفة إنسانية ذلك أن للرواية قدرة خاصة على جعل شخصياتها

(1) الرواية، ص 92.

(2) الرواية، ص 92.

(3) الرواية، ص 94.

مقبولة كأنهم أشخاص واقعيون يخوضون تجربة معاشة أو يمكن أن تعاش⁽¹⁾. هذه الواقعية المضافة على التجربة المعاشة بشخصها تتفاعل معها، وتبادر بتصديق كل ما يصدر عنها وهذا لا يتحقق إلا بتلمس الحيز الذي تتعرض فيه الملامح الجسمية والمظاهر الخرجية للشخصيات، ففي هذا الوصف الظاهري، يتصرف المؤلف إلى رسم الصورة الخارجية للشخصية، بكل مكوناتها الهندام، الهيئة، العلامات الخصوصية، وما إلى ذلك⁽²⁾ وما تجدر الإشارة إليه هو أن المؤلف لم يعتمد الوصف المباشر للبيئة الخارجية لشخصياته، وغنما هناك حالات دالة عليها مشتتة ومثبوتة هنا وهناك، ذلك أن القارئ يظل في عملية استكمال رسم الشخصيات التي تأهل بها الرواية إلى آخر صفحة منها وانطلاقاً من هذا التسليم بولادة الشخصية في كل لحظة ومخاضها على مدار الصفحات الرواية تتبع مراحل نموها وبداية لتأمل كيف كان البناء الخارجي للشخصية المحورية وهي شخصية "ذيمة" التي صورها الراوي في وعي القارئ كالاتي:

- ضعيفة، نحيلة، تميل إلى الكسل والراحة⁽³⁾
- وجهها ذو بشرة بيضاء ناعمة⁽⁴⁾
- حين ذاك بدا عبوسي، لي عنقي، أطرافه رأسي⁽⁵⁾
- في قلبي ذلك الدر وجدت نفسي⁽⁶⁾.

وأول ما ينطبع من هذه الأوصاف المشتتة لا يكاد يحدد الملامح الدقيقة والبصامة لهذه الشخصية المحورية البطلة، وهذا ما يجعل القارئ يعيش المفارقة بين شخصية فاعلة

(1) حسن البحراوي، بنية الشكل الروائي، الفضاء، الزمن الشخصية المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، لبنان، 1990، ص

300

(2) ابراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي، دراسة تطبيقية، دار الآفاق، ط1، الجزائر، 1999، ص10.

(3) الرواية، ص66.

(4) الرواية، ص7.

(5) الرواية 10.

(6) الرواية، ص12.

امتدت سطوتها الوجودية على مدى صفحات الرواية ولم يستطع في الآن نفسه أن ينقص ملامح من جل الرواية، وفي هذا المك يتأرجح بنا الرأي نحو الراوي في محاولته اقحام القارئ في عملية خلق لشخصيته وبالتالي اعطائه فرصة لتخيل هذه البطلة فقد يستطيع القارئ المندمج مع أحداث الرواية أن يجعل من ملامحه بطلا لا يتكرر بذاته بقدر ما يتكرر في ذاته (القارئ).

أما "مازن" فهو شخصية المثقف التي أحسن الراوي رسمها والتي نحاول تطويقها كما يصورها الراوي:

- "هو فتى جميل.....حنطي اللون".
- "وجنتاه مشربتان بالحمرة، مائل إلى الطول"⁽¹⁾.
- "رشيق، أهيف قوي البنية يحمل وجهه سيمياء الرجولة كلها"⁽²⁾.
- "وجهه ضحاك، ثغرة باسم، ابتسامة الأولى تلك وهو يستغرب قلبي..."⁽³⁾.

يقر الراوي بجمال "مازن" وثقافته ورجولته، فهو ذلك الشاب الشهم، صاحب المروءة⁽⁴⁾.

ومن خلال هذه الأقوال يمكن القول أن شخصية مازن تتلخص في الصفات التالية: (الفتى الجميل، حنطي اللون، المائل إلى الطول، قوي البنية، يحمل سيمياء الجولة، ضاحك، صاحب المروءة) وبالتالي فقد أحسن الراوي تصويره. ويأتي ابن العم "همام" الشخصية الضد والمناوئة لشخصه "مازن" وقد وصفها الراوي كما يلي:

(1) الرواية: ص 10 و 11.

(2) الرواية، ص 12.

(3) الرواية، ص 13.

(4) الرواية، ص 10.

- "جسده رياضي، بنيته قوية"⁽¹⁾.

- "كتفيه العريضتين وعضلات ذراعية".

- "ابتسامة تشق وجهه حتى الأذنين"⁽²⁾.

يشعر القارئ أن الراوي جمع صفات همام في هيئة القوة والابتسامة والاختراق العلمي وهذا ما يجعل منه شخصه مساعدة لها الدور الفعال لتكون الوجه الآخر للعنقاء في حين يزيد الوجه الأول بالمروءة والحب والثقافة والعلم إنهما شخصيتان متكاملتان.

وأما شخصية "أم مازن" التي يقدمها النص الروائي بأنها.

- امرأة متشددة، قوية قليلا تحب السيطرة قليلا⁽³⁾

- دمثه لطيفة الجانب، قريبة إلى القلب، حسنة المعشر، بل لحديها مذاق العسل.

- فلسانها طلق ذاكرتها ملاً بقصص وحكايات⁽⁴⁾.

إن أم مازن شخصية لها من التشدد والقوة وحب السيطرة، والعطف وقوة الذاكرة، ما يخولها تساهم في بناء شخص متعلم، مثقف، لطيف كمازن.

وبناء على ما تقدم تبدو الشخصيات شحيحة الملامح ويحتاج تحليلها عند القارئ جهداً وقتاً ليستكمل الصورة، فهذه الصفة يجمع شتاتها من بين طيات الصفحات وفي عرض الأحداث ولعل في ذلك اعتماد فرضية تقول بأن الشخصية المتروكة بدون وصف أو تميز أن تكون أكثر حضوراً في الرواية من الشخصية الموصوفة بوضوح تام⁽⁵⁾ وتظهر وجهة

(1) الرواية، ص 7.

(2) الرواية ص 36.

(3) الرواية، ص 13.

(4) الرواية، ص 34.

(5) حسين البحر، بنية الشكل الروائي، مرجع سابق، ص 227.

هذه الفرضية تأسيسا على ماسبق من خلال قلة العلامات في حصيلة الشخصية التي تكسبها كثافة حضرية في ذهن القارئ.

ويجعلها قابلة للتعبئة القرائية دلالتها، ذلك أن القارئ ليس واحد والدلالات لذلك متباينة مستقاه من مرجعياته المختلفة، وعليه تتنوع وتتعد أوجه الشخصيات بتعدد القراء واختلاف وجهات نظرهم.

3/1- الشخصية وزوايا رؤية الراوي:

تشكل البنية السردية للخطاب من تضافر ثلاث مكونات هي: الراوي، والمروي، والمروي له، (الراوي) هو الشخص الذي يروي الحكاية أو يخبر عنها سواء كانت حقيقة أو متخيلة، ولا يشترط أن يكون فيه اسما معينا، و(المروي) هو كل ما يصدر على الراوي، وينظم لتشكيل مجموع من الأحداث تقترب بأشخاص ويؤطرها فضاء من الزمان والمكان وأما (المروي له) هو الذي يتلقى ما يرسله الراوي⁽¹⁾.

ذلك أن الروائي لا يتكلم بصوته، ولكنه يفوض روايا تخليا يتوجه إلى قارئ وهذا الراوي هو الأنا الثانية للروائي وقد يكون شخصية من شخصيات الرواية والمهم هو التمييز بين الروائي والراوي فالروائي هو الكاتب خالق العالم التخيلي وهو الذي يختار الراوي وهو لا يظهر ظهورا مباشرا في العمل الروائي، وأما الراوي فهو أسلوب صياغة أو أسلوب تقديم المادة القصصية أو قناع من الأقنعة العديدة التي يتخفى الراوي خلفها في تقديم عمله السردية⁽²⁾.

إن الراوي هو الحجر الأساس في المعمار القصصي، فلا يمكن للقصة وجودا إلا به سواء روى مباشرة بلسانه في نص القصة أو من خلال شخصية قصته ويملك من القصيدة ما يمنحه الفاعلية الأكيدة في السرد وزوايا الرؤيا، إذ تجمع الدراسات الحديثة أنه في كل عملية

(1) محمد عزام، شعرية الخطاب السردية، ص 83. وينظر: حميد لحميداني، بنية النص السردية، ص 45.

(2) محمد عزام، المرجع السابق، ص 84.

سردية راو عالم بكل شيء يتحكم بشكل أساسي في تقديم القصة والتعبير عن أفكارها ومشاعرها وأحاسيسها⁽¹⁾.

ويعرف (Booth) زاوية الرؤية أنها "مسألة تقنية ووسيلة من الوسائل لبلوغ آيات طموحة" وهي متعلقة بالتقنية المستخدمة لكي القصة متخيلة وأن الذي يحدد شروط اختيار هذه التقنية دون غيرها هو الغاية التي يهدف إليها الكاتب عبر الراوي، وهذه الغاية لا بد أن تكون طموحة أي تعبر عن تجاوز معين لما هو كائن، أو تعبر عما هو في مكان الكاتب ويقصد من وراء عرض هذا الطموح التأثير على الروي له أو على القراءة بشكل عام، وللراوي علاقة بما يروي فجاءت كيفية ما يرون دلالة على رؤيتهم، ولجؤوا إلى تنويع الراوي في العمل الروائي الواحد والرواة ثلاث أنواع⁽²⁾:

أ- الراوي العالم بكل شيء عن عالم الشخصية:

ويعني هذا السلوك السردى أن الرؤية تكون من الخلف، إذا الراوي فيها يكون بصدد معرفة كل الدقائق والجلائل عن شخصياته والشخصيات في هذه الحال تكون قاصرة لا تعرف شيئاً عن مصيرها من حيث يعرف الراوي عنها كل شيء، ولهذا من الشكل من التصور درجات مختلفة إذ يجوز أن يتجسد تفوق السارد على الشخصيات أما في معرفة الرغبات الكامنة لشخصية ما، وإما في معرفة متزامنة لأفكار جملة من الشخصيات وإما في سرد الحوادث التي لا تقوم بها شخصية واحدة⁽³⁾. ونجد ذلك في:

- "تفضلي يا آنسة!! قال الشاب ماذا يده بالحقيقية، وهو ما يزال ينصب عرقاً وتتقطع أنفاسه لهاثاً"⁽⁴⁾.

(1) بنحوش علي، منشورات قسم الأدب العربي، بسكرة، الجزائر، العدد 4/، 2008، ص 168.

(2) حميد حميداني، مرجع سابق، ص 46.

(3) عبد المالك مرتاض، تحليل الخطاب السردى، ص 192.

(4) الرواية، ص 07.

- "هذه المرأة أحبها، فهي رغم كل ما فيها من صفات تظل ذمته لطيفة"⁽¹⁾.

يظهر الراوي هنا بأنه هو الروائي فيروي بضمير (هو، هي) وهذا يعني أنه روا غير حاضر، لكن الراوي يتدخل في سرده، عن طريق الشخصيات الأخرى لئلا يكتشف تدخله المباشر، وهذه المسافة بين الكاتب وشخصياته تعادل قدرة الكاتب على إبداع شخصيات حية قادرة على النطق بصوتها لا بصوت الكاتب وبغيا ب الراوي، الظل الفني للكاتب، ويتقدم الكاتب بضمير (هو) أغزل من تقنيات السرد وفنيته، يصبح العمل السردى أحيانا مجرد إخبار أو نقل حوادث أو سرد حكاية تفتقر إلى المصدقية التي يولدها الفن حتى في واقعية⁽²⁾.

ب- الراوي لا يعلم إلا تعلمه الشخصيات:

فهو الراوي الذي لا يتجاوز حدود الشخصيات في الرؤية، فإذا فعلت الشخصية فعلا أو اتصفت بصفة فإن الراوي يقدم فعلها أو صفتها.

ويمكن تحديد الراوي الذي يعلم إلا ما تعلمه الشخصيات في شكلين، الأول "أن يكون الراوي مشاركا في أحداث الرواية أو شاهدا عليها، الثاني" أن يتخذ من إحدى الشخصيات، أو من أكثر من شخصيته مرآة تعكس الأحداث، وهي رؤية تستوي بين الراوي وشخصياته، كأن يعرف سرا أو حيلة أو هجاسة أو حافزا، أو دافعا أكثر من سواء⁽³⁾، ويتحدد ذلك فيما يلي:

- وكنت كثيرا ما اتساءل عن مخلوقات البشرية، كيف نتكون، ننمو ونكبر⁽⁴⁾.

- لكنني كنت عازمة وكان علي أن ما عزمت عليه حتى النهاية فلم تكن الحالة تجديدا من الرضوخ لرغبته⁽⁵⁾.

(1) الرواية، ص 14.

(2) الرواية، ص 34.

(3) محمد عزام، مرجع سابق، ص 88.

(4) الرواية، ص 08.

(5) الرواية، ص 29.

- إذن أنا الجديرة بالحرية والاستقلال⁽¹⁾.

فمعرفة الراوي تتساوى بقدر ما تعلمه الشخصية، عندما يستخدم الراوي الضمير المتكلم (الأنا)، فالبطل يروي قصته، ذلك أن الراوي هو من المتكلم في زمن الحاضر عن بطل كأنه هو الراوي، وقد وقعت أفعال في زمن مضى، أي لئن كان الراوي هو البطل، فإن ثمة مسافة زمنية بين مكانه وما صاحبه أي بين البطل الشخصية في زمن الماضي والراوي، في زمن الحاضر، وعليه لا يعود الراوي هو (البطل) وليست الرواية (سيرة ذاتية) بل هي سرد يستخدم تقنية الراوي بضمير الأنا، ليتمكن من ممارسة لعبة فنية تحوله الحضور وهذه المسافة التحول والانتقال لشخصه وهي مسافة محددة بمدة من الزمن، وبأحداث جرت، لو لا ذلك لما كان من سبب يدفع لأن يروي عنه نفسه.

ج- الراوي الذي يعلم أقل مما تعلمه الشخصيات:

ويقصد بها كذلك الرؤية من الخارج، ولا يعرف هنا الراوي في هذا النوع إلا القليل ما تعرفه إحدى الشخصيات الحكائية، والراوي هنا يعتمد على الوصف الخارجي، أي وصف الحركة والأصوات، ولا يعرف الراوي إطلاقاً ما يدور في خلد الأبطال، سواء أكان هذا الراوي واحد من شخصيات الرواية، أو من المشاهدين⁽²⁾ ويتحدد ذلك كالاتي:

- أنت لم تخف حبك يوماً لي، ولم تبطن تعلقك بي.....⁽³⁾.

- أنت الذي وجدت نفسك في مهمة ضاعت فيه الاتجاهات.....⁽⁴⁾.

(1) الرواية، ص 31.

(2) ينظر: حميد حميداني مرجع سابق، ص 48.

(3) الرواية، ص 40.

(4) الرواية، ص 65.

- فأنت عاشق الرياضة، هاوي كرة القدم، لم تكن تخط حيث تنط، ولم يكن أحد يراك، وأنت راكض أو لاعب⁽¹⁾.

- إذ كنت أسرع مني إلى...ألقيت بنفسك في الماء....أذكر...⁽²⁾.

الراوي هنا يروي من الخارج فهو الراوي غير حاضر، فهو يستخدم ضمير "المخاطب" لا يعرف، ولهذا نراه يبحث عن وسائل تخوله رواية ما يروي، ودون تدخل منه والروائي هنا يروي على مسافة بما يروي، فيبقى خارج ما يروي، إذ أن ما يروي من أحداث لم تقع في حضور فهو ليس شاهدا على ما يروي، وإنما يرى ما يروي الآخرون وما سمعه منهم، وهو يتحاشى تحليل ظاهرات التعبير النفسية التي تبديها بعض الشخصيات، أو التي ترسم على الوجوه أو تظهر في السلوك، فلا يدعى النفاذ إلى دواخل النفوس⁽³⁾.

4- الحوار وفاعليته في إبراز الشخصية:

الحوار هو إحدى الصيغ التعبيرية التي يعتمد عليها الروائي في صياغة ورائية وعلى الرغم من أن الحوار يشغل حيزا أقل مما يشغله السرد والوصف والحوار الضروري للكشف عن الشخصيات، فمن طريقة يتم سيرا أعماق الشخصيات الروائية، والكشف عن كيانها النفسي، وتركيبها الفكرية، ويقوم الحوار أيضا بدفع الحدث في الرواية إلى الأمام، من خلال إظهاره لاختلاف نظرات الشخصيات إلى الأحداث⁽⁴⁾.

كما يعتبر تقليد المواقف "المشهد" لما يلجأ الراوي يلجأ الراوي إلى إعطاء الكلمة للشخصيات ذاتها أي مقاطع الحوارية التي غالبا ما تكون ثنائية⁽⁵⁾.

لقد أولى الناقد الروسي (باختين) الحوار اهتماما كبيرا فبانطلاق من ان الرواية تنوع كلامي وأحيانا لغوي واجتماعي منظم فنيا وتباين أصوات فردية والاستناد إلى أن

(1) محمد عزام، مرجع سابق، ص 90.

(2) محمد عزام، مرجع سابق

(3) الرواية، ص 66.

(4) محمد رياض وتار، شخصية المتفق في الرواية العربية السورية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000، ص 178.

(5) ابراهيم صحراوي، تحليل خطاب الأدبيين، ص 113.

الشخصيات ليست مجرد موضوع يخص وعي الكاتب بل هو موضوع آخر غريب، حيث خلص (باختين) إلى أن الشخصية في الرواية لا تكف عن التحوار مع ذاتها ومع أن الشخصيات الأخرى لأنها تسعى إلى معرفة ذاتها بالنسبة إلى الآخر ولا يمكن أن تصل إلى مبتغاها هذا إلا عن طريق الحوار ومن ثم نوعان للحوار هما:

أ- الحوار الخارجي: (الديالوج):

هو حوار الشخصيات بعضها مع بعض وهو الأقدم والأكثر انتشارا في الرواية العربي، والحوار الخارجي يكثر في الروايات ذات الأصوات المتعددة، ويساهم الحوار الخارجي في إبراز الشخصيات للكشف عن الملامح الفكرية للشخصيات، وتحديد مواقفها من أحداث الرواية ومن القضايا الاجتماعية والسياسية التي تطرحها أحداث الرواية لذا يجب أن يكون الحوار معبرا عن المستوى الفكري، والموقع الاجتماعي للشخصيات⁽¹⁾.

حيث رصد "عبد الكريم ناصيف" حوار مطولا دار بين مجموعة من الشخصيات بين ديمة وأبوها ومازن الطيب عند اكتشافهم لمرضها، وند ذلك فيمايلي:

- قصور القلب؟ تساءل مازن وهو يقف إلى جانب الطبيب، كأنما العبارة لا تعني له شيئا.... ما يعني قصور القلب؟.
- هي تعلم، رد الطبيب مشيرا إلي، السؤال الآن..... أكنت تعلمين بمرضك هذا من قبل؟
- هززت رأسي بالإيجاب دون أن أتكلم، محاذرة النظر إلى مازن أمله كل الأمل ألا يعرف شيئا عن الأمر هو أمرا خطيرا، أيتها القابلة القانونية وأنت تعلمين ذلك فكيف تريدني أن أسكت عنه خطير؟ تسكت عنه؟ ما الأمر دكتور؟ قلي....

(1) محمد رياض / مرجع سابق، ص 178.

- ما الذي أقوله لك مازن؟ حياتها مهددة بالخطر، در مشيرا إلى بل حياة جنينها مهدد بالخطر: در مشير إلى بل حياة جنينها مهددة بالخطر أيضا لكن لماذا؟ كانت على خير ما يرام فما الذي حدث؟

- هو خطير إلى هذا الحد، هتف مازن بصوت قطع كل حبل شرودي⁽¹⁾.
لقد ساهم هذا الحوار في تقديم تفعيل الشخصيات، فهو أسلوب يلجأ إليه الكاتب لتقديم شخصياته في الرواية في حالة حوار مباشر وابرار ملامحها الفكرية وكذلك ابراز دورها في المتن الحكائي، الأمر الذي سيصل بطريقة أو بأخرى للقارئ.

ب- الحوار الداخلي المنولوج:

يجري المنولوج داخل الشخصية، ومجالسة النفس أو باطن الشخصية ويقوم بادخال القارئ إلى الحياة الداخلية للشخصية دون تدخل وينطوي تحت هذا النوع متعددة من الحوارات التي ترتبط فيما بينها من جهة أنها تجري في داخل الذات تختلف من حيث البنية ومنها الحوار الداخلي المباشر والغير المباشر ومناجاة النفس⁽²⁾ وتضمنت رواية "عبد الكريم ناصيف عدد من الحوارات الداخلية التي جاءت منسجمة مع طبيعة الشخصيات، وما عرف عنها من ميل شديد إلى الغوص في الذات والبحث عن المستحيل المطلق والتهويم في الفراغ، وقد استغل ناصيف الحوار الداخلي ليكشف عن الآثار التي تركتها الأحداث في نفوس شخصيات الرواية⁽³⁾ وتضمنت الرواية محادثات داخلية في نفوس الشخصيات وذلك كالآتي:

"كنت أنا مطرقة حزينة دامعة العينين، أوئنب نفسي كأني الحصار المحكم الذي ضربوه حولي... تذكرت ما قلته لنفسي حين ذاك، استسلم حين من الزمن فقط، ورحت

(1) الرواية، ص 78.

(2) محمد رياض وتار، المرجع السابق، ص 183.

(3) المرجع نفسه، ص 184.

أقلب الفكر بطننا لظهر وظهرنا لبطن أين طريق النجاة كيف تجددين الهرب يا ديمة؟ وكان ذلك السؤال الوحيد الذي دار في ذهني لكن بماذا عساه يفكر الأسير⁽¹⁾.

لقد حاولت ديمة الغوص في أعماقها في باطنها لإيجاد الحل للهروب من الواقع الذي رفضت أن تعيشه لهذا لجأت للغوص في ذاتها والبحث عن الحل المستحيل والتوهم في الفراغ، ومناجاتها لنفسها.

إن الغاية من وراء توظيف الحوار، هو التخفيف من حدة أحادية الرواية أو وجهة نظر الراوي العالم بكل شيء والمسير لشخصياته مجرية تامة⁽²⁾، ليحمل قارئه على التعرف بكل المستجدات والقضايا الواقعية التي تحصل في بقاع العالم العربي.

ثانياً: سيمياء شخص الراوي في قصة "شاهد رأى بقلبه" للقاص علي زغينة توطئة

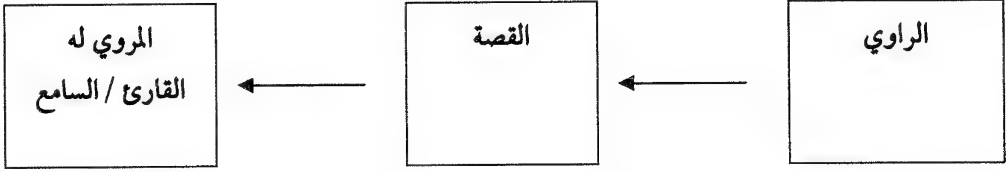
القصة القصيرة ظاهرة سردية كلها جاذبية وإغراء، وقد تساءل الناقد د/ خالد أبو الجندي عن سبب ذلك، وأورد الإجابة في مقدمة المجموعة القصصية لعلّي زغينة المعنوية المحاكمة: «لأنها فن يشبه اللوحة تتوافر على سر جمالها، ولا تفرط به بسهولة، بل إنها لا تفرط به أبداً، والقارئ المتذوق يقف عند آخر كلمة في هذا النموذج أو ذاك من فن القصة القصيرة، محاولاً اكتشاف سر جماله ليتذوقه ويشرك غيره في تذوقه، فيرتد إليه رأيه مبدئياً أسفه ذلك أنه لم يجد هذا الأمر ميسوراً»⁽³⁾ لأن القصة لا تتحدد فقط بمضمونها، ولكن أيضاً بالشكل أو الطريقة التي يقدم بها ذلك، كما لا تكون مميزة فقط بمادتها، ولكن أيضاً بواسطة هذه الخاصية الأساسية المتمثلة في أن يكون لها شكل ما، يمكن أن يكون لها بداية ووسط

(1) الرواية، ص 47.

(2) إبراهيم صحراوي، مرجع سابق، ص 114.

(3) علي زغينة، المحاكمة (مجموعة قصصية)، الجاحظية، الجزائر، ص 04.

ونهاية⁽¹⁾، أثناء روايتها من قبل الراوي، ومن يحدد ذلك هو المروي له قارئاً أو سامعاً. وعليه قامت مظاهر الخطاب السردى أسلوباً وبناء ودلالة، والتي نجدها موضوع السردية كلها:



وعليه تساؤلنا في هذه الدراسة على إحدى قصص الدكتور علي زغينة، كيف كان تشكل الراوي؟ وما هي الزوايا التي خلقها لرؤيته، أثناء سرد قصة "شاهد رأي بقلبه"؟

1- دلالية الراوي في "شاهد رأي بقلبه"

الراوي هو حجر الأساس في المعمار القصصي، فلا يمكن أن يكون للقصة وجوداً إلا به: سواء روى مباشرة بلسانه في نص القصة، أو من خلال شخص قصته، وهو في الحالتين تقنية ولها كينونتها الإلزامية (الحتمية)، في الهندسة القصصية، ويملك الراوي من القصص ما يمنحه الفاعلية الأكيدة في السرد وزوايا الرؤيا؛ إذ تجمع الدراسات الحديثة، أنه في كل عملية سردية راو عالم بكل شيء، يتحكم بشكل أساسي في تقديم القصة: وصف الأماكن- وسرد الأحداث- وتقديم الشخص- ونقل كلامها- والتعبير عن أفكارها ومشاعرها وأحاسيسها- وعرض وتحليل صراعاتها- والعمل على مزج كل هذا برؤيا لا تتجسد إلا من خلاله، فلا وجود لأحدهما دون الآخر.

وعليه، فلقد توقفت قضية الرؤى عند الراوي على وجه الخصوص وطبيعة العلاقات المتشابكة والمتداخلة بينه وبين الرؤية⁽²⁾، هذه الأخيرة التي اعتبرت "المسألة التقنية، أو إحدى وسائل الراوي لبلوغ غايات طموحه، وتجب المعرفة أن من يحدد شروط اختيار هذه التقنية دون غيرها، هي الغاية التي يهدف إليها الكاتب عبر الراوي، وهذه الغاية لا بد أن

(1) حميد حميداني، بنية النص السردى من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء، ط3، 2000، ص 46.

(2) عبد الله إبراهيم، المتخيل السردى، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 1999، ص 61.

تكون طموحة، أي تعبر عن تجاوز معين لما هو كائن، أو تعبر عما هو في إمكان الكاتب⁽¹⁾، إنها تعود (رؤيا راوي) بشكل أو بآخر للمؤلف، لأنه من بداية النص إلى نهايته نصغي إلى صوت فريد ينقل لنا ما يراه، وما يقوله وما يسمعه، كما ينقل لنا ما يريده وما ينجشاه وما يذكره.

ويتلأأ الراوي دلائليا في قصة "شاهد رأى بقلبه" للقاص "علي زغنية" على شاكلة رؤى متعددة، بإعتباره الصوت الفريد، الذي برز في القصة بضمير المتكلم بشكل غائب ولعل من أجل إبراز هذه الدلائلية للراوي في قصة علي زغنية ارتأينا أن نتبع تصنيف فريد مان لأشكال الراوي، والتي قام بعرضها كل من لينفلت (J.Lintvert) في سبعة أشكال لتصنيف رسوم غيون (R.Guyon) شكلا ثامنا: (الراوي ذو المعرفة المطلقة، الراوي ذو المعرفة المحايدة، الأنا الشاهد، الأنا المشارك، المعرفة المتعددة، المعرفة الأحادية، النمط الدرامي، الكاميرا):

- 1- المعرفة المطلقة للراوي المرسل: وهنا نكون أمام وجهة نظر المؤلف غير المحدودة وغير المراقبة، وهو يتدخل سواء اتصلت تدخلاته بالقصة وأحداثها أو لم تتصل.
- 2- المعرفة المحايدة: وهذه الوجهة تختلف نسبيا عن الأولى، فالراوي هنا يتكلم بضمير الغائب ولا يتدخل ضمنا، ولكن الأحداث لا تقدم لنا إلا كما يراها هو، لا كما تراها الشخصيات.
- 3- الأنا الشاهد: نجد هذه الوجهة في روايات ضمير المتكلم حيث الراوي يختلف عن الشخص، وتصل الأحداث إلى المتلقي هنا عبر الراوي، لكنه يراها أيضا من محيط متنوع.
- 4- الأنا المشارك: تختلف هذه الوجهة هنا عن سابقتها؛ لأن الراوي المتكلم هنا شخصية محورية.
- 5- المعرفة المتعددة: هنا نكون أمام أكثر من راو، والقصة تقدم لنا كما تحياها الشخصيات.

(1) حميد حميداني، بنية النص السردي، ص 46.

- 6- المعرفة الأحادية: عكس الوجهة الخامسة نجد هنا حضورا للراوي، لكنه يركز على شخصية مركزية وثابتة نرى القصة من خلالها.
- 7- النمط الدرامي: هنا لا تقدم إلا أفعال الشخصيات وأقوالها، أما أفكارها وعواطفها فيمكن تلمسها من خلال تلك الأقوال والأفعال.
- 8- الكاميرا: وتتميز هذه الوجهة بنقل شريحة عن حياة الشخصيات دون اختيار أو تنظيم⁽¹⁾.

ونشير هنا، إلى أن تصنيف "فريد مان" جاء مستوعبا وملخصا ومنظما لآراء سابقة، خاصة ما قدمه "بيرسي لوبوك" (P.Lobouk) في كتابه "صناعة الرواية"، والذي عد به لوبوك الواضع الأساسي لأحجار زاوية الرؤية⁽²⁾؛ إذ قام تصنيف "فريد مان" على درجة عالية من الموضوعية بين ما أسماه لوبوك العرض والسرد، في بناء وإرسال القصة، فتضمن الأشكال الثمانية السابقة الذكر، والتي سنحاول إبرازها بحسب بروزها في هذه القصة-قيد الدراسة- وذلك من أجل توضيح رؤى المؤلف علي زغينة من خلال رواية في قصته القصيرة "شاهد رأي بقلبه".

1- المعرفة المطلقة للراوي المرسل :

ونكون -هنا- أمام وجهة نظر المؤلف غير المحدودة وغير المراقبة ويبرز ذلك جليا في المقاطع التالية:

"الحكمة ضالة المؤمن، ونحن الآن كبرنا، وعلينا أن نكمل المشوار... الصغير صغير حتى يكبر، أما الكبير فممن أوله كبير، ولا مناقشة، أمر مفروغ منه، والمبادئ لا جدال من

(1) المرجع نفسه، ص 286.

(2) سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي (الزمن، السرد، التبشير)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 1997، ص

حولها ولا خلاف.... الحياة فن ومقامات..... والناس فيها منازل ودرجات.... كل في مكانه...⁽¹⁾.

الراوي في هذا المقطع، كان بعدا دلائليا للمؤلف (منشئ القصة)، الذي يتدخل بشكل غير مشروط، وهذا ما هو واضح في إدراج هذه الحكم من خلال الراوي حكيما إلى حد الفلسفة، ليرز لنا إترانا، وتعبيرا عن المجتمع الذي يحيا فيه، باعتباره عين المؤلف في القصة، وشاهدا يرى بقلبه، ولا يملك إلا أن يعبر بقلمه، من خلال رؤى راوية على مظاهر حياته، وجدها في دشرته التي لم يزرها إلا بعد أن تحولت إلى مدينة:

"المدينة" كنت من سكانها ذات يوم بعيد، حين كانت مجرد (دشرة)، ليست لها بعد مواصفات القرية، ولا كانت مؤهلة لأن تغدو مثلما هي اليوم... مدينة كبيرة... تزخر بالمصانع والإدارات، والمباني والمؤسسات، والورشات والمحلات.....⁽²⁾، وهذه المظاهر تطورت بشكل سلمي، أوصل المؤلف إلى هذه الحكمة التي أراد أن يمررها بأسلوب كله حيرة وتساءل إلى المرسل إليه، فما القصة في النهاية إلا كلام، لها واهب تصدر عنه ومرسل إليه، يمثل مألها فلا تخلو أي قصة من هذه العناصر: (راو، ومروي له (قارئا كان أو سامعا)). ويتعالى صوت التساءل المطلق للأنا الراوية:

"... لكن ما وجدت للذي كان تفسيرا... الأمر يبعث على الحيرة والناس طبعوا على خلق غريب.... إذا كنت حيا قتلوك، ولا تأخذهم بك رحمة.... الروح عندهم كإغتيال ذبابة أو دعس بعوضة.... إسألني وأنا أخبرك... فأما إذا تجاسرت فنطقت، ازوروا عنك، وقد يسخرون منك إذا.... فإذا أنت أصررت على شيء قاوموك حتى تلين قناتك أو يحطموك.... أما إذا قيس لك ولم تطلق أيديهم، أو أحسوا باليأس منك... عجزا أو خوفا، تراجعوا، فهم يلحقوا بك، واكتفوا بمتابعتك من بعيد، وألستهم تلهج بالإعجاب أو بالسباب... وبكل شيء، وكل شيء"⁽³⁾

(1) المرجع نفسه، ص 286.

(2) المرجع نفسه، ص 27.

(3) المرجع نفسه، ص 32-33.

شهادة من يرى بقلبه، وكأنه يملك الحقيقة، وذلك برز في قوله: أسألني وأنا أخبرك "هذه العبارة التي جاءت مكررة عدة مرات للتأكيد، وقد أراد الكاتب أن يمررها للمروري له من خلال رؤيا الراوي، مما يعني إفصاح المجال لسيطرة لغة واحدة هي لغة المؤلف (صوته الخاص به)، فتظهر رؤيته الفكرية جلية بارزة بينة، والتي تنبع من ظروفه الاجتماعية والنفسية والثقافية، والمرحلة العمرية التي يعيشها.

2- الأنا الشاهد:

نجد هذه الوجهة في البروز القوي لضمير المتكلم، فكان الراوي القاص المتكلم شخصية محورية في هذا المستوى فالأنا هنا (الشاهدة والمشاركة) نوع من الوعي الكلي الجماعي، أو هي الخالقة التي تبدع كل شيء، وهي (المؤلف) لذلك تحيط بالشخصيات علما من الداخل والخارج معا، ولا تمتزج بأية واحدة منها، إنها المؤلف نفسه⁽¹⁾، وعلى القارئ التعمق فيها وإستشفافها لتتضح الرؤيا، وقد برز المزج بين الأنا كشاهد وكمشارك في تقانة الراوي، وزوايا الرؤيا التي يمارسها في القصة، في رحلة بحثه عن الحقيقة الماثلة الضائعة الكل هارب إذن... إلى الأمام... من نفسه، ومن الناس... ومن الحقيقة... و... غاب عن الجميع أنهم تجاوزوها مثلما فاتهم أن يروها، وإن لم يغيب عنهم الإحساس بوجودها بين ظهر أيتهم!!... أما أنا أنا المتحدث فقد وجدتها... بأخرة المطاف... عدت من حيث بدأ الآخرون... صدقوني... لم أكن أعلم ولا كنت تحت تأثير الهلوسة... بل في تمام الوعي كنت... حواسي كلها متيقظة... رأيها بقلبي وتفحصتها بعيني في مساء ذلك اليوم، قابعة في ركن مهممل...⁽²⁾.

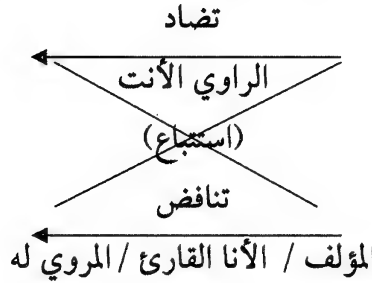
هكذا حال الحقيقة، التي رأى المؤلف من الواجب طرحها وعدم كتمانها في هذه الشهادة ضمن هذه المحاكمة العلنية، شهادة نعجز عن تصنيف العنصر الإنساني المحقق لها، هل كانت رؤيا القلب أم العين أم العقل؟ التي رأها علي زغنية، وأراد إيصالها إلى المتلقي.

(1) صلاح فضل، النظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1980، ص 431.

(2) المجموعة، ص 33.

ويفصف الكاتب حال القلب الذي سيري، وسيشهد في هذه المحاكمة بنبرة كلها حكمة وفلسفة على من قست عليه الحياة: "العين عدسة كبيرة، والأذن رادار ضخمة، والقلب... آه من!... صهريج يتلظى... والأنفاس سحابة من دخان كثيف...⁽¹⁾".

وعليه، فعلاقة الراوي بالمؤلف تتذبذب قربا وبعدا، وصورة القارئ، الباحث عن دور الراوي هنا لا تنطبق على شخص معين، بل تأخذ نفس العلاقة المرنة المذبذبة، وكلتا الصورتين تتوقف على الأخرى، فكلما أخذت صورة الراوي تتضح بدقة أخذت صورة القارئ تكتب معالمها كذلك، وهاتان الصورتان لازمتان لأي عمل إبداعي، ووعينا بأننا نقرأ قصة، يدفعنا لأن نلعب هذا الدور للقارئ المتخيل، ويدفع الراوي لأن يبدو لنا كمن يحكي هذه القصة المتخيلة أيضا، فلا بد للأنثى والأنثى من أن يظهر معا، في علاقات متنوعة:



ونعمل - هنا - على إضافة عنصر نراه يدخل تحت هذه الرؤيا المشاهدة والمشاركة للراوي، في هذا المستوى، قبل إكمال تقسيم فريد مان.

3- الراوي والمؤلف:

باعتبار أن القصة كلام تصدر عن واهب، طرح التساؤل من هو واهب القصة؟ وقد قدمت لهذا السؤال إلى حد الآن ثلاثة احتمالات:

أولها: أنه شخص (بالمعنى النفساني) ذو إسم، هو الكاتب فما القصة بهذا المعنى، إلا تعبير عن "أنا" خارج منها، يقول صلاح فضل: لا إن خالق القصة هو المؤلف، هو هذا

(1) المرجع نفسه، ص 32.

الشخص بالذات المسمى بكذا، والذي يمكك بالقلم ويكتب قصة كذا، ومن هنا يجيء الخلط بين شخص المؤلف وفنه الذي لا يعتبر في هذه الحالة سوى تعبير عن "أنا" أو عن الذات الخارجة على القصة والمستقلة عنها⁽¹⁾.

وقد حاول صلاح فضل من خلال هذه المقولة أن يفسر الاحتمال الأول مع عرض هذا الاختلاط بين شخص المؤلف وراوييه، وهي قضية تنبه إليها النقد الأدبي الحديث، واعتبرها مغالطة، وقع فيها النقد وخاصة مجال السرديات، عندما طابقت بين (المؤلف) والشخصية القصصية هذه الشخصية العامة التي هي نتاج عمل تألوفي تخيلي، إنها كائنات من ورق تتجسد لتتخذ شكلا دالا من خلال اللغة، وهي ليست أكثر من قضية لسانية⁽²⁾، بكل قوانينها وأنظمتها وقواعدها، إذ اعتبرت لسان حال المؤلف أو الشخصية البديلة عنه، وقد تجلّى هذا أكثر ما يكون في القصص المروية بضمير المتكلم وهذا ما وجدناه في قصص و روايات الاعتراف، والسيرة الذاتية.

وهذا الخلط عند البعض أعاق فهم الشخصية، التي هي ليست المؤلف، وإن عكست جانباً من جوانبه، لأنها محض خيال يبدعه المؤلف لغاية فنية، فما الشخصية وعلى رأسهم الراوي إلا قضية لسانية يجردها الكاتب من بعدها الدلالي، ليسد إليها وظيفة، تجعلها فاعلاً في العبارة السردية.

يقول رولان بارث (R.Barthe): "إن الذي يتحدث (في القصة) غير الذي يكتب (في الحياة)، والذي يكتب غير الذي يعيش"⁽³⁾، أي لا مجال للخلط بين الراوي والكاتب، أو بين شخص الكاتب وشخص، وإن سبرت بعض أغوار نفسيته في وقت معين أو عكست جانباً من جوانبه الحياتية.

ثانيها: أن الراوي ضمير عام غير ذاتي، يشاهد الحكاية من عل، ويحاول إيصالها للمروي له، إنه يعرف كل شيء، لذلك يتخذ زوايا متعددة في الرؤيا (الرؤية مع الراوي =

(1) محمد عزام، شعرية الخطاب السردى، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005، ص 09.

(2) محمد عزام، المرجع نفسه، ص 10.

(3) محمد القاضي، تحليل النص السردى بين النظرية والتطبيق، دار الجنوب، 1997، ص 40.

الشخصية) الرؤية المجاوزة أو من فوق (الراوي < الشخصية)، والرؤية خارج (الراوي > الشخصية، في معرفة الأحداث) فهو في آن واحد (داخل) في شخصيته، يعرف أخص خصائصها و (خارج) عنها لأنه لا يتطابق مع أية شخصية.

وثالثها: أن الراوي مجبر على أن يقصر قصته على ما تراه الشخصيات أو تعلمه فكأن كل شخصية تضطلع دوريا بالرواية أو القصة: إنه شاهد يروي ولا يتدخل، له وجود لغوي في القصة، ولغة الراوي في هذه الحالة تشكل إحدى دعائم العملية السردية. وقد كان راوي قصة شاهد رأى بقلبه، راويا عمل على تحليل الأحداث من الداخل، لاستعمال ضمير "الأنا" في معظم القصة، حتى يحقق الراوي مشروع الرغبة التي تملكك علي زغينة، لأن "ما يقوله لنا النص موجود، وهو في الوقت ذاته غير موجود، أو بالأحرى هو لا يوجد، إلا من خلال مشروع الرغبة الذي لقي تنفيذه في عملية الكتابة"⁽¹⁾، والتي يكون النص بها إسقاط لغة جديدة في حيز مكاني فارغ.

4- المعرفة الأحادية / المحايدة:

والراوي في هذه الحالة يتكلم بضمير الغائب، ولا يتدخل ضمنا ولكن نرى القصة وأحداثها، وبعض تحليلات أشخاصها من خلاله بمعرفة أحادية وتجلبت بداية في العنوان، الذي يعتبر مدخلا للعمارة النصية، إضاءة غامضة مجملة وبارعة من المؤلف، يقول عنه يورخيدس: "إنه البهو الذي ندلف منه إلى النص، ودون هذا البهو بغموضه وتشابكه، لا يمكن التقرب من حجرة النص، وملامسة حركتها، واتجاهها في ثنايا النسيج النصي وتشظياته"⁽²⁾، وكانت لغة عنوان شاهد رأي بقلبه، لغة جدل قوي بين الأنا والآخر، وهذا ما نلمسه في التحليل إذ بدء العنوان باسم الفاعل "شاهد"، الذي يحمل صفة الراهنة الحاضرة إذ هي صيغة تجسد الإنسان في فعل دائم هو "الشهادة" فيتحول الخطاب به إلى خطاب مباشر،

(1) بسام بركة، النص الروائي: المعنى وتوليد المعاني، الفكر العربي المعاصر، دار الإنماء القومي، بيروت، العدد 42، تشرين/ كانون الأول، 1986، ص 73.

(2) علي جعفر العلاق، الشعر والتلقي (دراسة نقدية)، دار الشروق، عمان، ط 1، 1997، ص 173.

ينطق بهم حاضر يثمن على صدر المؤلف والمتلقي معا، كما يحمل صفة التعميم؛ إذ جاء بصيغة التنكير، وذلك تلميح إلى تعميم معاناة الإنسان الجزائري العربي، الذي يشاهد بعينه، ويشهد برؤى قلبه في كل محاكمة علنية، على القمع الفكري، والقهر الحضاري، والتخلف الاجتماعي، و مظاهر التخلف الثقافي، الذي يتقدم بسرعة كالورم في جسد الوطن العربي، وهو يحاول الحفاظ على الخصوصية والهوية، بحالة من هستيريا الخوف والفرع، وكل ذلك لأسباب لا يعيها المؤلف، ولا الراوي، وعن ذلك يقول أنطوان سيف: إن وهن الثقافة العربية الراهنة، ليس ناجما عن غربتها عن تاريخها، بل ناجم عن غربتها عن تاريخيتها، أي عن عدم وعيها شروط موقعها في بنية المرحلة التاريخية ماضيا وراهنًا⁽¹⁾.

هذا التساؤل عن الثقافة العربية، الذي جاء مسيطرا على معمار القصة، كما يمكن القول أنه سيطر على فكر المؤلف، بل على فكر كل عربي متسائل، ليبرز جليا في هذه الجدلية بين الضمائر (أنا، أنت، هو، هي، ..)، تعبيرا عن صراع أزلي بين الأنا والآخر، الأنا والهو.

وقد كان لحضور صيغة اسم الفاعل "شاهد"، بعدا دلاليا يؤثر على حضور أنا الكاتب قويا؛ حيث إنه أمضى حياته وهو يشاهد بعينه ويشهد بقلبه إلى أن حان إعلان بيان شهادته بقلمه وحرره، بخروج هذه المجموعة القصصية. وبذلك اتسعت دلالة العنوان بهذه الصيغة الأكثر إيجاء وحركة، مما يوحي بديمومة الشهادة.

وجاء الفعل بصيغة الماضي "رأى" مرتبطة لضمير الغائب "هو" الذي عاد إلى شاهد، وهنا مدى تعمق جدل الأنا والآخر كما كانت في مواقع كثيرة من جسد القصة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على هيمنة الراوي "العليم"، بالحال وبأوضاع الشهادة، ومهمته أن يرينا الشخصية، التي صنعها القاص، وكأنها هي شخصية محتملة، ممكن لنا إسقاطها على كل قارئ وجد ضالته فيها، ووجد نفسه شاهدا بقلبه، يحمل كل أحزان الدنيا واستعمال هذا

(1) رباب النجار، مراجعة كتاب "وعي الذات وصدمة الآخر" لأنطوان سيف، البحرين الثقافية، المجلد 11، العدد 38، مارس 2004، ص 143.

الضمير يسمح للراوي باتخاذ مسافة مناسبة من الشخصية التي يقدمها، ويبعده عن التدخل المباشر في السرد.

وهذا ما يقدم الأهمية للرسالة التي أراد إبلاغها "علي زغنية" على الملأ في محاكمة علنية، والتي بها حاول تكثيف فكره ورؤاه في هذا العالم، عالم اللا. واقع، اللا. منطق، اللا. عقلانية، في الفكر، في الثقافة، في علاقتنا بالآخر، في مظاهرنا كعرب... إلخ، كل هذا أثقل على صدره، وعلى قلبه، الأمر الذي جعله يقول: العين عدسة كبيرة، والأذن رادار ضخم، والقلب... آه منه!! صهريج يتلظى... والأنفاس... سحابة من دخان كثيف...⁽¹⁾.

فراح يتساءل في كل هذه المتناقضات، باحثاً عن ضالته الحقيقية: لماذا هذا؟ وكيف كان حصول هذا؟ وماذا نفعل لتخرج من هذا؟ رغم أن الناس لاهون عن وسيلة ناسين أو متناسين، فكانت له فلسفته: أنا بحث في النور، وفي عز النهار، وما عثرت على مرادي... فليكن في الظلمة إذن، فعساني أهندي.... الحقيقة!!... وحدها كانت غايتي من الأول كانت في روحي وحسباني... آه منها!... الكل يجبها... طلبة كل مبتغ وحلم كل فريد... وهي كل شيء لولا أنها مخيفة، وشرسة...⁽²⁾.

وفي آخر القول، أن جمالية لغة العنوان هي إنعكاس لجمالية لغة القصة، بل لغة المجموعة كلها، التي لمسناها لدى الكاتب، من حيث غرائبيتها ومقدرته التخيلية وأسلوبه الشعاري، وكثافة أساليبه الشعرية، والفكرية، والجمالية، وتبقى الشهادة أن النص لا يعطيك بعض ما يملك إلا إذا أعطيته -كقارئ- كل ما تملك.

(1) المجموعة القصصية، ص32.

(2) المجموعة القصصية، ص33.

المحور الثالث

الاشتغال السيميائي للأهواء في الخطاب السردي

- مقارنة في القصة النسوية -

أولاً: سيمياء الأهواء ورهانات تحديد الدلالة الممكنة

1- المصطلح بين سندان الترجمة ومطرقة التأويل -

توطئة: تحتاج كل دراسة إلى مصطلحات علمية، تكون جزء منها وعنوانا يميزها، ووسيلة تستخدمها لإدراك منطقها ومنطق العالم الذي تنتمي إليه؛ وانطلاقاً من حقيقة أنه لا بد لكل بحث من ضبط المجال الذي يدور فيه، والمفاهيم العاملة التي يعتمد عليها، ليتعين بذلك موقعه من الدراسات والاختصاصات المتنوعة والمتداخلة، بحيث يتمكن المتلقي من ضبط المفاتيح التي تسمح له بالولوج في البحث، وهي مفاتيح قائمة على تلك المفاهيم، بطبيعة الحال. وهذه ضرورة إبستمولوجية منهجية معروفة في كل دراسة، توجب علينا الوقوف عند مكونات المصطلح بكل مرجعياتها، الذي كان له ووفق كل هذه المعطيات والمكونات المعرفية قابلية في تعدد محددات التعريف والممارسة من باحث إلى آخر بل حتى عند الباحث الواحد، ومن ثمة تعددت المصطلحات الدالة على المفهوم الواحد في الدراسات الغربية المؤسسة له، وانعكس الأمر على الدراسات العربية، الذي فتحت الباب على كم هائل من المصطلحات أبسط ما يقال عن معظمها أنها مرتجلة وفردية وتبتعد أشواطاً عن الضوابط العلمية.

وفي ضوء هذا الهدف، نطمح بهذه المداخلة إلى التنقيب في الممارسات العلمية المفهومية لمصطلح سيميائي أفضى استعماله إلى فوضى مصطلحية كما حدث لغيره من المصطلحات، والتي تتوجب علينا كباحثين الحدّ من فوضى التداول هذه وضبط مفاهيمنا وتحديد مصطلحاتنا ليتحقق التواصل العلمي بيننا وليستقيم سير البحث في مجتمعنا، ولا

يتأتى لنا ذلك إلا إذا وضع المصطلح تحديد مجهر يحدد مكوناته المفهومية، حتى يتم الاستغناء عن محدداته الدخيلة التي أحدثت أضررت بالمصطلح أكثر مما نفعته.

والبداية تكون بتحديد لفظ المصطلح الذي هو رمز للمفهوم بحسب إدراكنا له، الأمر الذي يعني أنّ المفاهيم قد وجدت وتشكلت قبل المصطلحات فتسمية المفهوم يمكن أن تعدّ الخطوة الأولى في تماسكه كمطلب سوسيو-لوجي وكيان قابل للاستعمال⁽¹⁾؛ فليس المصطلح بقضاياه المختلفة سوى طريقة في تنظيم التجربة العلمية خارج الاكراه الذي يفرضه الاستعمال العادي للغة، لأن المصطلح (Term) وليد المفهوم، فلا يمكن أن يكون إلا سؤالاً معرفياً أو وجهاً لقضية، أي أن انسجام نظرية ما مرتبط بقدرتها على المثول أمامنا على شكل لغة صورية، كون الاصطلاح عملية لغوية ومهنية معاً⁽²⁾، وعليه فالإدراك الحقيقي للحقول الثقافية التي تنبثق منها المفاهيم لا يتحقق عبر معرفة الدوال المعزولة، ولن يكون المصطلح وفق هذا التحديد سوى الصيغة المؤدية إلى تحديد هذا المعنى والكشف عن حجمه.

2- سيمياء الأهواء- بين ترجمة المصطلح وتأويل محددات المفهوم:-

سيمياء الأهواء (Sémiotique des passions) مصطلح ذو حمولة معرفية محددة، تتركب من كلمتين جزئيتين أساسيتين: سيمياء (Sémiotique) والهوى (passion)، ومن أجل وضع مثل هذا المصطلح المركب تحت مجهر التعريف وتحديد الماهية والمفهوم، كان علينا أن نتحسس بعمق شديد هذا التزاوج المصطلحاتي، الذي يمنح المصطلح ككل بريقاً معرفياً، يستقطب كل من يقرأه أو يتلقاه، ليرمي به في متاحف علم معاصر يدرس الهوى بحسب تمظهره: البنيوي- التركيبي والمعجمي- الدلالي، وهو السيمياء، وغيرها من

(1) مصطفى طاهر الحياذرة، من قضايا المصطلح اللغوي، عالم الكتب الحديث، أريد، الأردن، ط 1، 2003، الكتاب الأول، ص 25.

(2) صلاح فضل، إشكالية المصطلح الأدبي بين الوضع والنقل، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، شعبة اللغة العربية وآدابها، فاس، عدد خاص 4 (ندوة المصطلح النقدي وعلاقته بالعلوم)، 1988، ص 69.

خلال النظريات المنتمة إلى التحليل الأدبي، وهي في الأساس نظريات في المعنى، تحاول تحديد السبل المؤدية إلى انتاج الدلالات وتداولها.

وانطلاقاً من هذا، كان علينا أن نقف بالوصف والتأسيس والتأصيل لهذا المصطلح لتحديد مفهومه وتشكلاته، وإبراز امتداداته فيما تشابه معه من فروع وتميز عنه من أقسام، وقد يتسنى لنا ذلك بطرح هذا المصطلح المركب من بابه الطبيعيين: العلم (السيمياء (Sémiotique) والموضوع (الهوى passion)؛

وبالبدية الإشارة إلى مصطلح السيمياء^(*)، والذي يعنى بمختلف مفاهيمه ومرجعياتها بالسيرورات التي تقود إلى المعنى وتكشف عنه من خلال ما يخفي وليس فقط عبر ما يكشف ويوضح، لذلك فالمعنى هو امساك بسيرورة لا تحديد لمضمون يوجد خارجها، إنه ليس محايثاً للشيء ولا للذات، إنه حصيلة النشاط الانساني في بعده التداولي والمعرفي معاً⁽¹⁾ - على حدّ تعريف غريماس - وهي عند فونتاني العلم الذي يدرس الدلالة النصية اعتماداً على أن هذه الدلالة تتوزع على شكل علامات أو سمات، وفق أنظمة معينة، وتقوم منهجية هذا العلم على كشفها وتحديد مسارات تظهرها في النص⁽²⁾، فليست السيمياء بذلك "سوى تساؤلات تخص الطريقة التي ينتج بها الإنسان سلوكاته، أي معانيه وهي أيضاً الطريقة التي يستهلك بها هذه المعاني"⁽³⁾؛ فهي دراسة للسلوك الإنساني باعتباره حالة ثقافية منتجة للمعاني، وفي غياب قصدية - صريحة أو ضمنية - لا يمكن لهذا السلوك أن يكون دالاً، أي

(*) والمثير للعجب أنه إلى حدّ الساعة لاتزال الدراسات النقدية العربية تحفل بعدد لا بأس به من المصطلحات التي تحيل إلى هذا المجال، بل حتى في البرامج التعليمية إذ لحدّ الساعة يتداول الطالب المسميات التالية: السيميائيات - علم السيمياء - السيميولوجيا... الخ، بعد كل هذه الأشواط البحثية في تحديد المصطلح، وهو الأمر الذي انعكس على هذا الفرع السيميائي الجديد، فإلى حدّ الساعة سيجد الباحث في هذا المجال تكديس وتراكم في المصطلح السيميائي بلغ حدّ المبالغة المفرطة.

(1) الجيرداس، ج، غريماس، وجاك فونتاني، سيمياء الأهواء من حالات الأشياء إلى حالات النفس، ترجمة وتقديم وتعليق سعيد بنكراد، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ط1، 2010، ص 17.

Et voir- Ducrot Oswald, les mots du discours, éditions de minuit, Paris, 1981, p7

(2) جاك فونتاني، سيمياء المرئي، ترجمة: علي أسعد، دار الحوار، سورية، ط1، 2003، ص 225.

(3) فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، بيروت/الجزائر، ط1، 2010، ص 18.

مدركا باعتباره يحيل على معنى. إن هذه القصيدة هي أساس كل القضايا المعرفية التي عبّرت عن نفسها من خلال مجموعة من المفاهيم الخاصة بالمعنى من حيث الوجود والمادة والسيرورة والتداول.

ولقد ساهمت المدرسة الفرنسية السيميائية بزعامة الليتواني الأصل ألجيرداس جوليان غريماس (A-J-Greimas) بفاعلية في انفتاح المنهج السيميائي على علوم شتى، كما عملت أيضا على تجديد النظر إلى التجربة الإنسانية برمتها، وقد سار أتباع غريماس في هذا الاتجاه كجوزيف كور تيس وجون بتيوكوكوردا وجون كلود كوكي وجاك فونتاني (Jacques Fontanille)، الذي طور بمعية غريماس نظرية من صميم النفس الإنسانية، عرفت في التصور الباريسي بسيمياء الأهواء، وهي منهج مستحدث في دراسة الأهواء، للانتقال من دراسة حالات الأشياء إلى حالات النفس من خلال كتابهما "سيميائيات الأهواء من حالات الأشياء إلى حالات النفس" الصادر سنة 1991؛ خلال العقود الأخيرة أصبح الباحث في مجال السيمياء يولي أهمية لمعنى الهوى/ الشعور أو للحالة النفسية للمتحدث، فإلى جانب أن العامل يعمل فهو يحسّ، وهو في حاجة دائمة لإثبات الوجود في عالمه ليحقق غاية هذا الإثبات، وهي أن يعبر ويبلغ ويدرك المبتغى و يؤثر في الآخر؛ إنها من الأبحاث الحديثة في الدرس السيميائي، والتي تجعل الهوى موضوعا لها يمكن التأسيس عليه، في محاولة لربط حركية العمل بحركية شعورية هوية موازية؛ فالهوى ليس عارضا أو مضافا أو طارئا يمكن الاستغناء عنه أو التخلص منه، كما يمكن أن نتوهم، لأنه جزء من كينونة الإنسان وجزء من أحكامه وميولاته وتصنيفاته⁽¹⁾.

ويؤدي الجسد - بذلك - محفلا توسطيا بين الإحساسين الداخلي والخارجي، ويضمن تفاعل الإنسان مع محيطه، ويجسد حركيا مجموع الأهواء التي تنتاب الإنسان أكانت مفرحة أم محزنة، إنه «جسد حسّاس، مدرك فاعل؛ جسد يعبى كل الأدوار المتفرقة للذات، في تصلب وقفزة ونقل.. جسد نعتبره سدا وتوقفا يقود إلى تجسيد مؤلم أو سعيد للذات»⁽²⁾؛

(1) غريماس وفونتاني، المرجع نفسه، ص 09.

(2) غريماس وفونتاني، المرجع نفسه، ص 368.

وتتشخص حركة الجسد خطايا في شكل آثار تلفظية (ما تجسده التجليات الثقافية وإيجاءاتها إن على المستوى الجماعي (اللغة الجماعية) أو الفردي (اللغة الشخصية) والتي يمكن أن تخضع لتقويم أخلاقي لثمينها (هوى الشجاعة) أو بخسها (هوى البخل)، وتخصص الأهواء كينونة الذات لا فعلها، وحتى عندما تعمل الذات الهوية (أي عندما تنتقل من الذات الحالة إلى الذات الفاعلة)، فهي تكون موجهة وفق جهة الكينونة، ولما يضطلع الجسد بالتوسط بين الحالتين (حالة الأشياء وحالة النفس)، فهو يسهم في إحداث نوع من الانسجام بينهما.

وعن سيميائية الأهواء وتجلياتها في الخطاب السردى يقول غريماس: "إن بلورة سيميائيات للأهواء معناه الانحياز إلى تمثيل البعد السردى للخطابات التي يمكن اختصارها فيما يشبه منطقاً للفعل، وفي تصور للذات التي ستكون محددة بشكل كلي من خلال فعلها والشروط الضرورية لتحقيقه"⁽¹⁾، كما أن الحكم الأخلاقي لا ينصب على المشاعر في ذاتها بل يحكم على الفائض الانفعالي الذي يحوّل هذه المشاعر إلى هوى، والحديث عن الهوى "محاولة لتقليص تلك الفجوة الفاصلة بين المعرفة والحس"⁽²⁾؛ وفي نظرية الأهواء، يمكن القول أن البعدان (الانفعالي والمعرفي) ليسا متمفصلين ضمن البعد التداولي، الذي يحدد الجسد، الذي يحدد بدوره الذهن عبر معرفة انعكاسية للذات.

وعليه تمّت صياغة مشروع سيمياء الهوى على نحو مستقل بذاته (أي يتوفر على ميكانيزمة مفاهيمية خاصة به ومنسجمة تقرّ - أساساً - باستقلالية البعد لانفعالي للخطاب، وبالتشديد النسقي للتدلال الاستهوائي la sémiosis du phorique، وبإنجاز نحو يفضي إلى الخطاطة الاستهوائية المعيارية)، لم يحل دون تأكيد مدى تفاعله وتكامله مع النظرية السيميائية للعمل في إطار ما يصطلحان عليه بالوجود السيميائي المتجانس المرتبط بفعل تحديد الدلالات الممكنة داخل النص، وهي دلالات تتعلق بالتخمين بشكل يهدف إلى الوصول إلى نقطة دلالية بعينها ضمن سيرورة تأويلية محددة بسياق خاص⁽³⁾. إن كل ما في

(1) غريماس وفونتاني، المرجع نفسه، ص 145.

(2) غريماس وفونتاني، المرجع نفسه، ص 13.

(3) سعيد بنكراد، السيميائيات والتأويل (مدخل لسيميائيات بورس)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 1، 2005، ص 169.

العالم يجب أن يخضع إلى السيميائية لينتقل من البعد المادي/ الشئني إلى ما يشكل جوهره الدلالي النفسي، لأن العالم الذي تحيل عليه العلامات هو عالم متصل بالكائنات والأهواء والرغبات والأحلام وحتى الأشياء، إنه يكبر ويضمحل داخل نسيج الأكوان الدلالية التي تؤسسها هذه النصوص، أي داخل ما يطلق عليه بورس السيميوز⁽¹⁾.

في كلام المؤلفين دعوة لإخضاع مجمل الانفعالات/ أو المشاعر إلى السيميوزية (sémiotisation) فكل شعور سيميوز، وهذا الأخير هو "سيرورة في الوجود والاشتغال وإنتاج الدلالات"⁽²⁾. وعليه كانت نظرية الأهواء، عموماً، ثمرة سنين من العمل المتواصل اضطلعت به الجماعة السيميائية-اللسانية (المعروفة بمدرسة باريس) لمراجعة النظرية السيميائية «المعيارية» بالتركيز على ثلاث مجالات تستأثر بالاهتمام وهي: الاستمولوجية والنظرية والتطبيق.

وانتقل مصطلح (Sémiotique des passions) إلى العربية-متداخلاً مع المصطلحات الأخرى التي تفاعلت معه، فتعددت واضطربت عمليات ترجمته عند الباحثين، بل وأحياناً عند الباحث الواحد، لأن الترجمة هي السبيل الوحيد، لتلقي مثل هذه العلوم، وهي من يضمن كشف الفكر الإستيمولوجي لسيمياء الهوى كفرع ألسني جديد، وعلى الرغم من كونها عملية معقدة تعمل على نقل أفكار من لغة إلى أخرى، تساعد على معرفة الآخر؛ فالترجم هو من يقوم بإعادة بناء نسق العلامات والإشارات؛ لأنه يترجم المصطلح موظفاً المعارف والمهارات، ورواسب مكتسبات سابقة، وأحكام معيارية يملئها التهيؤ الإدراكي والمفاهيمي له؛ فالترجمة نشاط إستيمولوجي، وعملية ذهنية وإدراكية معقدة تتطلب ثقافة موسوعية. يقول جورج ستا نير (George Steiner): إن الترجمة الحقيقية أي تأويل الدلائل اللغوية في لغة ما بواسطة الدلائل اللغوية في لغة أخرى، هي حالة خاصة ومعقدة

(1) سعيد بنكراد، السيميائيات والتأويل، ص 169.

(2) سعيد بنكراد، السيميائيات والتأويل، ص 169.

لعملية التواصل والتلقي في أي فعل لغوي إنساني⁽¹⁾ أي أن الترجمة الإجرائية للمصطلح من خلال مكوناته المفهومية في نموذجها النسقي هي تحديد العلاقة بين نوعين من المتغيرات يمكن إجمالهما في معادلة التالية: (ص = م)، حيث إن:

ص = المتغير التابع، وهو المصطلح الموضوع لتفسير الظاهرة.

م = المتغير الحر والمستقل، وهي المكونات المتحركة بالمصطلح الموضوع.

إن المصطلح مرتبط بالمفهوم الذي وضع له ارتباطا وثيق الصلة، تقتضي الحالة المثلى أن تكون العلاقة بينهما في الدلالة علاقة أحادية، فمتى ما ذكر المصطلح المعين تم الالتفات إلى معناه من غير لبس، ولا سبيل إلى دلالة المصطلح الواحد على مفاهيم متعددة⁽²⁾.

فالمترجم -على هذا الأساس- لا يقوم بوضع لفظ في مقابل لفظ دونما استحضار ثقافة اللغتين واختلافهما في كيفية إدراك العالم، إنما يكون همه منصبا على إيجاد المناسبات وإقامة المعادلات، وبخاصة المعجمية -الدلالية منها دون نسيان المكونات الثقافية التي سيطرت على مكوناته الأخرى، لذلك يعرفه فيلبر (Helmut Filbert) "هو تمثيل عقلي للأشياء الفردية، وقد يمثل شيئا واحدا أو مجموعة من الأشياء الفردية التي تتوفر فيها صفات مشتركة"⁽³⁾؛ كما أن المسألة مسألة تمثل وإدراك للفكر الأجنبي في ثقافتهويته، كما أنها مسألة تمثل وإدراك أسرارها وسبر أغوارها، لاختيار المناسب للغوي والموافق للايديولوجي، أي تبحث له عن معادل لغوي دقيق⁽⁴⁾.

وفي حال تميز المصطلح بمجدي الجمع والمنع سيصبح حصنا حصينا لكل دراسة نسب إليها وبالتالي إلى كل علم ومجال احتضن هذه الدراسة، ذلك أن العلاقة بين الدراسة ومصطلحاتها علاقة متينة تتسم بالتفاعل والتناغم والتبادل، وهو ما يؤكد أحد الدارسين بقوله: «أن مفاتيح العلوم ومصطلحاتها، ومصطلحات العلوم ثمارها القصوى، فهي مجمع

(1) الجلالى كدية، الترجمة بين التأويل والتلقي، ندوة الترجمة والتأويل، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، الرباط، المملكة المغربية، ندوات ومناظرات، رقم 47، 1995، ص 52.

(2) ينظر: صلاح فضل، إشكالية المصطلح الأدبي ص 79-81.

(3) Helmut Filbert, Terminological Manual, Paris, 1984, p115.

(4) صلاح فضل، إشكالية المصطلح الأدبي ص 79.

حقائقها المعرفية، وعنوان ما به يتميز كل واحد منه عما سواه، وليس من مسلك يتوسل به الإنسان إلى منطق العلم غير ألفاظه الاصطلاحية، حتى لكأنها تقوم من كل علم مقام جهاز من الدوال ليست مدلولاتها إلا محاور العلم ذاته»⁽¹⁾، فدلالة المصطلح أي مصطلح محدودة، ترتحن بسياق معرفي مضبوط لا تتعدها، أي أنها مقيدة بحقول المصطلح المعرفية.

كما أنه إذا ما كان حسن المترجم اللغوي مرهفا ووعيه الفكري والحضاري عميقا، ومعرفته بالآداب المختلفة كافية أدرك أن المصطلح النقدي ليس مجرد نقل كلمة شاردة، بل هو تأصيل لمفهوم يحتاج إلى اجتهاد موصول في التعريب والتطوير والتجريد، حتى يعثر على مقابله بشكل فعال، ثم يلقي بشار سعيه إلى بوتقة الضمير الأدبي الجماعي في اقتراح صامت، انتظارا لقراره أو تعديله⁽²⁾؛ ذلك أن ترجمة المصطلح إلى العربية لا يمكن أن تتخذ صيغة نهائية تقف عندها، كون الأمر لا يتعلق بصياغة المصطلح في إطار تغطية نشاط معرفي معين، بل هو أمر خاص باستحضار كل الشروط والظروف الأساسية التي ولدت هذا المصطلح في ثقافته الغربية ومن ثمة تلقيه ونقله وتعريبه في ثقافتنا العربية.

إذن، الترجمة عملية ساهمت في نقل مصطلح (Sémiotique des passions)، إلى العربية، والتي تزوجت في كثير من الأحيان مع عملية التأويل فوجدنا أنفسنا أمام كم هائل من المصطلحات؛ ترجمه سعيد بنكراد إلى سيميائيات الأهواء أو الهوى في ممارسات نقدية أخرى له، وترجم سيميائية الأهواء في دراسات محمد الداهي، وسيميائيات العواطف أو الإحساس في دراسات فريد الزاهي⁽³⁾ - وسيمياء الأهواء - وسيمياء الهوى - وسيمياء العواطف - وسيمياء الإحساس - وسيمياء العاطفة - ودلائلية الأهواء - ودلائلية الهوى - وسيميولوجيا الهوى - وسيميولوجيا الشعور - والسيمياء الهوى - وعلم حالات النفس، وهو مصطلح أقرب إلى علم النفس منه إلى السيمياء، وكذلك نجد الهويات - والهولوجيا - والهوى، ولنا على الثلاث الأخيرة مأخذ كونها خالفت قواعد وضع المصطلح وقوانين

(1) ed/hachette université ;et J courtes. Dictionnaire sémiotique7- A.J. grimas J :p247/248/249/250, 1979 raisonne de la théorie du langage. Tome 1 ;

(2) صلاح فضل، إشكالية المصطلح الأدبي ص79.

(3) فريد الزاهي، النص والجسد والتأويل، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2003، ص43-44.

التعريب؛ فحينما ننقل نحن الباحثين الخدائين العرب المصطلح النقدي الجديد في عزلة عن خلفيته الفكرية والفلسفية، فإننا بالضرورة سنكون في هذه الحال المضطربة وهذا التعدد في المصطلح غير المبرر، ولا عجب في أن يفرغ المصطلح من دلالاته ويفقد محددات مفهومه كما هو حاصل في المصطلحات الثلاث الأخيرة.

أما الهوية مصطلح عندما تناولته بعض الدراسات يمكن القول، أن في استعماله تجاهل كي لا نقول جهل بعض الباحثين بقواعد وضع المصطلح المسطرة من قبل الهيئات العلمية الرسمية المسؤولة «المجامع اللغوية ومكتب تنسيق التعريب» واعتماد صاحبه على اجتهاداته الشخصية، دون احتكام لضوابط علمية واحدة وموحدة تساعده على ضبط المصطلح العلمي، والأمر ذاته للمصطلحين الآخرين.

وهي مصطلحات تسارعت في الدراسات العربية بوساطة أجهزة مفهومية فردية، دعت إليها الحاجة في سبيل «الحاق بركب الحداثة»، وفي ظل غياب التعامل المجعبي اللغوي الموحد والمقنع، ذهب كل ناقد يجتهد في النقل والترجمة والتسمية وعلى حدود فهمه (الذي قد يصيب وقد لا يصيب) للدالّ الأصلي في لغته الفرنسية أو الإنجليزية أو غيرها وعلى مدى مهارته فيتهدي إلى اللفظ المقابل وينحت لفظاً بديلاً؛ فطريقة وضع المصطلح باتت فردانية، ونعتقد أنها الطريقة التي تكاد تغطي على أغلب الدراسات النقدية العربية وحتى الممارسات البحثية العلمية الأكاديمية، واللذان تعملان في غياب عمل مؤسساتي جماعي ممنهج ومدرّوس، كما هو متبع في المجتمعات الغربية، مما يضيف على هذه الاجتهادات طابع التعدد والاختلاف في المصطلح ومن ثمة في المفاهيم، لدرجة يشعر معها القارئ، وهو يتابع هذا الكم الهائل من الدراسات المنشورة، أن كل باحث أصبح «يشكل» مدرسة نقدية قائمة بذاتها، معزولة كلياً عما يجري حولها في «المدارس» الأخرى على الرغم من اعتمادهم جميعاً على خلفية معرفية غربية واحدة، الأمر الذي أصبح معه التواصل مع هذه النظريات الغربية في لغاتها الأصلية أيسر كثيراً، في بعض الأحيان، من الاطلاع عليها مترجمة للعربية، نظراً للاضطراب الهائل الحاصل في ترجمة مصطلحاتها النقدية؛ فأمام هذا الوضع يروح القارئ أولاً ضحية كثرة

الاستعمالات والاختلافات، فترتبك بذلك عملية القراءة، ولا يتحقق بعد ذلك المراد الأكبر، وهو تجديد فكرنا الأدبي ومعرفتنا النقدية، وتطويرهما⁽¹⁾.

على ألا يفهم من كلامنا هذا طبعاً مصادرة حق الباحث الشخصي المشروع في الاجتهاد ووضع المقابل العربي الذي يراه مناسباً للمصطلح الغربي، بقدر ما نريد أن يتقيد كل باحث - في ذلك - بالضوابط العلمية المعروفة، لوضع حد للفوضى العارمة الحالية، وإضفاء مصداقية وفعالية أكثر على هذه الجهود، وهو ما لن يتحقق طبعاً إلا باستبدال الأنانيات بالعمل الجماعي المبني على «روح الفريق»⁽²⁾ في وضع المصطلح وتوظيفه، مع الالتزام باستعمال المقابل العربي الصالح والسائد، على أن لا يستبعد المصطلح إلا في حالات خاصة محدودة تفرضها الضرورة العلمية، وقد أفضى التشتت المصطلحي بالناقد العربي، وهو يخشى على نصه سوء الفهم إلى تذييل دراساته بجدول للمصطلحات التي استخدمها يضم أصولها الأجنبية ونقولها العربية، وذلك لعلمه أن غيره قد يذهب مذاهب تعريبية أخرى، وأن المسألة خلافية بقدر ما هي اجتهادية، على الرغم من كون المصطلح تسمية فنية تتوقف على دقتها ووضوحها معرفة الأشياء والظواهر، بسيطها ومركبها، ويرتكز في أساسه على منطلقين هما الوضع والنقل⁽³⁾.

3- مصطلح الهوى والانزياحات الدلالية:

ولما كانت حياة المصطلح مرهونة برصيده الموجود في الحياة، ارتأينا بحث مكونات المصطلح المختلفة والبداية بالمكوّن المعجمي؛ فلقد كانت الأهواء، باستمرار، محط اهتمام النقاد والأدباء والفلاسفة لكونها تمس جانباً معقداً في دواخل الإنسان وفي علاقته مع العالم والأشياء. ولم يخرج السيميائيون عن هذا.

(1) سعيد يقطين: المصطلح السردى العربي، مجلة نزوى، العدد: 21، السنة: 2000، ص 62.

(2) الدثاي محمد: تداخل المصطلحات وإشكاليات الأنماط الشعرية العربية الضائعة، مجلة كلية الآداب بفاس، العدد الرابع السنة: 1988، ص: 32.

(3) صلاح فضل، إشكالية المصطلح الأدبي ص 81.

أ- الهوى في المعجم الغربي:

يقول الدّاهي: كلمة الهوى تقابلها في الانجليزية passion vilain وفي الفرنسية passion دون إضافة نعت (الشنيع vilain)، وتلقي اللّفظتان الفرنسية واللفظة الانجليزية في بعض معانيها مع كلمة الهوى العربية، إذ يقصد بها عاطفة عاتية تستبد بالعقل⁽¹⁾.

وقد جاء في القاموس الفرنسي لاروس (Larousse) أن معنى كلمة (passion) تعني الرغبة والميل العنيف المحقق للفائدة (أو المنفعة) الفورية للمهتم بموضوع الحديث⁽²⁾، وليس كل ميل أو رغبة هوى، وفي العامية الهوى مرتبط بالانفعال الفوري المتولد من لا تفكير أي العاطفي المستبد بالعقل والمنطق، المشحون بالعاطفة الجياشة بعيدا عن كل الانفعالات الأخرى، ومنه نقول "هواوي"، أي لا تكهن في تصرفاته، والذي يميل حيث يميل قلبه بلا تفكير ولا حتى حسابان للعواقب (الهوى الذي يأتي يأخذه). ومنه تقل حظوظ مصطلح الهوى في الاستعمال، وفي احتواء كل مكونات المفهوم لدى أصحابه وفي بيئته الفكرية والمعرفية والثقافية، ومن ثمة العلمية المنهجية.

ولعله على هذا الأساس، اختير مصطلح سيميائية الهوى ليقابل (Sémiotique des passions) في بعض مكونات المفهوم على الرغم من وجود مصطلح أقرب منه لهذه المكونات وهو سيميائية الشعور لأنه مصطلح قادر على احتواء معظم المكونات التي قصدها غريماس وفونتاني سواء أكانت تعود إلى العقل أم الإحساس أو الانفعال، فما الهوى -في هذه الحال- إلا ما "تصابير النفس على تحمله من الجسد الذي تسكنه (المتحدة به)"⁽³⁾.

وتطلق كلمة (passion) على أقوى إحساس/ أو شعور للحب، للكره، للغضب، للحماسة.. الخ، ونقول هو إنسان يحس ويشعر، وهي تعترىها حالة هائلة من الشعور والانفعال (passion-considérable)، ومنه يمكن القول حسّاس (-passion ate)،

(1) محمد الدّاهي، المرجع نفسه، ص 70.

(2) Larousse ; Dictionnaire de français_60000mots définitions et exemples ;présente édition ; France ; 2008 ; p306 ,

(3) David Hume, réflexions sur les passions, traduction revue par Corinne Hoogaert, représentation et commentaire de Michel Meyer, le Livre de Poche, 1990,p44.

وعديم الإحساس (passion-less)، ونكهة الورد (flower passion)، ونكهة الفواكه (passion-fruit)⁽¹⁾.

ويُبين أفلاطون في أسطورة الكهف، أن العقل محتاج للهوى لإثبات ذاته، وأبرز أرسطو أن الأهواء تلعب دورا هاما في الكشف عن الاختلافات البشرية وتضعيف الوعي إلى كينونتين تنزعان إلى التوافق أو التعارض، ويقترن الهوى عند سانت أوغست (S. August) بتعذر الخلاص، ويفيد عند ديكارت والفلاسفة المعاصرين تغير وضعية الإنسان بسبب وحدانيته وفردانيته⁽²⁾.

ويقول ميشال كاروج (Michel. Carrouges): "تتبطّن النهج المعرفي في السوربالية كما هو الشأن في السيمياء، إرادة لتحويل الإنسان والكون، وإعادة الإنسان إلى مكانه الخاص به، باستعادة قدراته الضائعة"⁽³⁾ وهي إرهابات أولية لسيمياء الهوى، وذلك من خلال كلامهم عن محاولة تحقيق تحول داخلي بفضل عملية تحول خارجي، وبفعل القران بين الكتابة الآلية والمصادفة الموضوعية، بين أمارات الرؤيا والتمجيد الآتي للإنسان.

في حين اعتبرها باسكال (pascal) نقيضا اجتماعيا، ينبغي التحكم فيه بواسطة المؤسسات والقوانين، وقبله أعلن أفلاطون أن الطبيعة الإنسانية تحتاج إلى التصرف بالحرية والعقل بدلا من الأهواء التي تهدد النظام الطبيعي؛ فما تؤاخذ عليه الانفعالات ليس انتفاء النظام أو انتفاء الطبيعة والصحة، بل انتفاء التحيين⁽⁴⁾، ولكن نشير إلى أن منطق الهوى هو منطق الهوية والاختلاف ولذلك يجسّد التوارد عدوى الاستهوائي من خلال مفهومي التواشج والتشابه، فالفرد مجبول على حب ذاته (الأنانية الطبيعية) والتميز عن الآخرين، وهذا ما يجعله يؤثر ذاته وأقاربه على من لا تربطه بهم أية صلة⁽⁵⁾.

(1) Oxford; Dictionary of english ;p925-926.

(2) محمد الداوي، سيميائية السرد، بحث في الوجود السيميائي المتجانس، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 2009، ص 60.

(3) أدونيس، الصوفية والسوربالية، دار ساقى، بيروت، ط 3، 2006، ص 279.

(4) Herman Perret, Les passions essai sur la mise en discours de la subjectivité, Mardaga, 1996, P13_14.

(5) voir ; David Hume, Ibid,p20-21.

ولقد أسعفت دراسة الهوى المضمن في الخطاب على بيان عملية استحضاره الفردي والجماعي سواء أكان على مستوى التحسيس أم التقويم الأخلاقي. وفي هذا المضممار يستند مؤلفا الكتاب على نماذج وترسيمات معيارية (ومن ضمنها أساسا المقطع المكبر الذي يستوعب ما يهم الأزمة الاستهوائية في عدة انفعالية) لبيان مدى انضباط هوى ما لها أو انزياحها عنها (الاشتقاقات الممكنة المترتبة على متغيرات افتراضية) تبعا للأنماط الثلاثية الكبرى التي تُعنى ببناء الأهواء الإيحائية (التكون، ثم التحسيس، ثم التقويم الأخلاقي). وعليه، قام هيوم بجرد الأهواء وتصنيفها حسب طبيعتها ووظيفتها، وقوتها وضعفها، وعنفها وهذونها، وجسد حذتها ومفعولها من خلال علائق القرابة والصدقة والعداوة والصراع، والوضعية الاجتماعية⁽¹⁾.

وعلى سيميائيات الأهواء أن تحدّد موقفها من هذه النقطة: والأمر لا يتعلق بالانحياز إلى الرغبات أو الحاجات، إلى الأهواء أو المصالح.. بل بتحديد الحد الأدنى الإبستمولوجي الذي لا يمكن دونه ضمان استقلالية البعد الانفعالي.. وأن كل مشروع علمي لابد أن يندرج ضمن ثقافة وضمن إبستيمي⁽²⁾.

ب- الهوى في المعجم العربي:

جاء في لسان العرب "يقول ابن سيده: الهوى العشق يكون في مداخل الخير والشر... وهوى النفس إرادتها والجمع أهواء... وقال اللغويون: "الهوى حبة الانسان الشيء وغلبته على قلبه..."⁽³⁾.

ويقول تعالى: ﴿كَأَلَذَى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ﴾⁽⁴⁾؛ فمن يقرأ الآية سيدرك أن المعنى الغالب هو أنها ذهبت بهواه وعقله، وقيل استهوته استهامته وحيرته،

(1) voir ; David Hume, Ibid,p25.

(2) غرياس وفونتانى، سيمياء الأهواء، ص 145.

(3) ابن منظور (للعلامة أبي الفصل جمال الدين محمد بن مكرم الافريقي المصري)، دار صادر بيروت، ط 1، 1997، المجلد 6، ص 372. (مادة هوى).

(4) الأنعام، الآية 71.

وقيل: "زينت الشياطين له هواه حيران في حال حيرته"⁽¹⁾؛ فكلمة الهوى فيها معنى ارتفاع ومعنى الإرادة (القراءة) و(الجمع أهواء) ومعنى السرعة، ومعنى الغلبة.

ألهوى بالقصر العشيق، وقال الليث هوى الضمير، وقال الأزهري: هو محبة الإنسان للشيء وغلبته على قلبه، ومن قوله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾⁽²⁾، أي عن شهوتها، وما تدعو إليه من المعاصي، ومتى تكلم بالهوى مطلقاً لم يكن إلا مذموماً حتى ينعت بما يُخرجُ معناه كقولهم: "هوى حسن، وهوى موافق للصواب، والهوى إرادة النفس، والجمع أهواء ومنه قول أبي ذؤيب:

زجرت لها طير السنيح فإن يكن هواك الذي تهوى يصبك اجتنابها⁽³⁾

ويقول ابن القيم الجوزية: "فإن حبس نفسه ومنعها عن إجابة داعي ما لا يحسن إن كان خلقاً له وملكة سمي صبراً....، وأما الاصطبار فهو أبلغ من التصبر، فإنه افتعال للصبر بمنزلة الاكتساب فلا يزال التصبر يتكرر حتى يصير اصطباراً"⁽⁴⁾.

ولقد جعل الجوزية الهوى مرادفاً للشهوة التي يجب على المرء محاربتها بالصبر، يقول صل الله عليه وسلم: «العاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى»⁽⁵⁾. ولابن الجوزي كتاب مخصوص في ذم الهوى، فلا يذم الهوى على الإطلاق، وإنما يذم المفرط منه.

(1) ابن منظور، المرجع نفسه، ص 373.

(2) النازعات، آية 40

(3) محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق ضاحي عبد الباقي وعبد اللطيف محمد الخطيب، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي / المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط 1، 2001، ج 40، ص 326. (مادة هوى).

(4) ابن قيم الجوزية (شمس الدين أبي عبد الله محمد)، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، دار الامام مالك للكتاب، الجزائر، ط 1، 2007، ص 29-31.

(5) الجوزية، نفس المرجع، ص 35.

يقول أبو حامد الغزالي: أعلم أن عجائب القلب خارجة عن مدركات الحواس، لأن القلب أيضا خارج عن إدراك الحس⁽¹⁾.

وعن الفرق بين عمل العلماء وعمل الأولياء، يقول الغزالي: "فإن العلماء يعملون في اكتساب نفس العلوم، واجتلابها إلى القلب وأولياء الصوفية يعملون في جلاء القلوب وتطهيرها وتصفيتها وتصقيها فقط"⁽²⁾. وتعدّ هذه التعريفات مدخلا رئيسا لتحديد مضمون أو المحددات المفهومية للمصطلح؛ كون الهوى ظاهرة يمكن أن تتجسد في صفات يتداولها الناس ويصفون بعضهم بعضا استنادا إلى إمكاناتها في الدلالة والتوقع الانفعالي فالبخل والحقْد والغيرة وغيرها من الصفات هي كيانات تعيش بيننا تتجسد ضمن التقطيعات الثقافية المخصوصة التي يتحقق داخلها هذا الهوى أو ذلك، لتصبح حدود هذا المفهوم في حد ذاته غير قابلة للحجز والتخطيط.

إن الهوى - بذلك - ليس عارضا أو طارئا، إنه جزء من كينونة الإنسان وجزء من أحكامه وميولاته وتصنيفاته يرى فيه البعض جنونا يسير ضد العقل "كأمثال كانط، ويعتبره البعض شكلا من أشكال انصياع الروح للجسد، ويعتبره فريق ثالث "حصيلة لفوضى تصيب الحواس وتقود العقل إلى الانهيار والتلاشي، وهذا ما جعل للهوى مكونا اجتماعيا؛ إذ يحكم اندماج الفرد في النسيج الاجتماعي الذي يطبع على قلبه أحاسيس متنوعة ومختلفة (العدالة والحب والكراهية والكبرياء...) "⁽³⁾؛ ذلك أنّ منطق الهوى عند الأغنياء والحاكمين يكن في إثبات الذات بالتميز عن الآخرين وبالسيطرة عليهم، ليصبح منطق الأهواء (التشابه والاختلاف) نوعا من المنطق، ألبورجوازي الصغير الذي يقوم على إثبات الذات بمقارنة وضعها مع وضع الآخرين⁽⁴⁾.

(1) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، تحرير حافظ العراقي، ط 1، 1975، دار الفكر، سوريا، المجلد الثالث، ج 8، ص 38، (كتاب شرح عجائب القلب).

(2) أبو حامد الغزالي، مرجع سابق، ص 38.

(3) محمد الداهي، المرجع نفسه، ص 64.

(4) محمد الداهي، المرجع نفسه، ص 65.

لكن هناك فرق بين الهوى باعتباره تجاوزا للحدود، وبين المشاعر التي تشير إلى حالات الاعتدال التي تفرضها الثقافة وتحتكم إليها من أجل قياس حجمها وتصنيفها حسب الكثافة والامتداد، وهذا ليس مدعاة التعرف على العلامات الدالة على الأهواء بل هو للاهتمام بآثارها المعنوية كما تتحقق في الخطاب⁽¹⁾.

فالهوى من حيث الطبيعة وممكنات التركيب يعد سلسلة في الحالات الانفعالية التي تتطور خارج البعدين المعرفي والتداولي، ويشكل مسارا آخر يطلق عليه البعد الانفعالي، فهو محاولة تقليص تلك الفجوة الفاصلة بين المعرفة والحس، كما أنه ليس الانفعال المرافق للأفعال، إنه طاقة خاضعة لمفصلة تتم وفق آليات بنيوية مخصصة⁽²⁾؛ فلا يتحقق له شرط التداول اللغوي إلا إذا خضع لثلاثة معايير رئيسة، أن يكون مسندا إلى المتكلم لا إلى غيره، وأن يكون مصوغا في الزمن الحاضر، وأن يكون بمجرد التلفظ به يقتضي فعلا أي إنجازا.

إن الكون الهووي - بذلك - للفرد يعبر عن خصوصيته، ويجلي أسطوره الشخصية فيما يخص تامين أهواء أو نجسها، لأن الإرادة هي أساس مأساة الإنسان، فعندما تكون الرغبة غير مشبعة ينتج عنها الضجر والازدراء، فيتولد الإحباط والعذاب وهكذا، فعادة ما ترتبط الإرادة باللا. معنى والتناحر، لأن هذه التغيرات في المواقع تقتضي منهجا ممكنا لدراسة العلاقات بين النص والنص المحيط والسياق⁽³⁾.

والمعنى في كلمة الهوى يجدها تثير كلمة أخرى وهي الانفعال، وقد ورد في تاج العروس وفي مادة (فعل): الفعل أخص من العمل، ولكل فعل انفعال، ويقال لما يقصد الفاعل إلى إيجاد وإن تولد منه⁽⁴⁾.

من خلال هذا التعريف ارتبط الانفعال بالفعل والقصد، وهو الأمر الذي نفاه كل منغرياس وفونتاني في قولهما: إن الهوى ليس الكلية الانفعالية، إنه أحد أشكال وجودها أي

(1) غرياس، وفونتاني، المرجع نفسه، ص 10.

(2) الجيرداس، ج، غرياس، وجاك فونتاني، المرجع نفسه، ص 13.

(3) غرياس وفونتاني، نفسه، ص 149.

(4) الزبيدي، تاج العروس، ج 30، ص 184-188.

ما يترتب عن انشطار الذات لحظة اصطدامها بالعالم ومن جهة ثانية من خلال أشكال التحقيق هذه، رغبة في العودة إلى هذه الكتلة والانصهار فيها من جديد في وحدة مطلقة⁽¹⁾، ولا يتحقق ذلك إلا بفعل الاستهواء الذي هو القوة الانفعالية الكامنة التي يستند إليها خطاب الهوى لرسم عوالمه⁽²⁾؛ فالاستهواء هو المادة التي تتشكل منها الأهواء، وبدون هذا الاستهواء لا يمكننا الحديث عن الأهواء، كما أن الأخيرة هي وحدها ما يشير إلى وجود مادة سابقة على تحققها الفعلي.

كما يجد متتبع مفهوم الهوى مصطلحا آخر عرف به، وهو الإحساس، الذي يدل على الوجود؛ نقول أحسّ: علم ووجد، والإحساس العلم بالحواس، وأحسست أي ظننت ووجدت وأبصرت وعلمت⁽³⁾، والحس هو الصوت الخفي، ومنه فالحس -بدلالته- يمتدّ ليدلّ في ذاته على حيثيات تحليل الهوى وآليات اشتغاله.

أي معالجة كيفية تشخيص الأحاسيس في النص ومدى استيعابها لمقومات جديدة تغني رصيدها الدلالي، ثم التدليل على استقلالية البعد الانفعالي، وتميزه عن البعدين التداولي والمعرفي، عن طريق توظيف مفهوم التطويع التلفظي، وذلك ببيان دوره في التأثير على المتلقي وبيان المسار الاستهوائي^(*)، والترسيمة الاستهوائية.

(1) غريغاس وفونتاني، المرجع نفسه، ص 28.

(2) الجيرداس، ج، غريغاس، وجاك فونتاني، ص 31.

(3) الزبيدي، تاج العروس، ج 15، ص 536-537.

(*)

يتطلب هذا التحول في الحالة من قبل الذات المستهوية برنامجا استهوائيا، وهذا يفترض أن يكون العامل الذات محفزا من المرسل، يقنعه فيقتنع بالإيجاز، نسمي هذه العملية تحفيزا أو فعلا للفعل، حيث قام المرسل المحفز (البنوة) بإقناع معنوي للذات (الحب)، ولا بد بعد ذلك للعامل الذات المستهوى من تملك الشروط الضرورية لإنجاز الفعل، وفق قيم جيئية مجملة في أربع قيم: وجوب الفعل، والقدرة على الفعل، ومعرفة الفعل، وإرادة الفعل، وتسمى هذه الشروط والقيم الجيئية قدرة، أو كينونة الفعل.

كما أن مقولة الاستهواء phorie هي مقولة مركزية في كل البناء النظري الخاص بالأهواء ودون تحديد موقعها ضمن هذا البناء، فإننا لن نستوعب الأسس التي انبنت عليها السيمياء الخاصة بمجالات النفس؛ ذلك أن الاستهواء لا يختلف كثيرا عن المستوى السيميائي السابق عن التجلي الخطاب في سيمياء الفعل. يتضمن أشكال الوجود المجردة للأفعال التي ستتحقق في مستوى سطحيّ تدركه العين بشكل مباشر، إنه بذلك رديف لمقولة التوتير^١ والمآل وكل العناصر الدالة على سيروية تقود، ضمن مسار توليدي، من المتصل إلى حالات الانفصال التي تمنح وحدها الهوى فرصة التحقق في نسخة خاصة به.

في دراسة من هذا القبيل تلجأ السيميائي إلى خلق موضوعها الممكن، ولذلك سعى كل باحث إلى إضفاء المشروعية للمصطلح المختار، يقول فريد الزاهي في ترجمته لقول غريماس وفونتاني: "يقدم الإحساس نفسه بالمرّة كشكل للوجود بديهي سابق على كل بصمة وموجود بفضل تحييد كل أشكال العقلانية، فهو حسب البعض يتماهى ومبدأ الحياة نفسه. وإذا نحن وضعنا الهوى فيما وراء انبثاق الدلالة وجعلناه سابقاً على كل تفصيل سيميائي في شكل "إحساس" خالص فسيكون الأمر كما لو كنا نمسك بالدرجة الصفر للحيوي، والمظهر الأدنى للوجود"⁽¹⁾. فمقولة الإحساس تشكل الحد الأدنى الإستيمولوجي الذي يتم عليه بناء الموضوع السيميائي، الذي يتلخص في دراسة الآثار الخطائية لعملية الإحساس"⁽²⁾.

كما نجد مصطلحا آخر هو "الشعور"، والذي يدل في معناه اللغوي على العقل والمعرفة والإعلام والدراية "شعر به أي عقله، أشعره الأمر أعلمه"⁽³⁾؛ فالمعنى لا يدل على ما تقوله الكلمات فحسب، إنه بالإضافة إلى ذلك وجهة نظره أي قصديته وغايته، كون الانفعال طاقة حسية دنيا، وهو ذاته ما أقره الباحثان في هذا الفرع السيميائي⁽⁴⁾. واستناداً إلى هذه الرؤية، تبحث السيميائي في ذاكرة الهوى، وفي تحقيقاته وفي قدراته على توليد نسخ فرعية هي المدخل الأساس من أجل تحديد حالات الانفعال المعتدل.

إنالهوى شعور يدفع أو ينزع إلى الفعل، ويعد بمثابة أهلية تمكن من الفعل أي ما يسعف على الانتقال من إرادة الفعل إلى القدرة على الفعل. وهكذا يعتبر الكون الاستهوائي امتداداً للكون الجهي. وفي هذا الصدد يبدو من الضروري الاستعانة بتنظيم جهي للكينونة، وإن كان مستقلاً عن الفعل المحتمل فهو يعتبر عدة جهية محددة للهوى بصفته أثراً معنوياً؛ فهوى الاندفاع يعتبر طريقة في الفعل، ويشمل على «فائض جهي» (يجمع بين إرادة الفعل والقدرة على الفعل (يمكن من توقع الإرادة والقدرة والمرور إلى الفعل)، وفي هذه الحالة

(1) فريد الزاهي، نفسه، ص 44.

(2) فريد الزاهي، المرجع عينه، ص 44.

(3) الزبيدي، تاج العروس، ج 12، ص 177.

(4) ينظر: غريماس، وجاك فونتاني، المرجع نفسه، ص 18

تكون الذات منفصلة عن موضوعها (جهة: معرفة عدم الكينونة)، ومتشككة من النجاح في مهمتها (القدرة على عدم الكينونة) ومصرة، في الآن نفسه، على إدراك مبتغاها (إرادة الكينونة)، فعلى الرغم من غياب إرادة الفعل بسبب المعوقات فإن العنيد لا يتخلى عن برنامجه (مشروع الفعل المحتمل)، فالأمر يتعلق بفائض جهي هو الضامن لمواصلة الإنجاز، وحضور هذا الفائض هو ما يفرض علينا صياغة عدّة هوية من خلال حدود تنظيم جهي للكينونة، لا من خلال حدود الفعل.

ومن خلال هذا، تتضح بعض المفارقات: تخرج «إرادة الفعل» عن «عدم القدرة على الفعل»، وتزداد قوة داخل تنظيم جهي للكينونة. وهو ما يقتضي الافتراض بوجود تركيبين يهم أحدهما التركيب الجيهي للفعل، ويخص ثانيهما التركيب الجيهيالهووي. وفي حال هوى «العناد» تكون «أهلية الفعل» مجرد صورة افتراضية أو تصاورا؛ ذلك «أن العنيد يريد أن يكون، داخل ما سميناه التصاور الهووي للعناد، «ذاك الذي يفعل»، وهو ما لا يعادل «يريد أن يفعل»⁽¹⁾.

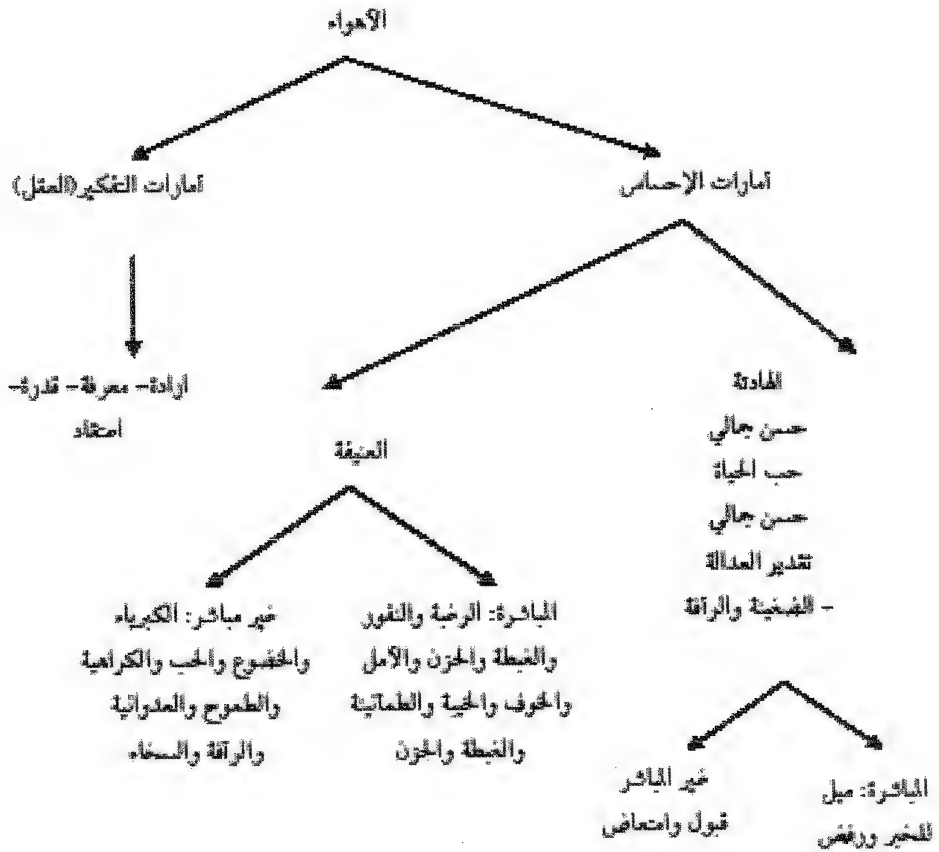
وينشطر العقل إلى محتوين، وهما الأفكار (العقل) والإحساسات (الأهواء)، وما يميز المرء عن غيره من الكائنات هو ما يتمتع به من رد فعل طبيعي إزاء كل ما هو طبيعي، وما يجعله يستجيب للأحداث التي تؤثر في حساسيته، ويلعب الألم والمتعة دورا كبيرا في دعم الانسجام والتوازن بدلا من القطيعة والعماء. وهكذا يضطلع الهوى بالتنظيم الذاتي الذي يحفز الفرد على استعادة توازنه في الحياة وتحويل إخفاقاته وإحباطاته إلى قوة⁽²⁾.

وعليه يتوجب على كل دارس باحث التعامل مع المصطلح كعائد إحصالي على الوجدان والطاقة الشعورية التي يملكها وكذلك على البنية الذهنية والتركيبية النفسية وغيرها، ذلك، وهذا ما يحتم عليه التعامل مع مصطلح دون مصطلح آخر؛ فمفاهيم مثل: الرغبة، النظام، المجتمع، الوحدة، الفضاء... إلخ، هي مفاهيم محكومة في وجودها وأشكال تحققها بمجموعة من المتغيرات التي يعود بعضها إلى الدائرة المفهومية ذاتها ومنها ما يعود إلى

(1) غريماس وفونتاني، نفسه، ص 116.

(2) محمد الدّاهي، سيميائية السرد، ص 61.

المتغيرات الثقافية بتميزاتها الجغرافية والمناخية والعقائدية ومنها ما هو مرتبط بالأساس اللغوي ذاته، أي ما يتعلق بالوحدات المعجمية ووجهها التركيبي والأمـر ليس مختلفا في حالة التسمية والتعريف أيضا. وتتنوع الأهواء فيها كالآتي:



لقد تصوّر غريماش وأتباعه -من خلال هذا التقسيم- إمكانية وصف سيروية بين أبسط الأشكال الوجودية للقيم وأكثرها تجريدية تقود إلى مستويات تتميز ببعد تشخيصي مرئي ومتحقق في فعل إنساني مدرج ضمن وضعيات تستوعب هذه القيم وتمنحها وجودا مخصوصا ولقد أطلق على هذه السيروية المسار التوليدي وهذا المسار دال في الوقت ذاته على ترتيب خطي موجه نحو غاية، ويتحقق من خلال خطاطة سردية وعلى دينامية داخلية

تحدد النص (الواقعة) باعتبار تفاعل مستوياته لا باعتبار المضامين الدلالية التي يحملها؛ فالبنيات الأولية لا تتحدد من حيث وجهها الحقيقي إلا من خلال تجسدها⁽¹⁾.

ومنه يمكن القول، أن هوى السيميائيات هوى تركيبي دلالي لا يلتفت إلا للممكنات الكامنة التي يمكن أن تتجسد من خلال وجوده الأدنى (أي كما ورد في القواميس)، لذلك فهي لا تكثرث لما تقوله الأخلاق إلا من حيث المسارات المحتملة، أي البرامج والعلاقات البيعاملية (inter actant) التي يمكن أن تولدها الإدانة أو التثمين⁽²⁾؛ أين يمكن أن يتعالق الهوى والفعل، ولكن هذا يكون دون تجاهل أن هوى الذات يمكن أن يكون حصيلة فعل، إما فعل الذات نفسها وإما فعل ذات أخرى (الانتقال إلى الفعل) عبر عمليات: التحريك-الإغراء-التعذيب-التحري-الإخراج. الخ.

وإذا تمّ تبني مصطلح "سيمياء الشعور" التي في نظرنا تتشكل من نظريات وأكوان شعورية انفعالية تنتظم وفقها ثقافات بأكملها، فتحدد العلاقات بين الإرادة والواجب، والعلاقة بين نظرية الحاجة ونظرية الرغبة، داخل أنساق فلسفية ومعرفية، بمؤثرات البعد التداولي⁽³⁾، أي أن سيمياء الشعور تحتفي بالتلفظ، وبتداولية اللغة المعبر بها، إنه مصطلح يستجيب للضغط الجمعي ومتطلبات الحاضر وأن نفس السلسلة تعرف تبدل وتحول مع مرور الزمن.

ويشير هذا المصطلح أسئلة ذات علاقة بتنويع الحاجات الإنسانية وطرق التعبير معها وبلورتها في نسق فكري محدد، لأنه مصطلح ذو كيان ومحمل بتاريخ ورؤى وأنماط اشتغال وأشكال وجودية يتوجب على كل من يتعامل معها معرفتها وتصورها وفهمها والتفاهم معها وبها حتى يضعها في النسق المعرفي الصحيح، وحتى لا تحدث فوضى عارمة في مجال البحث الموظفة فيه.

(1) غريماس وفونتاني، المرجع نفسه، ص 25.

(2) غريماس وفونتاني، المرجع نفسه، ص 11، وينظر من نفس الكتاب ص 108.

(3) غريماس وفونتاني، سيمياء الأهواء، ص 144.

وينبغي على السيميائيين إعادة النظر في تنظيم المسار الشعوري التوليدي الذي يمثل حالة افتراضية ونشاطا قيد الانجاز، وأن يعملوا بهذا الصنيع، على تصحيح مكان الخلل وتعزيز مواطن القوة، حتى تغدو النظرية خطابا منسجما وشاملا، ذلك أن المنطقة الأكثر فاعلية في المسار التوليدي هي الفضاء الوسطي الذي يتموضع بين البنيتين السطحية (المكون الابدستمولوجي) والعميقة (المكون الخطابي)، ويهم أساسا النمذجة السردية وتنظيمها العملي أي ما يميز العامل بفعله وحده (وليس برواسبه النفسية)، وهو الشرط الأساس لتطوير سيميائية العمل، في سبيل الوقوف على بعض المتفصلات الممكنة بين عالم الشعور وعالم الإدراك الحسي، غير المعروفة بعد في السيمياء معرفة جيدة⁽¹⁾

فإذا كان غريماس قد اهتم في تصوراته الأولى بالعام، فبحث في السردية الموجهة لكل الأفعال الإنسانية، التي تشكل البنية العميقة لهذه التجربة أو القدرة الكامنة، فإنه في سيمياء الهوى، اعتمد الخطاب والتجلي، أي التفرد، وهو بذلك انتقل من البحث في العام، إلى الكشف عن المخصوص، وفق سيمياء التلفظ أو ما أطلق عليها (Sémiotique situationnelle) أي سيمياء المواقف أو سيمياء التفاعل، والتي تهتم بالانتقال من الأمر الذي يجمع إلى المتفرد الكلامي الخاص، الذي يفرق الذوات بعضها عن بعض ويميزه، والتي تضع في الحسبان مشكلة انبثاق المعاني والتسويق (La contextualisation)، أي وضع الظاهرة في علاقة مع إطار مرجعي من أجل وصفها وتقييمها⁽²⁾؛ وذلك في سبيل أن لا نقع في خطأ التأويل النابع من أهوائنا؛ ذلك لأن البحث عن المعنى (أوالأويل) في التعبيرات الإنسانية الاجتماعية (الكلام- السلوك- المظهر- الانفعالات- المشاعر- شبه اللغة... الخ) مصدره الأساس هو الاتصال بين-ثقافي⁽³⁾، كونها تراعي السياق اللغوي المعياري والموقف الثقافي الاجتماعي في التحليل.

(1) جاك فونتان، سيمياء المرئي، ترجمة: علي أسعد، دار الحوار، سورية، ط 1، 2003، ص 219.

(2) ينظر: أ.د. ألكس مكيلي، الوجيز في سيمياء المواقف، ترجمة: وحيدة سعدي، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، 2008، ص 11. وما بعدها.

(3) ينظر: أ.د. ألكس مكيلي، المرجع عينه، ص 175.

هذا نموذج فقط لما يمكن أن يكون عليه حال المصطلح عندما ينظر إليه باعتباره دالا لغويا فحسب دون الاهتمام بأصوله المعرفية التي يشكل التأمل فيها البداية الصحيحة نحو استيعاب فكر الآخر واستنباته في تربة جديدة لكي تكون له مردودية حقيقية، فالتلاقح المعرفي بين الحضارات لا يمكن أن يكفي بنقل الدوال المعزولة عن سياقها الثقافي فيما يهم ليس ما يرى بالعين، وإنما الأهم هو أن نتعلم كيف نرى.

وبداية الرؤية اختيار المصطلح العلمي المناسب، إذ يمارس المصطلح دورا أساسيا وفاعلا في تكوين المعرفة، وفي ذات الوقت يمكن القول أن حقل هذه المعرفة التي يتشكل فيه المصطلح يعمل على توجيه مفهومه وتحديد دلالاته. كما بات معروفا أن المعرفة التي هي خلاصة الممارسات العقلية للإنسان تتشكل ضمن أطر ثقافية وحضارية محددة، وتدخل في علاقة حوار ومثاقفة مع أطر ثقافية وحضارية..⁽¹⁾

لیدخل الآخر مؤثرا في إضفاء دلالات أخرى على المصطلح، أو لخلخل الدلالة القارة له، كما حدث مع هذا المصطلح، ونشير في هذا المقام إلى هيمنة الثقافة الغربية والتي هي مظهر من مظاهر "المركزية الغربية" على آلية عمل المصطلح في الدراسات العربية بل في الثقافة العربية ككل، الأمر الذي يجعلها تزيج كثيرا من دلالاتها التي كانت قد تشكلت على وفقها في الأصل. ونعتقد أنه لا يستقيم صرح أية ثقافة ما لم تغلح في إنتاج معرفة خصبة وجديدة، توجهها اصطلاحات واضحة الدلالة⁽²⁾.

وهذا ما يبعد مظاهر عديدة كاضطراب دلالة المصطلح، وتعارض مفاهيمه، وشيوع الغموض والقلق في التراسل العلمي بين مصادر المعرفة، وجهات التلقي، الأمر الذي يعرض تراكم المعرفة ذاته إلى كثير من الصعاب منها: (عدم استقرار المفاهيم - اضطراب الوصف - الخلل في الاستقراء - والخطأ في الاستنباط واستخراج النتائج... الخ).

(1) عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة (تداخل الأنساق والمفاهيم ورهانات العولمة)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 1، 1999، ص 95.

(2) عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية...، ص 96.

واستنادا إلى ذلك، يمكن القول إن القضايا التي يثيرها المصطلح، قضايا لا تخص الدوال اللغوية فقط، بل تعود أساسا إلى الأصول المعرفية الذي تسند المصطلح وتحدد هويته ومردوديته العلمية في تربته القديمة والجديدة على حد سواء؛ ذلك أن كل مصطلح لا يدرك إلا من خلال موقعه داخل تصور نظري يمنحه مشروعية الوجود والاشتغال، وهي حقيقة تضمن وجود خصائص معجمية ومكونات دلالية داخل المصطلح، وهي ذات تفاعل مع ما أحيط بها من مكونات ثقافية و منطقية.

وبالبداهة أيضا أن يكون لدينا - في أقسام الآداب واللغة العربية- اختصاص اسم (علم المصطلح) يدرس فيها الطالب الأصول المتبعة في وضع المصطلح، ولا يعمل الباحثون الذين يتخصصون في هذا الحقل إلا في المصطلح، بل والأكثر من ذلك، وضع مادة مستقلة في أقسام اللغة العربية وآدابها تتضمن أبرز المصطلحات التي سوف تواجه الطالب خلال فترة دراسته الجامعية.

ومن منطلق التعامل مع هذا المصطلح، نقول أن الترجمة تثير العديد من الإشكاليات المعقدة مثل: إشكالية العلاقة بين اللغات، وعلاقة اللغة والفكر، وإشكالية علاقة الفكر والعالم الخارجي (أو المرجع).. الخ، كونها نشاط مفاهيمي ومعرفي معقد ومتشابك مع تصورات العالم. كما أن مصطلح الحداثة نفسه في تلبسه بمصطلح المعاصرة على الأرضية الفكرية العربية بهشاشتها، هو الذي سيؤدي إلى انهيار صرح المفاهيم التي لم تخرج عن رقعة هذه الهشاشة والتلبس، التي شيدت عليها. ويضعها برمتها أمام مأزقها وحتمية أزمتها، فمشكلتنا الرئيسية تنبع أساسا من استخدامنا لهذه اللغة التي نترجم بها ونترجم منها.

فقلة الأبحاث الجادة المتخصصة تستلزم مصطلحات خاصة يتعين على المترجم اشتقاقها أو توليدها بما تسمح به خصوصيات اللغة العربية وبدقة متناهية تحقق الغاية المرجوة، مع احترام خصوصية مجالات البحث، ففي سيمياء الشعور/ أو الانفعالات، بعض المصطلحات خاصة بالسيمياء والبعض الآخر خاص بعلم النفس، ولكل منهما مشكلاته الخاصة؛ لبدو السؤال الأكثر إلحاحا هو: ما الذي أنجزه أساتذة الجامعات تحديدا؟ وما هو دورهم في تنشيط الحركة العلمية؟ وما الذي أضافوه إلى ما كان سائدا؟ وما الإضافة المعرفية

والكشف المعرفي التي تشكل حصداً في اللحظة الراهنة؟ إنَّ هذا هو السؤال الجوهرى الذى يستطيع أن يشكل مصدراً لأجوبة مفسرة، فى سبيل الحدّ من المصطلحات المتعددة التى تطلق على الظاهرة الواحدة والمفهوم الواحد.

فهل سيحدث النقد الأدبى نقطة نظام وتصالح مع الذات والآخر الذى يمدّه بالمعرفة ويدخل معه فى حالات تفاعل، ليحدد سيره المنهج الدقيق. ومتى سيتخلص النقد المعاصر من الآفات التى تنهش فى جسده، وجعلته أسير حالته الراهنة؟

كما أنه لا يوجد اليوم قواعد واحدة ناظمة لوضع المصطلح فى اللغة العربية، وإذا وُجدت بعض هذه القواعد التى سعت مجامع اللغة العربية لإرسائها فإن كثيراً من العاملين فى حقل المصطلح لا يلتزمون بها؛ إذ هناك ترجمات متعددة للمصطلح الأجنبى الواحد، سببها عدم تنسيق محدد مسبق متفق عليه؛ وهذا يعنى أن اللغة العربية تعاني من فوضى النقل، واتساع مجالات الترجمة وتبانيها لما تراوحت بفعل التأويل وما أدراك بالإشكاليات التى يطرحها هذا الفعل، فباتت ترجمة الكلمة الواحدة متغيرة من بلد إلى آخر ومن باحث إلى باحث آخر؛ إذ قد يدل المصطلح الواحد على دلالات مختلفة قد تصل حدّ التناقض أحياناً، وذلك حسب انتماء المترجم وانتماء المصطلح إلى هذا التصور النظرى أو ذاك، واعتقادنا إزاء ذلك، أن نشاط الهيئات والأطر التقليدية التى تجتمع دورياً أو بمناسبة لن يجدي نفعاً طالما لم يجتذب نحوه معشر الميدانيين نقاداً ودارسين ومدرّسين وأهل كفاءة وتخصّص، ولم يشركهم فى مناقشة الملف وطرح المسائل والبحث عن البدائل ثم طالما لم تنهض الإدارات السياسية بما عليها.

فمن المشكلات التى يعاني منها المصطلح العربى بعامّة والنقدي بخاصة وجود باحثين غير متخصصين يساهمون بوضع المصطلحات ويمارسون استخدامها. وتبرز المشكلة هنا فى عدم قدرة هؤلاء على وضع المصطلح الصحيح فى صيغته الصحيحة، وسياقه المناسب، لأنهم غير خبيرين به، إلى جانب أن عدم تقديرهم لأهمية المصطلح يدفعهم إلى الاستغراق فى إنتاج مصطلحات كثيرة قد لا تكون هناك ضرورة لإنتاجها مما يؤدى إلى الفوضى والتعدد، كون النقد العربى يعتمد أساساً على نظريات نقدية مختلفة وافدة أساساً

من الغرب، ومنتجة في عالمنا العربي إما من خلال الترجمة، أو من خلال دراسة نقدية حولها تؤيدها أو تنقضها.

فماذا سيقال إذا أضاف النقد، وإحدى مهامه التفسير، الغموض الى ما هو غامض؟ ولعل السؤال الذي يثار الآن حول ضرورة النقد لم يأت من فراغ، ولعله أثر بعد شيوخ تلك الكتابات النقدية التي لا يفهمها الا من كتبها وقلة اخرى تخرج منها دائرة المهتمين بالأدب ودارسيه ممن لا يربطونه بالفلسفات المعاصرة ويدرسونه مقترنا بها، وكل الأمر يعود إلى اختلاف واضح حول النظم الاصطلاحية في تلك المحاولات، حيناً، وغموض وعدم تمكن من فك تلك النظم، حيناً آخر مما جعل تلك الجهود صرخات مخنوقة لا صدى لها، وهو ما يمكن توقعه لأية محاولة جادة تنهج المنهج ذاته.

وذلك في الوقت الذي كان النقد العربي مطالباً بتجاوز مراحل الاستيراد والاستلاب والتماهي، إلى مراحل إنتاج مفاهيمه وأدوات إبداعه، وخلق جهازه المصطلحي النابع من رؤيته وتجربته، بعيداً عن التلقف والتلفيق، ذهب في طريق انغلاق أبحاثه على نفسها، وإلى صعوبة استيعابها من قبل المتلقي الآخر حتى لو كان متخصصاً، ومن ثم إلى قلة فائدها العلمية.

نشير في آخر الأمر، إن أمس ما تحتاجه الثقافة العربية الآن، هو أن تراجع ذاتها، مراجعة انتقادية، لتخلص إلى تصفية المنظومة الاصطلاحية التي تستعين بها، عسى أركانها أن تأتلف وتكون نسيجاً معرفياً، تتجانس فيه الفروض، ويتضح فيه المصطلح وتستقر فيه إجراءات المنهج، لتخلص إلى ثقافة تتكافئ فيها الإجراءات بالنتائج؛ لينتهي بذلك الانشطار الحاصل الذي أخذ بشأن المنظومة الاصطلاحية العربية على مستوى النقد العربي، وجرّها في أزمة تتضاعف يوماً بعد يوم، وهي بداية لحداث الموت المرتقب، المزوج بغصة الخروج من التاريخ الأدبي والمعرفي للإنسانية كطرف فاعل إلى طرف مفعول فيه، يعيش على لحظة الماضي، ويقف من فتات الآخر.

إنّ الحال العلمية عندنا تشكو من عديد من الأمراض منها: التكديس بدل التنظيم، والجمع بدل البناء، والتقليد عوض الاجتهاد، والفردية بدل الجماعية، والارتجال بدل

التخطيط، والفوضى عوض النظام، وغير ذلك من المظاهر المرضية التي تعرقل سير البحث العلمي، والتي ساهمت بشكل فعال في فوضوية البحث على كل المستويات (المصطلح والمنهج والمعلومة..)، وإزاء كل هذا هل سيحدث الدارس أو الباحث العلمي العربي لحظة التصالح مع الذات، ويحقق نقطة نظام بناء، ليفكر قبل السير في عملية السير ومراحله وكيفية تحقيقه وآلياته، الأمر الذي يدفعه إلى الاجتهاد والتحكم من المعلومة قبل إصدار الأحكام، أم أننا سنظل سائرين وكفى وحسبنا أننا نسير.

ثانياً: الاشتغال السيميائي للأهواء في الخطاب الأنثوي

قراءة في المجموعة القصصية:

- "شهرزاد تبوح بشجونها"

قبل البدء: يعدّ خطاب السرد القصصي خطاب الإفضاء البوحي بلا منازع، ولا سيما خطاب حواء الحاملة أحياناً والغاضبة أحياناً أخرى والمضطهدة أحياناً ثالثة، والثائرة أحياناً رابعة وهكذا، كونها حواء الأحاسيس المجتمعة؛ فمن خلال هذه الميزة استطاعت حواء أن تبرز كصوت سردي مميز، جاءت القصة -فيه- خطاباً سيميائياً لتمظهراتها الهوائية، فخلقت مساحات، لا بأس بها، يظهر فيها ومن خلالها الهوى كموضوع أساس لفرع معرفي سيميائي حديث سمي سيمياء الأهواء وعليه، تحاول هذه الدراسة استنطاق الإفضاءات البوحيّة واستجلاء التمظهرات الهوائية في خطابات أنثوية مختلفة خطتها لنا (29) شهرزاد عربية، فانتظمت في المجموعة القصصية المعنونة "شهرزاد تبوح بشجونها".

وسيمياء الأهواء/ الهوائية (Sémiotique des passions) من الأبحاث الحديثة في الدرس السيميائي، كما سبق الذكر - موضوعها الهوى، إذ تحاول من خلاله ربط حركية العمل بحركية شعورية هوائية موازية؛ فالهوى ليس عارضا أو مضافا أو طارئا يمكن الاستغناء عنه أو التخلص منه، كما يمكن أن نتوهم، لأنه جزء من كينونة الإنسان وجزء من أحكامه

وميولاته وتصنيفاته⁽¹⁾؛ وعن سيمياء الأهواء يقول غريماس: "إن بلورة سيميائيات للأهواء معناه الانحياز إلى تمثيل البعد السردي للخطابات التي يمكن اختصارها فيما يشبه منطقاً للفعل، وفي تصور للذات التي ستكون محددة بشكل كلي من خلال فعلها والشروط الضرورية لتحقيقه"⁽²⁾، كما أن الحكم الأخلاقي لا ينصب على الشاعر في ذاتها بل يحكم على الفائض الانفعالي الذي يحوّل هذه المشاعر إلى هوى، والحديث عن الهوى محاولة لتقليص تلك الفجوة الفاصلة بين المعرفة والحس"⁽³⁾؛ وفي نظرية الأهواء، يمكن القول أن البعدان الانفعالي والمعرفي ليسا متمفصلين ضمن البعد التداولي، الذي يحدد الجسد، والذي يحدد بدوره الذهن عبر معرفة انعكاسية للذات، في الوعي بالمصلحة (الجسد يؤثر ويتحكم في الذهن)، بل من خلال خلل في الاشتغال السردى.

أما الخطاب القصصي هو "خطاب التواصل على مستوى الجماعة، وهو خطاب تتعدد فيه الأصوات وتتنوع فيه المنظومات والملفوظات اللسانية، وهو يعكس صوراً لحياة الناس بمختلف فئاتهم الاجتماعية، ويتناول تفاصيل الحياة اليومية، وهو أقرب لأن يكون مرآة للجماعة والتواصل"⁽⁴⁾؛ فالقصة-كخطاب هوى جماعي-رسالة تحكي صيرورة وهوية ذات، التي تختلف وتتنوع بحسب الانفعال والتوتر⁽⁵⁾.

ويقودنا الحديث عن الهوى إلى حديث آخر عن الاستهواء؛ ذلك أن الأخير هو المادة التي تتشكل منها الأهواء، فبدون هذا الاستهواء لا يمكننا الحديث عن الأهواء، كما أن الأخيرة هي وحدها ما يشير إلى وجود مادة سابقة على تحققها الفعلي؛ "إن الاستهواء هو القوة الانفعالية الكامنة، التي يستند إليها خطاب الأهواء، ليرسم عوالمه"⁽⁶⁾. "قيمة القيمة"-في

(1) أليجيراداس غريماس وجاك فونتي، سيميائيات الأهواء (من حالات الأشياء إلى حالات النفس)، ترجمة وتعليق: سعيد بنكراد، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2010، ص09.

(2) غريماس وفونتي، نفسه، ص145.

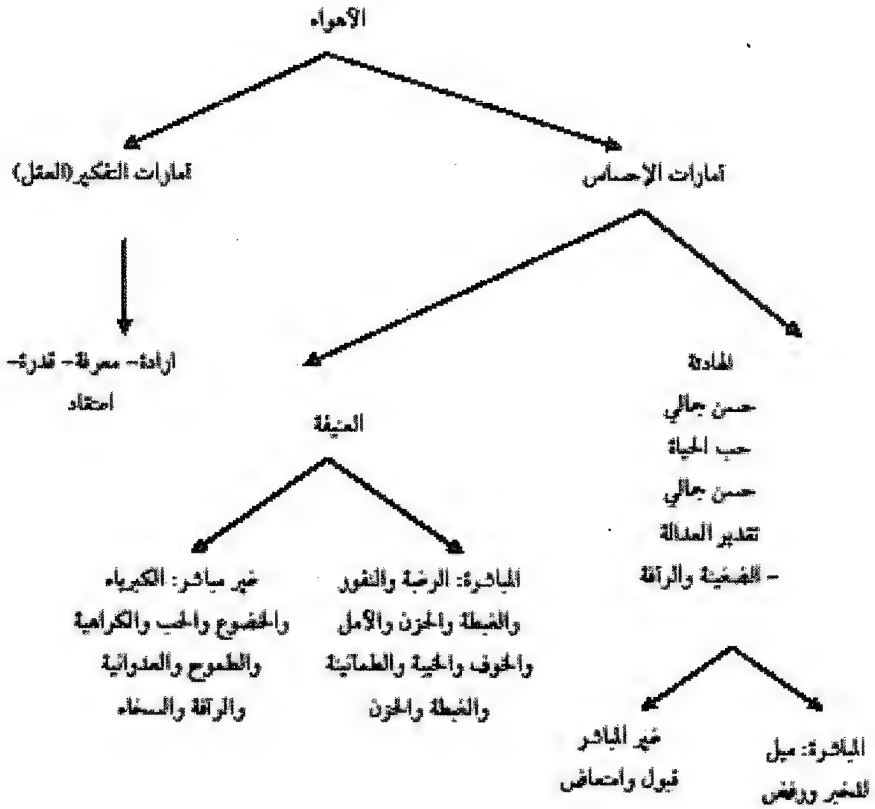
(3) غريماس وفونتي، نفسه، ص13.

(4) ميمى العيد، في مفاهيم النقد وحركة الثقافة العربية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص315.

(5) ينظر: محمد الداوي، سيميائية الأهواء، عالم الفكر، العدد3، المجلد35، يناير. مارس 2007، ص215.

(6) غريماس وفونتي، نفسه، ص31.

ذلك - تدل على المحددات الانفعالية التي تفرض على الموضوع؛ ذلك أن القيمة التي تمنح في حالة الهوى إلى الموضوع لا تتحدد من خلال بعدها النفعي، بل من خلال ظلال دلالية أخرى من الطبيعة الانفعالية⁽¹⁾. وعليه، تتنوع الأهواء فيها كالآتي:



ومنه يمكن القول، أن هوى السيميائيات هو هوى تركيبي دلالي لا يلتفت إلا للممكنات الكامنة التي يمكن أن تتجسد من خلال وجوده الأدنى (أي كما ورد في القواميس)، لذلك فهي لا تكثر لما تقوله الأخلاق إلا من حيث المسارات المحتملة، أي

(1) غريماس وفونتنی، نفسه، 33.

البرامج والعلاقات البيعاملية (inter actant) التي يمكن أن تولدها الإدانة أو التثمين⁽¹⁾؛ أين يمكن أن يتعالق الهوى والفعل، ولكن هذا يكون دون تجاهل أن هوى الذات يمكن أن يكون حصيلة فعل، إما فعل الذات نفسها وإما فعل ذات أخرى عبر عمليات: التحريك-الإغراء-التعذيب-التحري-الإخراج..الخ.

1- شهرزاد تبوح بشجونها والكتابة العربية:

"شهرزاد تبوح بشجونها" هي مجموعة قصصية تتألف من (38) قصة ل (29) قاصة عربية كانت كل واحدة منهن شهرزاد مكانها ووطنها وأهوائها، اتخذت في كل نبذة من نبرات قصتها دور البوح والكشف الصريح لخفايا وخبايا أمور رأتها هي وحدها بحسها الأنثوي، واستشرافها الطفولي، وصوتها الصارخ الفاضح، لإفشاء أسرار وقضايا مجتمعتها؛ حتى تقدم رؤية، وتجدد ضميرا حيا، وتحدد منظورا خاصا في كتابة جاءت أكثر اهتماما بالقلق النفسي والتوتر العائلي، وبالتجريب المتواصل للأشكال والاستبطان العميق للذات والتقطيع الواضح للأحداث مما يؤدي إلى التباس المعنى وضبابيته وكثافته وترميزه في الكثير من الأحيان⁽²⁾، لأن "كل إمكان دلالي هو في الواقع الأمر استعمال خاص للكلمة"⁽³⁾؛ كما أن كل قصة حوت في طياتها صورة تقريبية للقارئ الذي يمكن استقبال نصها بشكله ومضمونه وإعطائه الفعالية المطلوبة⁽⁴⁾ ضمن معطياته الدلالية، ووفق ما يعتمد عليه من فاعلية الحركة التركيبية، وشمولية داخل أواصر وحداته الهوائية، التي تعمل الذات على تحريرها؛ كون

(1) غريغاس وفوننتي، نفسه؟، ص 11، وص 108 من نفس الكتاب.

(2) شهرزاد تبوح بشجونها، مجموعة قصصية (إبداعات قصصية لنخبة من كاتبات العربي)، الكاتب الواحد والأربعون، 15 يوليو 200، الطبعة الأولى، مجلة العربي، كتاب العربي، وزارة الإعلام، الكويت، ص 07.

(3) سعيد بنكراد، السيميائيات والتأويل (مدخل لسيميائيات ش.س بورس)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 1، 2005، ص 164.

(4) المصطفى الشاذلي، سيميائيات التلقي في مقاربة نص السيرة الشعبية (سيرة بني هلال أمؤذجا)، من قضايا التلقي والتأويل، جامعة محمد الخامس، المغرب، مناظر رقم 36، ط 1، 1994، ص 137.

الذات في مرحلة التوتير^(*) الأولي لا تتحدد إلا من خلال إرادة ومعرفة وقدرة واعتقاد، وهي الأدوات الضرورية لكل فعل ولكل كينونة⁽¹⁾.

وشهرزاد هي الجراة والتحدي، الساحرة بكلامها، الجذابة بحكاياتها، مبحرة دائمة بصورها وأهوائها وعواطفها في تلك الذهنية الجماعية، وفي طرقات ودهاليز وعائلات الوطن، تعبر عن زمن فات وتستبق به آخر آت، وكان الكلام تعدى ذاته، بل سما فوقها حتى امتلأ بالصمت ونطق بليغا، ليدخلنا كلام شهرزاد في فروق تمييزية بين المسموح والمحظور؛ إذ كتبت هذه الافضاءات البوحية لتتعدى كل كلام، فتعبر عن كلام مقبور خفي ومخزون داخل ذاتها.

وعليه، ستطرح مجموعة "شهرزاد تبوح بشجونها" القصصية قضايا المرأة أو شيئا منها أو أمورا تتعلق بها، تنطلق كل كاتبة فيها من ثقتها بنفسها وباكتمال إنسانيتها، وقدرتها على بناء موقعها الفني الواضح⁽²⁾ والعاطفي في نص قصتها؛ الذي يحتوي على تعليمات محددة (instructions inter précatives oréenees)، وموجهة عبر أنساق لغوية ودلالية معينة، كما نجد تعليمات تأويلية خارجية تتسم بالملاءمة والتضامن والانسجام⁽³⁾، الأمر الذي سنسعى إلى بحثه في محاولة لضبط المسارات والأنماط السردية المحققة على مستوى قصص المجموعة.

إن شهرزاد العربية في هذه المجموعة - تعطي تصورهما للعالم وترسم صورتها فيه؛ فالأمر لا يقتصر على مجرد البوح الأنثوي؛ بقدر ما يرتبط بالحضور الفاعل في صناعة الوجود عبر الكتابة، وتكييف قوانينه وقراءة أحداثه بعيون أنثوية؛ فهي رؤية نقدية للواقع والحياة، والنقد صورة لمعاني الحرية وتقييم الحضارة التي تتجلى في مختلف أشكال التعبير

(*) التوتير هو حالة لاحقة للاستهواء، وهو تصرف في المادة الانفعالية، وتوجيهها نحو التحقق، ذلك أن الاستهواء يختص بالجسد المحسوس، في حين يتكفل التوتير بحقل التوترات التي تندرج ضمن الجسد.

(1) غريماس وفوننتي، نفسه، ص 33.

(2) ينظر: بشرى البستاني، قراءات في النص الشعري الحديث، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط 2، 2002، ص 167.

(3) المصطفى الشاذلي، نفسه، ص 132.

والسلوكيات الاجتماعية⁽¹⁾، والتي نحاول بحثها في إطار ما سمي المسارات السردية والأنماط السيميائية في أبحاث فلادمير بروب (Propp) والجير داس جوليان غريماس (A.J.Greimas) وجاك فونتي (Jacques Fontanelle).

2- مسارات أهواء المرأة وعواطفها:

نشير بداية، أن ما هو أساسي في دراسة الهوى "ليس التعرف على العلامات الدالة على الأهواء، بل الاهتمام بآثارها المعنوية كما تحقق في الخطاب"⁽²⁾، والنموذج العاملي (modèle actantiel) في هذا يتحقق بذات ترغب في امتلاك موضوع تلبية لحاجات مرسل، ومن أجل غاية (مرسل إليه)، وتصادف في طريقها من يمد يد العون "مساعد"، ومن يحاول منعها من الوصول إلى موضوعها معيق.

وتحاول الكاتبات في المجموعة إرسال دلالات وأبعاد وأهواء تكشف مفارقات ممكنة، تشهدا الحكاية، من واحدة إلى أخرى، بل حتى على مستوى الحكاية الواحدة، وانتقال اللحظات الصدمية وتوزعها المبالغ والخفي، والتي تتجسد في عوامل محددة، فردية أو جماعية، مجردة أو مشيئة، ومؤنسة بحسب تموضعها في مسارات سردية منطقية؛ لأن المرسل يطلب من الذات تحقيق موضوع لفائدة مرسل إليه⁽³⁾، في سيميائية هوية، تنبع من الأول لتصل إلي الثاني، يجانبهما دائما مساند ومعارض.

ومن هذا المنطلق، يمكن تحديد أربعة مسارات هوية في هذه المجموعة القصصية:

أ- هوى الرغبة وإرادة التحرير:

تعيش الذات في مجموعة من قصص المجموعة رغبات متنوعة، تسعى بأشكال عديدة إلى تحرير روح الإنسان فيها، وإثبات الذات لكيثونتها وخلصها، ويبدأ هذا المسار بحكاية

(1) يميني العيد، في مفاهيم النقد، ص 319.

(2) غريماس وفونتي، نفسه، ص 10-11.

(3) ينظر: السعيد بوطاجين، الاشتغال العاملي، دراسة سيميائية، غدا يوم جديد لابن هدوقة، عينة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2000، ص 16 - 17.

الكاتبة سهير القلماوي-من مصر-وَحَدِي في الزحام؛ أين نجد قضايا: الحراك الطبقي، وتحرير الروح منه، كانت مرسلًا، جعلت الذات الكاتبة (شهرزاد) تبوح بموضوعات: الصراع وإثبات الذات، من منظورها الخاص، في تجربة حيمة لامرأة أرستقراطية أخفقت في حياتها الزوجية، فأثرت تحرير روحها-كفعل هووي- من قيود فرضتها العائلة والزمن، ساجدة ضد التيار، عندما تقرر العمل؛ فهو قوة وثبات وإثبات؛ وفي المقابل تقع في صراع حاد يفرضه عليها الطرف المعارض، والمتمثل في التيار الإيديولوجي، الذي يريد للحي-حيث تعمل- أن يبقى على فقره.

وألفة إدلي-من سوريا- في قصة قضية خاسرة تبوح بمسار يقترب من سابقه، ويتعلق بامرأة بسيطة عجوز طويلة عجفاء، صلبة العود، تعمل غسالة؛ إذ تقول: أنا كنت أعمل غسالة وقد انقطع رزقي منذ اقتنى الناس غسالات الكهرباء، الله يقطع رزق من أدخلها بلدنا..⁽¹⁾، تعيش بؤسا شديدا هي وابنها، والذي يعمل حمال، متزوج من امرأة بليدة لا تساعده، فهي إما حامل وإما نفساء⁽²⁾؛ فشهرزاد من خلال هذه الاستعدادات الهوائية المتواصلة، تبوح بقضايا البؤس والفقر والحرمان الذي تحياه يوميا الطبقة العاملة في المجتمع من جهة، كما تبوح في نهاية هذه القصة بقضية قلة الضمير لدى الطبيب، والتي أصبحت ظاهرة متفشية في زمن الحضارة؛ فهم من حرموا الأم من ولدها ذي ستة أبناء، وقتلوه، وسرقوا ماله، الذي باع به أرضا ورثتها أمه، فشهرزاد في قصتها رغبة بعالم أخلاقي مثالي يحرر الروح الإنسانية من كل القيود.

ويستمر هذا المسار في القصة الموالية للقاصة ذاتها بعنوان "مفتاحان"، والتي تحكي فيها خواطر مهندس شاب لم يكد ينعم بثمار عمله في الكويت حتى عاد إلى أمه النازحة عقب النكسة من القنيطرة، ولما تطوع للعمل الفدائي وذهب لوداعها دست في جيبه تيممة تحتوي على مفتاحين ورسالة؛ المفتاح الأول لبيتهم في حيفا الجديد، حيث أجبروا على الهجرة منه ومات والده دفاعا عنه، والثاني لبيتهم في القنيطرة، كما كتبت له في رسالتها: "سأضع في عنق

(1) المجموعة، ص 27-28.

(2) المجموعة، ص 28.

كل من أولادك سلسلة فيها مفتاحان..على غرار مفتاحيك، كي لا ينسوا أبدا أن لهم حقا يجب أن يسعوا وراءه حتى ينالوه"⁽¹⁾؛ هي صورة الأم المسيطر عليها هوى الاعتقاد بالحق، والتي ستسعى جاهدة إلى توريثه لأحفادها، والتمثل في واجب استرداد الوطن المقدس، وحتى إذا كتبت القصة من منظور الابن، فإن بؤرة التركيز الوجداني فيها ينبثق من هوى أنثوي صارخ، ووعي عميق بقضية "الوطن". كما يبرز هذا التلبس بصورة مغايرة في قصة "مصري" للكاتبة زينت صادق، التي تصور حنين مغترب لوطنه ورغبته في العودة لتحرر النفس من قيد الإحساس بالغربة.

ويستمر مسار هوى الاعتقاد كموضوع للذات في مسالك مختلفة تجسدها الأدبية "نعمات البحيري من مصر في قصتين "الفوارغ" و"سرقة امرأة وحيدة" ففي الأولى تبوح القاصة بهم وطني يورق كل من يسمعه، وهو تواكل الشباب على الشيوخ، في واجباتهم، وفي الثانية، تحكي لنا شهرزاد قصة شاب يتقن السرقة، فقرّر سرقة منزل امرأة تعيش وحدها وبلغة رائعة تصف لنا كيف يصطدم هذا الشاب بذكريات النضال والجهاد والبطولة لهذه المرأة والتي يجب على كل إنسان أن يفخر بها وبمعرفتها، فيخجل من فعلته ومن كلام بذيء كتبه لها في المرأة، فيعدل عن كل ذلك ويغادر المنزل وهو يتساءل كيف تجرأ وفكر في ذلك، لتجعل القاصة الذكريات مركزا لتحرر من ملذات دنيوية أبعدتنا عن المعنى الحقيقي للوطنية. وذات المسار في قصة "ثلج آخر الشتاء" لرابعة أبو دية (سوريا).

ويتغير محور الرغبة، في ذات المسار، لدى الذات إلى موضوع آخر، تحاول الكاتبة تحقيقه في قصة "عند الزاوية" لسحر توفيق (من مصر)، وهو القيم الإنسانية؛ إذ تجعل من الخبرة كقيمة إنسانية تسعى الذات المحققة إلى تجسيدها في حيز محدود جدا، هو زاوية كوخ صغير، كعلامة سيميائية لمحدودية مجالات حرية التعبير، أين يتسامر عجوزان حول مصر وقضايا الأمة وفلسفة الحياة، بتلك الوصفة الساحرة المسماة الخبرة، وتتساءل الراوية "هل وصل هؤلاء العواجيز الساحرون إلى مستوى المعرفة الكاملة"⁽²⁾؛ إذ ترغب الذات-هنا-في

(1) نفسه، ص 39.

(2) المجموعة، ص 221.

تذكير الجيل بأمور نسوها، ولا يكاد يذكرون منها شيئا، فالذاكرة هي خلاص تبحث القاصة عنه، وترغب في تجسيده.

ب- قلق العاطفة وأهواء الترقب:

القلق والترقب أهواء أخرى تحققت مسيطرة على جزء كبير من قصص المجموعة، حيث تسعى الذات من خلالها إلى الإقرار والإبلاغ بعواطف تسيطر عليها وانشغالات خاصة لا تبارحها، والقلق أعم من الخوف أو الريبة، ويمكن اعتباره مكونا من المكونات التركيبية الأساسية للغيرة⁽¹⁾؛ أين يقودنا محور الرغبة إلى حد آخر مختلف عن سابقه، عبر عملية تحول معينة تظهر فيه الذات، وهي تتوق إلى إلغاء حالة ما أو إثباتها أو حتى خلق حالات جديدة يحققها مسار سردي معين، بدايتها بقصة المرأة الأخرى "للكاتبة" سميرة غرام، ويكمن موضوعها كطرف في علاقة عنصرا داخل النموذج التكويني في مستوى تجريدي، في حين تحدد الذات باعتبارها الأداة المحركة للنموذج التكويني؛ فالموضوع -هنا- "يكتنفه نوع من الغموض نتيجة انتمائه إلى محور الرغبة ومحور الإبلاغ في الآن نفسه، فهو موضوع البحث داخل محور الرغبة، وموضوع للتبادل داخل محور الإبلاغ، وبما أن الرغبة تتحدد من خلال نفي حالة من أجل إثبات أخرى فإنها تعد تحقيقا لمعنمين متقابلين:

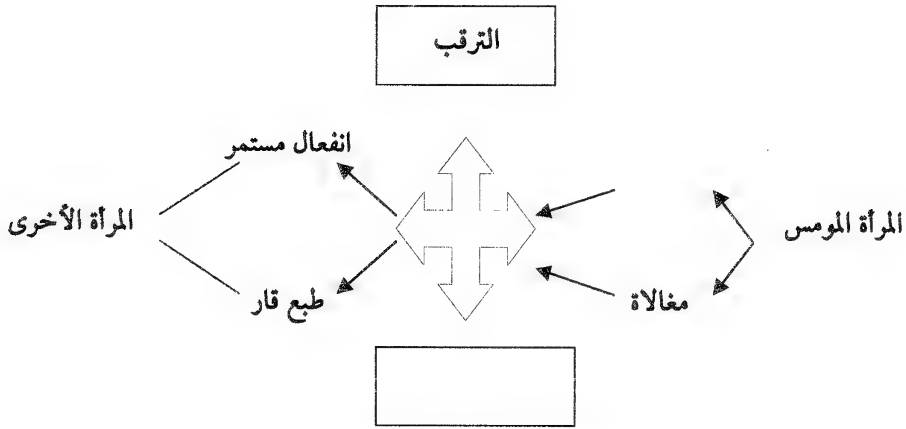
اتصال (م) انفصال⁽²⁾.

وهو ما يتجسد في قضية شائكة تبوح بها شهرزاد، وهي امرأة، تشكل انفصالا واتصالا مع الذات (الرجل)؛ الذي يقارن على مستوى هذا النموذج التكويني بين المرأة المومس والمرأة الأخرى المتزوجة؛ لتتجسد بذلك حقيقة أن المواطن العربي لا يحسن إلا مهنة المراقبة والجلوس في الأماكن العامة شبابا وكهولا وشيوخا؛ والمرأة في مقابل ذلك يأكلها

(1) غريماس وفونتي، نفسه، ص 260.

(2) سعيد بنكراد، مدخل إلى السيميائيات السردية، تانفيس، مراكش، المغرب، ط 1، 1994، ص 50.

دائماً الفضول، كما يقول بلغة القصة الرمزية: "ولكنني لم أقم.. وبفضول امرأة ضنية بتجارب السياحة بقيت أنتظر نهاية اللعبة"⁽¹⁾ وهي علامات تحيل كالآتي:



وكذلك في القنص "لنهي إيراني (من لبنان)، التي تجعل من أحداث وقعت بين 1975 و1976، تجسيدا لهيئة التربق والقنص، الذين يتقنهما بطل القصة، ويكون معه على متصلا بألة المنظار، كعلامة سيميائية للتربق العربي، الذي يدور في كل الاتجاهات، وكل الأحياء والشوارع التي تخلو من مناظر الثورة والحركة. ويتعمق هذا المسار في وصف صفات الذات وهواية المراقبة في قصة "المقهى" لليلي العثمان (من الكويت)، التي تجعل من مراقبة أحذية المارة هواية، بل عمل بطل القصة الذي يمارسه بحيرة وتساءل، فيشعر بشعور كل من يرتدي هذه الأحذية، باحثا في ذلك -عن العدل والرحمة؛ ليقول "نحتاج حينها لعمر بن الخطاب جديد" وبألم شديد يضغظ على أسنانه، ويكوم قبضته: "والله حرام، قلة تلتهم موائد الخير، وكثيرون جياح"⁽²⁾ ويذكر في آخر نهاره صور عاشقين يراهما كل يوم ولا يدري ما يرى فيها.

(1) المجموعة، ص 25.

(2) المجموعة، ص 107.

والقاصة "فاطمة حسين" (من الكويت) في قصتها "الانفجار" كموضوع في حالة اتصال دائم مع الذات العربية، العاجزة عن الانفصال عن هذا الشعور، الذي يحياه الإنسان العربي المتصل بشكل دائم بفعل الرفض والانفجار الداخلي، فتجعل القاصة الوطن العربي بؤرة اتجاهات متعاكسة، كالصندوق الأسود المليء بالمآسي وحالات اليأس والضياع، والمواطن فيه غير قادر على فعل التغيير، تسيطر عليه أهواء الترقب والقلق المصري.

ولم تبتعد ملك حاج عبيد⁽¹⁾ عن ذات المسار للبنية العائلية (ذات/ موضوع) كثيرا في قصتها في يوم بارد، والتي تجعل من قطة تجوب الشارع في يوم بارد جدا، وتتهم البطلة بأنها من طردها؛ فيعتمد الجيران ورجال البوليس إلى توبيخها-صعودا ونزولا- رمزا تعبر به القاصة عن انشغال الشارع العربي وحكامه بالأمور البسيطة وترك الأهم.

كما في "تيمو" للكاتبة سحاب محمد نوري الصمصام (من سوريا) أين تعبر القاصة عن نفس الدلالات ولكن في مسار رمزي، تصور فيه تفشي الفساد والمحسوبية وعامل الوساطة حتى في عالم الحيوان؛ حيث تصور القاصة بطلها الذي يقدم للمحاكمة على سرقة دواء من طبيب يبطري يرفض إعطاءه إياه ليتركه إلى علية القوم.

وفي الخواء تبوح دلال بن حاتم (من سوريا) بقصة شاب كان كالحصان البري، يعمل ويكد من أجل عائلته بوظيفة رسمية وأخرى إضافية، أصابه مرض صعب تشخيصه، صار خواء، تقول عنه شهرزاد "خواء من الخارج وخواء من الداخل، شيء وحيد فقط صغير بحجم الذرة يقبع في مكان ما داخل حجمتي الفارغة يساعدني على التماسك ويمنحني بصيصا من الأمل"⁽¹⁾؛ جاءت القصة بمجملها رمزية مجازية، تحاكي صورة المواطن العربي، الذي يعيش مقهورا في مجتمعه، أين تسرق أحلامه، ويستحيل مستقبله الواعد إلى طاحونة مدمرة في نقد اجتماعي وسياسي لمآح للإنسان، في حالات قلقه.

ويستمر مسار القلق العاطفي، في قصة "كوريثاج" لليلى العثمان (من الكويت)، أين تصور قلق الضمير وصراع القيم؛ بلسان طبيب أشفق على زوج وزوجته على الأجرة العالية التي طلبت منهما، وأجرى لها عملية في المحظور، عوقب على إثرها، وفصل من عمله

(1) المجموعة، ص 91.

رغم سلامة الزوجة وعدم أخذه الأجرة، وهو يردد في أعماقه سؤالاً طرح عليه: "أين ضميرك؟ ضميري، هل كان لابد من إقلاقه وزجه ليقف عقبة لحالة إنسانية؟"⁽¹⁾.

وقمة أهواء الترقب والقلق العاطفي، نجده في قصة "كابوس"، لمنى فريد (من الجزائر)، والتي تحكيها شهرزاد بلغة رمزية سيميائية، يصعب فهمها، تصور فيها بطلا لا يملك إلا قلمه، تضايقه السلطات، لأنه يلعن انقطاع الكهرباء المستمر، في حوار مع نفسه، متسائلاً كيف سمع هذا الحوار الذي لم يصرح به إلى أحد؛ إن الكاتبة بذلك تجسد صراع المثقف والسلطة، كما في قصة "ستفعلون" تحكيها د. هدى النعيمي (من قطر) على لسان امرأة بسيطة أم محمد تعيش يوميات متشابهة، تصور شهرزاد من خلالها رتابة الحياة العربية، التي تسير في مدار واحد وهو "سنفعل" و"ستفعلون" عبر محاكاة فلسفية للخضر التي ستقطعها، ولبرامج التلفزيون التي تشاهدها، وحتى أفعال زوجها وأبنائها المتوقعة والتي لم يفعلها بعد، في أجواء سادت فيها أهواء الترقب والقلق السيميائيين.

ج- أهواء الحب و انفعالات القهر:

مسار هووي آخر يكون-فيه-ألهوى نقيضاً للفعل، لأنه يشوش عليه ويفسده ويغطي على جوانب العقل فيه⁽²⁾؛ وعليه، تحاول من خلاله القاصة "سلمي شلاش (من سوريا) في "وتلطف وجه الحب" تجسيد موضوع قصتها، فتحكي من خلاله اضطراب المشاعر في النفس البشرية، على لسان الذات، التي تصرح بحبها وتتجراً على خطبة حبيبها لها بلا خجل ولا مواربة ليرفض الطرف الآخر ذلك مصرحاً أننا لم أعدك بشيء"⁽³⁾، فيحدث انفصال الذات عن موضوعها، هي قصة صراع ترغب في تغيير الأفكار الجامدة.

وتستثير القاصة ليلي العثمان من الكويت في "حالة حب مجنونة" كوامن اللاشعور الجمعي للمرأة والرجل في المجتمع الكويتي قبل تحديثه؛ فتقدم رؤيتها من منظور صوت

(1) المجموعة، ص 173.

(2) غريغاس وفونتي، نفسه، ص 10. وينظر: ص 101 من نفس الكتاب.

(3) المجموعة، ص 65.

يخاطب نفسه لعله صوت الفتاة التي تستحضر دوما صورة شاب مليح يملأ كيانها، اسمه "صويلح"، صديق شقيقها، والذي منعه الأم بصرامة من زيارة بيتها مجددا، لأن لها ابنة كبرت ونضجت، وحدا بذلك لكلام الجيران الذي بدأ يعلو؛ فيلجأ الشاب إلى حيلة "الجنون" حتى يتمكن من رؤية فتاته التي راحت تقول: "هكذا إذن يا صويلح، في ليلة واحدة تغادرك أساسات عقلك وتصير مجنونا"⁽¹⁾؛ فتحاكي الكاتبة هذا الشعور بمهارة، خاصة عندما ييوح "صويلح" إلى الفتاة بسره وهو ادعاؤه الجنون، فيفاجئ بصددها وتهديداتها، وأمنياتها لو أنه كان مجنونا أكرم له من هذا العار. والكاتبة جراء هذا التصرف للذات التي ترغب في شيء، وتناقض ذاتها، بالانتصار إلى شيء آخر، إنما تنتصر إلى روح التقاليد، خاصة انتحار الشاب، في الأخير، جراء صد محبوبته له خوفا وخجلا.

كما يمكن اعتبار هذا تبريرا للتناقض الذي هو سمة في طبيعة الأنثى، التي تعيش بفلسفة عجيبة؛ إذ رغم نظرتها الثائرة والمتمردة على تقاليد تراها جائرة، إلا أنها تبقى أسيرة لها ومنتصرة، والقاصة بذلك تنشد صدقا مثاليا عارما في المجتمع، لا نجد إلا في المدينة الفاضلة، يمكن فيها وأد العواطف والمشاعر الفطرية المغذية لروح النساء والرجال معا. كما جاءت القصة بلغة تنبض بالحياة، استطاعت القاصة من خلالها أن تسرد الأزمة الداخلية الشخصية بمتهى الاستبطان والعمق.

كذلك تقدم فردوس فتحي ندا (من مصر)، في قصة "وجهها خلف الجدار" نقدا لهذا المجتمع، على لسان بطلتها (الذات) التي تتصل بشكل واضح مع جدتها (رمز الأصالة والتماسك بالعادات والتقاليد)، والتي راحت تتراءى لها خلف كل جدار تراه، أما مع أمها فالعلاقة بينهما هي القلق الذي يمكن أن يحدث انفصالا معها إذ يجعلها دائما في حزن عميق، يحثم على قلبها، تقارن دائما بين أمها وجدتها بين ما تقول الأم، وما علمتها إياه الجدة، بين ما هو كائن وترفضه، وما يجب أن يكون وتجه ساعية لتحقيقه؛ إذ تشكل الفئة العاملة ذات / موضوع - في هذه القصة - العمود الفقري داخل النموذج العاملي لها، لأنها مصدر

(1) المجموعة، ص 82

للفعل ونهاية له؛ إنها مصدر له لأنها تعد نقطة الإرسال الأولى لمحفل يتوق إلى إلغاء حالة ما أو إثباتها أو خلق حالة جديدة⁽¹⁾.

ويتغير مسار البوح إلى قضية الفساد الأخلاقي، كموضوع تعايشه الذات، والذي تسر به القاصة "هاديا سعيد" (من لبنان) في قصتها "الشيطان ليس بيننا؛ أين تطرح موضوعا تحياه باستمرار الذات العربية وهي نظرة الرجل زميل العمل للمرأة العاملة غير متزوجة، والتي تقول على لسان بطلتها: "أنا أجيء إلى المكتب محملة بحكمة أب وسماحة أم، وحنان أخوة يقطر فرحه دمعاً، أجيء طيبة مؤدبة دمثة"⁽²⁾، تعامل زملاءها بكل عفوية واحترام، وتطالبهم دوماً بأن يكونوا أكثر عدلاً وبراءة معها، أو حتى لماذا لا يكونون إخوة لها، لكنهم دائماً يصدمونها، بنصب فخاخ الكلام لها والنظرات والعبرات، لتصرخ الشيطان ليس بيننا، فمن يضعه بيننا؟". وهذه صفات تمكنا جميعاً من أن نقرب إلى الذات في بوحها، وهي تعبر عن قيود تفرضها نظرات أناس في مجتمع ترفع الترفع عن شهوات همجية، لا علاقة لها بالإنسانية؛ لأن الذات توجد في مجموع أفعالها وكلماتها وسلوكاتها وتتجسد في شبكة من الدوال⁽³⁾. وتمتد هذه الرؤية، بصورة أخرى، إلى قصة العيد المسافر "لأنيسة عبود (من سوريا).

يحاول هذا المسار أن يثبت لقارئه أن الكاتبة العربية لا تستغرق في أحلام هروبية، ولا تستسلم لأوهامها؛ فنجدها تسرع دائماً إلى انتشال نفسها منه، في كل مرة لتدرك حالتها، مما يؤكد وعيها العميق بقضيتها وقدرتها على المواجهة، فلقد جاءت هذه النصوص السردية نصوصاً شكلت "وحدة إيديولوجية، تعتمد في إنتاجها طاقة خاصة توزع بين المبدع والشكل والمتلقي، تمارس قدرتها على مستويين السطحي والعميق"⁽⁴⁾.

ويزداد مسار هذا الوعي والإدراك عمقا في قصة "سقط سهواً لفاطمة يوسف العلي (من الكويت)؛ فتبدأ شهرزاد الحكيم من نهاية القصة، وهذا ما استدعي فضولا في معرفة

(1) سعيد بنكراد، المرجع نفسه، ص 50.

(2) المجموعة، ص 100.

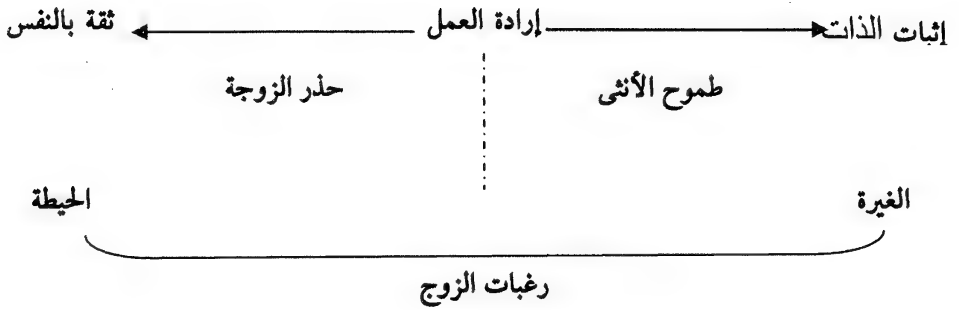
(3) السعيد بوطاجين، الانشغال العمالي، ص 20.

(4) عبد القدر عبد الجليل، الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط 1،

1422/2002، ص 140.

البداية؛ هي حكاية "طبية" طبية أطفال، متمردة بطبعها، تحترم المواعيد، صاحبة قراراتها في بلاد الغرب "أسكتلندا" لكنها تتحول إلى طفلة في وطنها الكويت وسط عائلة كبيرة من الأب والأم والأخ والعم والخال، تتعرض إلى ضغط شديد عندما تقرر زواجا لا تقبله العشيرة (وفق العادات والتقاليد)، ويتم الزواج رغم كل الصعوبات الاجتماعية، لتمارس مهنة الطب التي يعتز بها أهلها، تحت اسم زوجها، الذي يناصفها عيادتها، ويغار من نجاحها، فيعلن ثورة عليها في المنزل والعيادة، وتقف هي عاجزة تود الحفاظ على أسرة لا توجد في الأساس، لعله الخوف من لوم الأهل لها، ونظرة المجتمع لمن يقدم زوجها على طلاقها، وكأن خلاص "طبية" يحسده قول أمين الريحاني: "على المرأة الشرقية أن تسعى قبل أي شيء في تحرير نفسها ولا بأس إذا تخلت في هذا السبيل المجيد عن بعض أو كل أخلاقها التقليدية"⁽¹⁾، فكان عليها كطبية التحرر، وتحسيد حريتها دون رقابة.

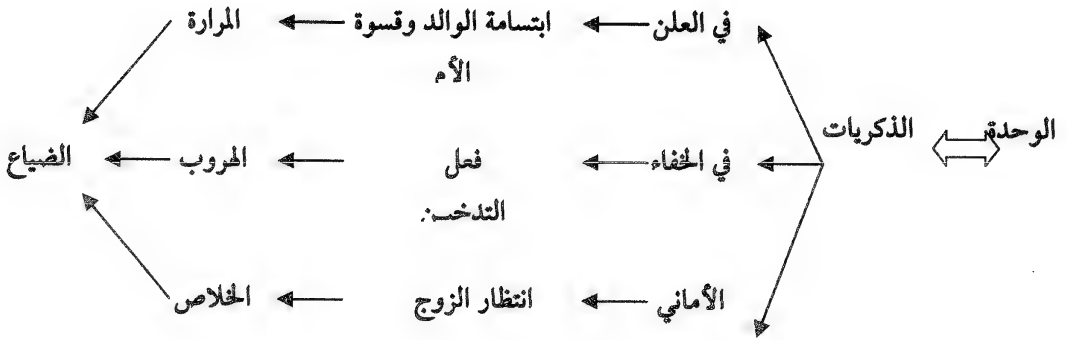
إن الذات الغيرة للزوج تسقط سيناريوهات محتملة تجعلها محتاطة تجاه كل ما يخص تعلقها الكوني، وعليه فهي تحقق في ذلك تحولين؛ الأول من أجل الانتقال من الثقة إلى الحيلة، والثاني من أجل الانتقال من الحيلة إلى الحذر⁽²⁾، عبر دلائل لغوية، وقرائن هوية، وعلامات سيميائية تداولية يلخصها المخطط:



(1) جمال شعيد ووليد قصاب، خطاب الحاشية في الأدب (الأصول والمرجعية)، دار الفكر، سوريا، ط1، 2005، ص 41.

(2) ينظر: غريماس وفونتي، نفسه، 264-265.

وفاطمة يوسف العلي في قصتها فتاة وحيدة، تجعل معاناة الفتاة "طيبة" مسارا لبوحها، لتحقيق محور الصراع بين الذات (الفتاة) وموضوعها (رغبة الزواج)، التي وقفت أمها عائقا يحول دون تحققه، وتعبّر القاصة عن ذلك برؤى والدها، الحامل همها إلى حد موته، معتبرا إياها ضحية والدتها؛ لذلك طلب من ابنته مساعدتها، وهي التي كانت تفسد كل شيء في رأيه، ويموت الوالدان في حادث سير عندما ذهبا إلى عرّاف يتبصر الحظ لفتاتهما، وبقيت فتاته وحيدة ضائعة "تتظر زوجا يعطيها حياة جديدة"⁽¹⁾، تعاني في وحدتها مرارة الحيرة والتساؤل: هل كانا يجانبانها، محملة نفسها وفاتهما، وهي تقول: "الله على أمانة لم ينطق بها اللسان"⁽²⁾ من جهة، كما تعاني حرارة ذكريات تطاردها في العلن والخفاء، وحتى في أمنيات ترغب في تحقيقها، توصلها عبر توترات الهوى إلى الضياع:



كما في حكاية "المدينة" لـ "سامية اسبر" (من سوريا)؛ وتغير أمانة زيدان (من مصر) المسار في قصتها لو أن كريمة "لتعبر عن صورة القهر والقمع للأثنى، تبوح فيها شهرزاد، بوجع كريمة التي تحرق حية على يد عمها وأبيها، وتتهم بأنها هي من أحرقت نفسها، بسبب ركوبها السيارة مع "تشارل الانجليزي" عندما احتاجت إلى ذلك، تاركة وراءها سراب "عبد الناصر" الذي يحبها وتحبه. ويتسع مسار صراع النفس في القصة الموالية الذي قد كان.. كان" لـ ليلي محمد صالح (من الكويت)، صراع يعيشه بطل القصة الذي اغترب وتزوج أجنبية

(1) المجموعة/ ص 142.

(2) نفسه، ص 145.

وأنجب منها طفلان ليفارقا الحياة في حادث سير، تقرر الزوجة العودة إلى وطنها رافضة البقاء في الكويت، ويقرر الزوج الزواج ثانية من ابنة وطنه للاستمرار، ولكن تبقى الذكريات تنهش فكره وروحه، ففي ضوء هذه القصة تصور الكاتبة القصة، وقد أحست بالفرق بين الذي كان، والذي ينبغي أن يكون من أجل البقاء والاستمرار، وهي في هذه المسألة تسير في أحد طريقين أو فيهما معا، علما بأن كل واحد منها موصل إلى الآخر للرغبة الحاصلة بين الذات البطل والاستمرار.

د- المرأة بين استلاب للذات وهوى المعرفة:

وهو مسار أخير تحقق في مجموعة من القصص، أين تعبر من خلاله القاصة زينب صادق، من مصر في أحلام في بلاد بعيدة⁽¹⁾ عن اختلاجات نفسية تملكت شهرزاد فجعلتها تبوح بصراع تعيشه الفتاة العربية، عندما يتقدم لخطبتها شاب من بلادها يعمل في بلاد أجنبية فتقبل به وتحاول إقناع نفسها بأنها أحبته وستحبه، وتوهم نفسها بحبه لكنها في الحقيقة تقع في "حب رغبة تحقيق أحلامها"⁽¹⁾، فالنساء دائما يصدقن الوهم، الذي يشكل في حقيقة الأمر عائقا مقابل تحقيق ذاتها، والبطلة في هذه القصة تعيش في خوف دائم من المجتمع، وهذا ما دفعها إلى التعلق بالأوهام، مما يؤدي إلى الضياع والاستلاب الروحي.

ويتجسد مسار الاستلاب-أيضا- في قصة البارون "لنار حسن فتح الباب" (من مصر)؛ فقد كان مدار البوح فيها، هو البحث عن الأصالة والأجداد، من خلال محاكاة بطلة القصة لصورة جدها، الذي كان يعيش ويحب قصر البارون، ليلة زفافها، حين تقرير إنزال صورته من على الجدار فيسقط الشارب" جاعلة شهرزاد إياه رمزا للنخوة والرجولة الهاربة من متناول البطلة، التي ستزوج رجلا ثريا بعيدا عنها. كما في قصة "بجر الأعالي" لسلي بكر (من مصر)؛ إذ تطرح القاصة هنا-رؤية محدثة للمنظور الاجتماعي، على لسان فتاة في الخامسة، تدهشها رؤية البحر كلما علت، بفضولها وطموحها المرتبط بأكثر حاجات الإنسان الفطرية سذاجة، وهي أن تتفرج على مشهد سار يبعث الدهشة في الروح، فالتطلع إلى

(1) المجموعة، ص 42.

التجاوز حق مشروع يبرر الجراح والكسور التي تعرضت لها، وهي تحاول تحقيق طموحها في رؤية بحر أعالي.

وقصة "تاج من شوك" لاعتدال رافع (من سوريا) تصور فيها شهرزاد مأساة فتاة أصبحت شيئا بشعرها الطويل، لا ينظرون إلى أفكارها وطموحها بالقدر الذي ينظرون به إلى شعرها، دوما يقال لها: "أجل ما فيك شعرك؟.. إن مددت يدك إلى شعرك أكسرها"⁽¹⁾ أرادت تحطيم هذا القيد (بقص شعرها)، فوجدت خلاصها في زوج قبيح يكبرها سنا، تزوجته لتقص شعرها، فضربها الزوج ضربا أفقدها الوعي، لأنه هو أيضا تعلق بهذا الشيء، وجعله أكثر أهمية من كيانها؛ والشعر هنا علامة سيميائية على تشيؤ المرأة، وفعل القص هو في الحقيقة فعل للتحرر من القيود ورفض حالة الاستلاب الممارسة عليها في مجتمعاتها، وللتحرر من نظرة لازمت المرأة طويلا.

فعلى المرأة-هنا- أن تمارس دائما فعل التحرر، لتحقيق إنسانيتها وسط مجتمع انتزع منها سلطة القرار والقانون، لتمنح سلطة عاطفية في الأمومة والأسرة، والتي لا تمارسها إلا تحت إشراف الرجل ومن خلاله، أي بموافقته، فوحده الرجل يمكنه إدارة المجتمع وصناعة القوانين والأعراف وحتى تفسيرها؛ وأمام كل هذا، على المرأة أن تملك حقوقها وأولها حق الفعل "ومعنى ذلك أن تتحول المرأة من مفعول به إلى فاعل"، وكلمة فاعل تعني الإنسان، الذي يحق له الفعل ويختار ما يفعله، ويتحمل مسؤوليته، ويجني ثماره أو عقابه"⁽²⁾؛ فحرية المرأة شرط قوتها، ولكن عليها استعمال الفعل والقانون، وإلا ستسقط في الهاوية. كما هو مصير بطلة هيفاء البيطار (من سوريا)، في قصة "الهاوية"، والتي تحكي شهرزاد فيها حكاية الطموح الأنثوي لفتاة مثقفة جميلة وذكية ولكنها فقيرة يأخذها طموحها، وفرح إخوتها بقطع الشوكولاتة، والأم بالغسالة إلى هاوية رجل أعمال متزوج لص، منافق، يتزيف معها الحب والاحترام، لتكون شيئا من أشياءه، فتدخل ذاتها-بذلك- إلى أجواء من الاستلاب الروحي

(1) المجموعة، ص 187.

(2) عبد الله موسى، حضور المرأة في الكتابات الفلسفية، مجلة الثقافة (الرواية الجزائرية.... مسارات وتجارب)، العدد الجديد بعد 118، فيفري، 2004، تصدر عن وزارة الاتصال والثقافة، ص 72.

والقهر المزوج بمرارة ووجع الإنسان. كما عبرت عنها نعمات البحيري (من مصر) في نص "جرح الورود"، ورينية الحايك (من لبنان) في قصة "نزهة بين الجدران"، وتحكي فيهما شهرزاد استلاب الرجل للمرأة؛ فهذا الرجل هو صانع المعرفة وصاحبها، ومالك الوجدان ومتقن الأداء والسيطرة والتملك، فعانت شهرزاد المرأة - كما تصورها شهرزاد الحكاية - الغلبة والاستلاب، ومعايشة حالة الحب في حالات وهم وأرق وولع وخوف وشك، عبرت عنها لغة رمزية سريالية.

يمكن للقارئ أن يشعر بأن التحول من مستوى سردي إلى آخر وخلق خطابات خاصة بالشخصيات لا يمكن أن يكون مجرد تنويع عادي وبسيط للبنية السردية في بعدها التجريدي العام؛ لأن الشخصيات إسقاط لصورة سلوكية بأبعادها النفسية، والاجتماعية والثقافية داخل عالم تخيلي، ولا يتم الوقوف عند هذه الرؤية إلا من خلال فعل القراءة بشكل تكون فيه الشخصية، نتاجا يتداخل فيه التسنين وفك التسنين⁽¹⁾؛ كون القراءة إستراتيجية محكمة تنطلق من المهارة اللغوية لتشمل بعد ذلك القدرة أو المهارة النصية والمعرفية، أو أنها شكل من أشكال التفاعل والتناور بين النص والقارئ والمحيط⁽²⁾.

إن الكاتبات ناقمات على الحدث من حيث أنه صنعة الآخر، وهن ثانيا ناقمات على الآخر لا من حيث أنه شخص غير ذاتهن، بل من حيث إن هذا الآخر هو سبب الضدية الساخنة بين اتجاه يرتضينه، واتجاه آخر ينقمن عليه؛ فكانت الكاتبة العربية ذات تكوين واع للأحداث وهو تكوين قائم على تقويمها بمقتضى وعيها الحاصل إيجابا وسلبا؛ لتبعثه إلى متلقيها عبر ملفوظات سردية مؤنسنة، كون الفعل هو عملية مؤنسنة، ونشاطا يفترض فاعلا، باعتباره رسالة مشيئة كموضوع وتستلزم محور البث بين مرسل ومرسل إليه⁽³⁾.

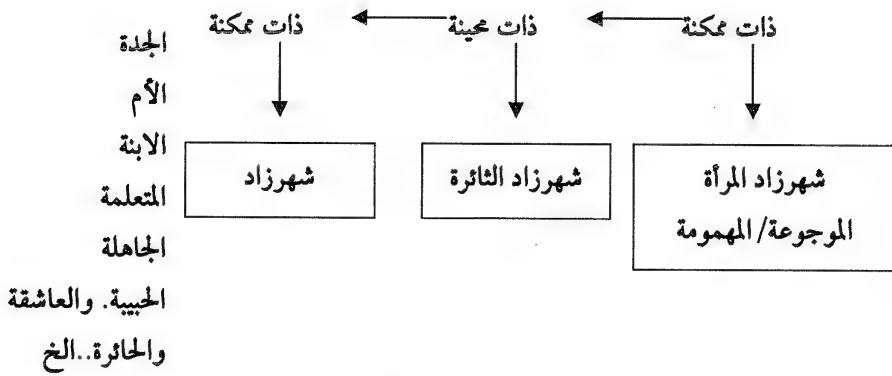
(1) سعيد بنكراد، مدخل إلى السيميائيات السردية، ص 76-77.

(2) المصطفى الشاذلي، نفسه، ص 138.

(3) أ. ج. غريماس، السردية والنظرية السيميائية، ترجمة عبد الحميد بورايو، مجلة القصة الجاحظية، الجزائر، ع2، 1999، ص

35- وص 37. وينظر: سمير استيته، نفسه، ص 345.

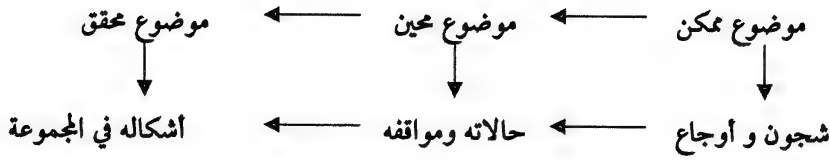
ونخلص إلى، أن شخوص قصص مجموعة "شهرزاد تبوح بشجونها" تندرج (أو تبني) ضمن النص الثقافي العام بأبعاده المتعددة من جهة، وتحيل من جهة ثانية على السنن الخاص بالمتلقي، فكان بناءها ليس عملية اعتباطية خاضعة لمزاج المبدع أو مزاج المتلقي، بل هي عملية واعية تخضع لمجموعة من القيود ولا يمكنها أن تتشكل ككيان فني إلا من خلال هذه القيود، وهذه القيود هي في الأصل حمولة دلالية محتملة، يقوم النص باعتباره سلسلة من الأفعال الممكنة القابلة للتحقق من خلال سيرورة القراءة بتخصيص هذه الحمولة عبر نفيها أو إثباتها، أو بلورة حمولة مضادة⁽¹⁾؛ لذلك كان علينا انتقاء الذوات المهيمنة نصيا وربطها بالبرامج السردية الممكنة، في سبيل استخراج التحليل، لأن الكشف عن المنطق العاملي يستدعي دراسة العلاقات التي تنتظم وفق إستراتيجية سردية محددة، في عالم الذات، باعتبارها محفلا منتجا لأفعال تمر تباعا بثلاثة أنماط للوجود:



إن الذات تشكل ثلاث حالات سردية؛ الحالة الأولى سابقة عن اكتساب الأهلية، والثانية هي نتاج هذه الأهلية، وتقوم الثالثة بتحديد الذات لحظة إنتاج الفعل، الذي سيجعلها تدخل في اتصال مع موضوع القيمة، وتحقيق بذلك مشروعها⁽²⁾. والذات لا يمكن أن تشكل كذات إلا من خلال وجود موضوع ما تحدد من خلاله وهكذا نكون أمام ثلاثة أنماط للوجود السيميائي لموضوعات القيمة، مطابقة للمسار العام للذات ومحددة له:

(1) سعيد بنكراد، مدخل إلى السيميائيات السردية، ص 77.

(2) سعيد بنكراد، مدخل إلى السيميائيات السردية، ص 73.



وعليه، يمكن اعتبار أبطال المغامرات في هذه الحكايا العصرية شخوصا تتحرك في السياق الثقافي العام، ما ينتج ذلك التداخل بين المسارات السردية على مستوى حكايا عديدة، يمكن العود بها إلى سياق السرد الرئيس، وهو البوح الأنثوي الذي يعالج قضايا المرأة الإنسان، التي تقترن فيها الطبيعة الإنسانية بالطبيعة النسائية في رؤى أنثوية، والتي احتضنتها سياقات خاصة ومسارات سردية معينة؛ لأن ما ينظم التجربة الإنسانية في كليتها هو نفسه ما يحكم بزوغ الدلالة⁽¹⁾؛ فلكي تكشف هذه التجربة عن نفسها، وتصل إلى قارئها، تحتاج إلى مواد تعبيرية بالغة التنوع، في معظم علاماتها وبنياتها وصورها؛ لتؤكد دور المرأة الاستراتيجي في عملية التغيير؛ فلا يتم التغيير إلا بتغيير النظام الأبوي وقيمه السائدة؛ وإدراك العنصر الأنثوي في كل مجتمع، وكل ثقافة كيانا إنسانيا مستقلا يلعب دورا محوريا في إنتاج المجتمع وإعادة إنتاجه؛ فإذا انتقصت إنسانية هذا العنصر انتكس المجتمع بكامله⁽²⁾؛ إذ تنطلق هذه المجموعة القصصية من اعتقاد مفاده أن حبس المرأة في خانات الأم والزوجة والحبيبة، ليمارس الظلم عليها، لم يعد مجديا، دون الأخذ بعين الاعتبار، ليس فقط صراعا وسعادتها، وإنما حريتها؛ حرية اختيار عملها، والرجل الذي تريده، والحياة التي تحب، والتفكير الذي ترغب فيه، وحرية التعبير.. الخ، لما لها من حقوق الذات الإنسانية وأبسطها حق الفعل؛ ذلك أن قيد المرأة وسجنها في مجتمعها، والحصار الأليم المفروض عليها هو الذي يؤرقها؛ إذ يجب عليها أن تنغمر في قضايا الوطن والأمة فهي نصفه، لذلك سعت الكاتبة العربية إلى إدماج جراحها وأهوائها في جراح وطنها وأمتها ليغيب جرحها الخاص في ملفوظها السردية، فيرشد في الدلالة والرؤية، ويمكن تحقيقه عامليا كالآتي:

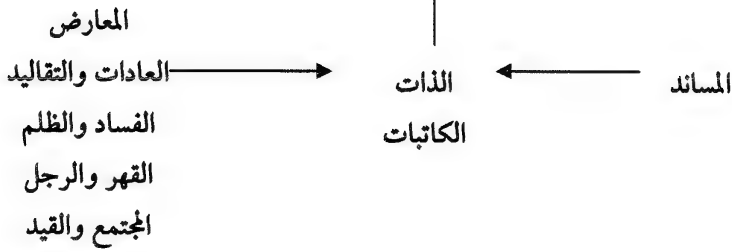
(1) سعيد بركراد، السيميائيات والتأويل، ص 162.

(2) عبد الله موسى، حضور المرأة...، ص 173.

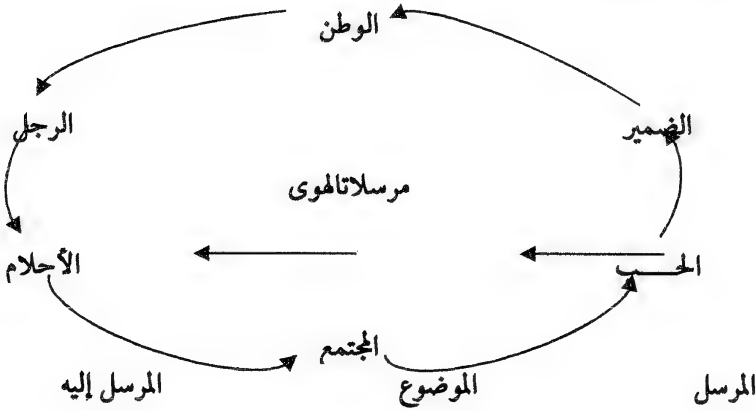
الكاتبات العربيات

الرغبة في
التعبير

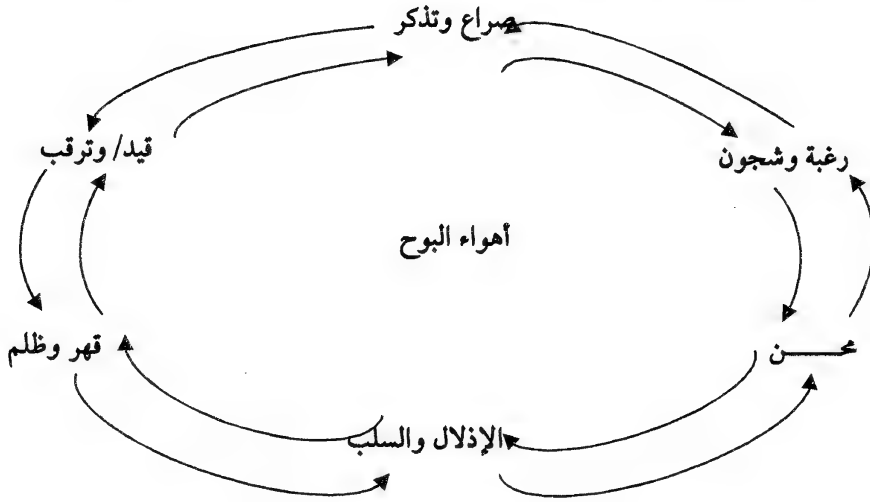
قضايا الذات
ومعن الوطن



وعليه، تجسد قصص المجموعة حقيقة أن غياب الأمل بالناس وبالمجتمع يقود المرأة في كل صورها (الكاتبة/ الشخصية/ والمتلقية) إلى الإحساس بانغلاق الحياة حولها؛ إذ استطاعت كل كاتبة من بث بوحها الأنثوي نثراً؛ فما ذم سلبيات الناس وهجاء الزمن ونقد القيم السائدة، والثورة على التقاليد البالية، ووصف فساد النظم والهروب إلى أحلام تستبق بها ما سيأتي.. الخ، إلا صرخة أنثى في وجه طغيان العصر وجبروت مستغلي الإنسان والهادرين لطاقته، فهي أنثى تعي ما يدور حولها، وتدرك أن قضاياها قضية شاملة. ويمكن إجمال مدار بوح شهرزاد في هذه المجموعة كالآتي:

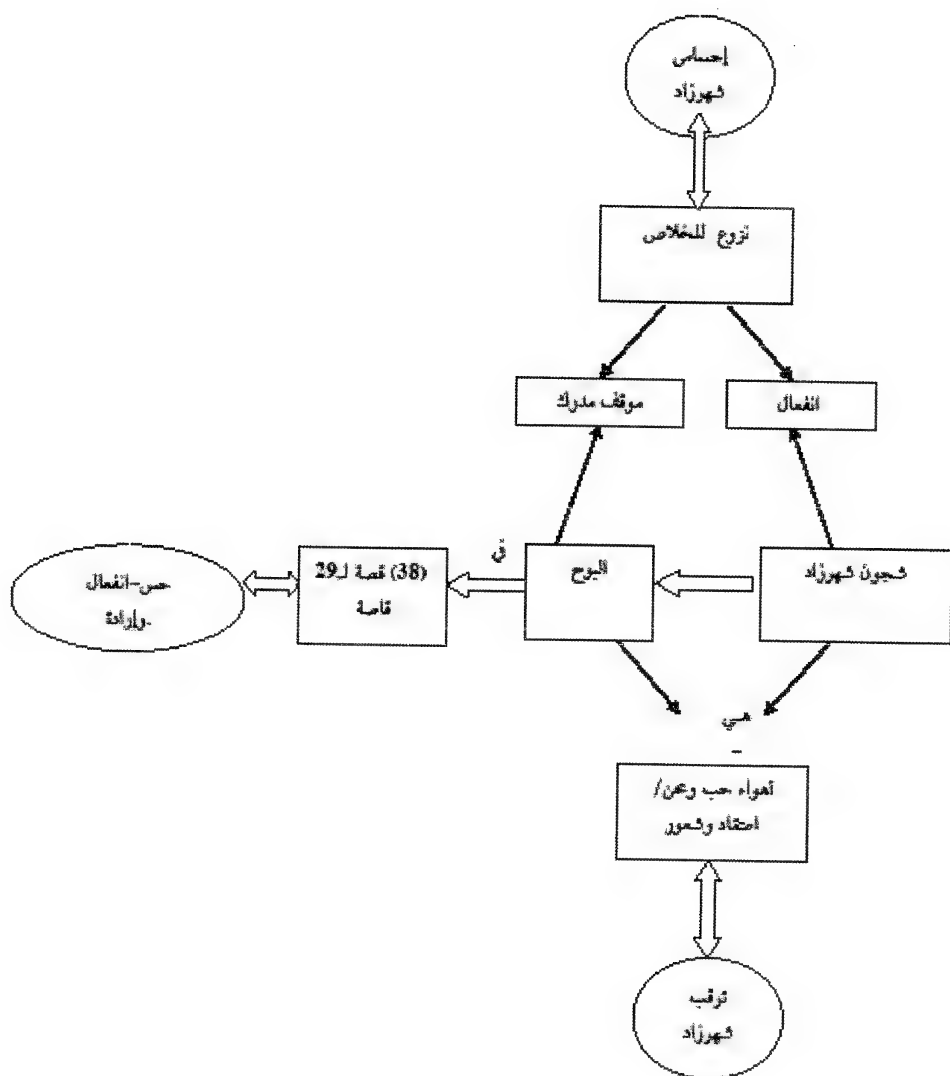


ومن خلال هذا البوح بأشكاله وأساليبه المعقدة، نكون أمام تجربة حية وصادقة لكل معاناة المرأة العربية بمجمل تطوراتها، التي يمكن فيها تحقيق الأهواء المتنوعة لشهرزاد:



تشتمل تعريفات الهوى على سلسلة من التسميات الصنافية التي تشكل ما يشبه الأقسام الكبرى للحياة العاطفية: هوى-شعور-نزوع-ميل-انفعال-جيلة/ قدرة-استعداد-موقف-مزاج-طبع؛ ومحاولة تنشيط هذه الأهواء داخل أنساق خاصة يقودنا إلى عبارات أخرى تعود إلى الحركة العاطفية ذاتها، ويمكن أن تكون دائمة (النزوع-المزاج-الطبع-الحساسية)، ومتواصلة (شعور) أو عابرة (انفعال-مزاج)، وإما تجليات هوية، والسلوكات، والأفعال التي تليها، والتكيف المهيمن الذي يتغير وفق الأنواع، وهذه الأقسام الهوية تمثل مجتمعة باعتبارها متغيرات للأهلية: [استعداد هوية (قارة، مستمرة، عابرة)-تجليات هوية (متواصلة، مرحلية، معزولة)-التكيفات المهيمنة (معرفة، قدرة، إرادة، مختلطة) وكذلك التمثلات الأهلية (حاضرة، مفترضة، منفية)]⁽¹⁾؛ تمثلها في المخطط التالي:

(1) ينظر: غريماس وفوننتي، نفسه، 138-141. ومحمد الداوي، سيميائية الأهواء، ص 218-219.



المحور الرابع

الخطاب البصري والمقاربة السيميائية

أولاً : الخطاب الكاريكاتوري العربي : الأنساق والتأويل

تمهيد :

من الخطابات التي تطرح عديد التساؤلات ومازال البحث جار فيها وعليها العلامات المرئية/ أو الخطابات البصرية المسننة، والتي يستأنس بمحاورتها المحلل، ونذكر على سبيل المثال خطاب الكاريكاتور الذي "يظهر فيه الخطاب اللغوي بصحبة السلوك الجسدي لتشكيل طرق معينة في الكينونة، وهويات اجتماعية أو شخصية معينة"⁽¹⁾، إنه ممارسة من الممارسات الاجتماعية، وممثل من الممثلات للعالم المحسوس، "والتمثيل-هنا- مسألة خطابية"⁽²⁾.

أي أن الكاريكاتور "خطاب مسنن خاضع في تدليه للتواضع الإنساني، وللموسوعة الإدراكية للمتخاطبين"⁽³⁾. كما يعتبر خطاب الكاريكاتور من الخطابات الثقافية الترويجية، التي تحدث عنها وارنيك Wernicke، إذ أصبحت مجموعة الظواهر الثقافية التي تهدف في إحدى وظائفها على الأقل إلى إيصال رسالة ترويجية في حكم المنتشرة في كل العالم الرمزي الذي تنتجه"⁽⁴⁾، وهي سمة التعقيم بين الأقوال الخبرية والتوقعات (المشروع المخطط)، فيما يمكن أن نتحدث عنه في "القدرة الإنجازية التواصلية للخطاب، لاستخدامه السخرية في دفع

(1) فاركلوف، تحليل الخطاب (التحليل النصي في البحث الاجتماعي)، ترجمة طلال وهبة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1، 2009، ص 65.

(2) نورمان فاركلوف، المرجع نفسه، ص 64.

(3) عبد المجيد العابد، السيميائيات البصرية (قضايا العلامة والرسالة البصرية) الشركة الجزائرية السورية للنشر والتوزيع، ط 1، 2013.

(4) فاركلوف، نفسه، ص 218.

المتلقي للنفور والتغير، وهذه فعالية لتحريك الدلالة في الثقافة، وهي برهجة غير ثابتة وقابلة للتغير، وذلك مبتغى الخطاب الكاريكاتوري.

إذ يعمل الكاريكاتور على تحويل الانتباه من البنية (شكل - لون - نسيج) إلى القضية، ومن الصورة إلى الفكرة، ومن الراهن إلى الكامن، ومن الشكل إلى الجوهر والعمق، ومن الكفاية التصويرية إلى الانجاز القرائي الممكن، ومن البنية السطحية إلى البنية العميقة؛ لأنّ القواعد التصويرية هي امتداد للقواعد التشومسكية التي تتشكل فيها المفردات النهائية من كيانات هندسية، ولكن حيث يكون تسلسل هذه الكيانات مضبوطا ببعض العمليات ذات الطبيعة الهندسية⁽¹⁾؛ لأنّ أي علامة لا يمكن أن تكون علامة إلا إذا استطاعت التعبير عن فكرة، بالإضافة إلى قدرتها على خلق مسار تأويلي في ذهن متلقيها⁽²⁾.

ويعتبر غريماس أنّ العالم المسمى محسوسا عالم البحث عن الدلالة⁽³⁾ لأنه يتمظهر باعتباره فقط إمكانية معنى، ولكي يكتمل معناه لا بد من أن يخضع لشكل معين؛ فالدلالة يمكنها أن تتوارى وراء كل المظاهر المحسوسة، أنها توجد خلف الأصوات والصور والروائح والنكهات... إلخ.

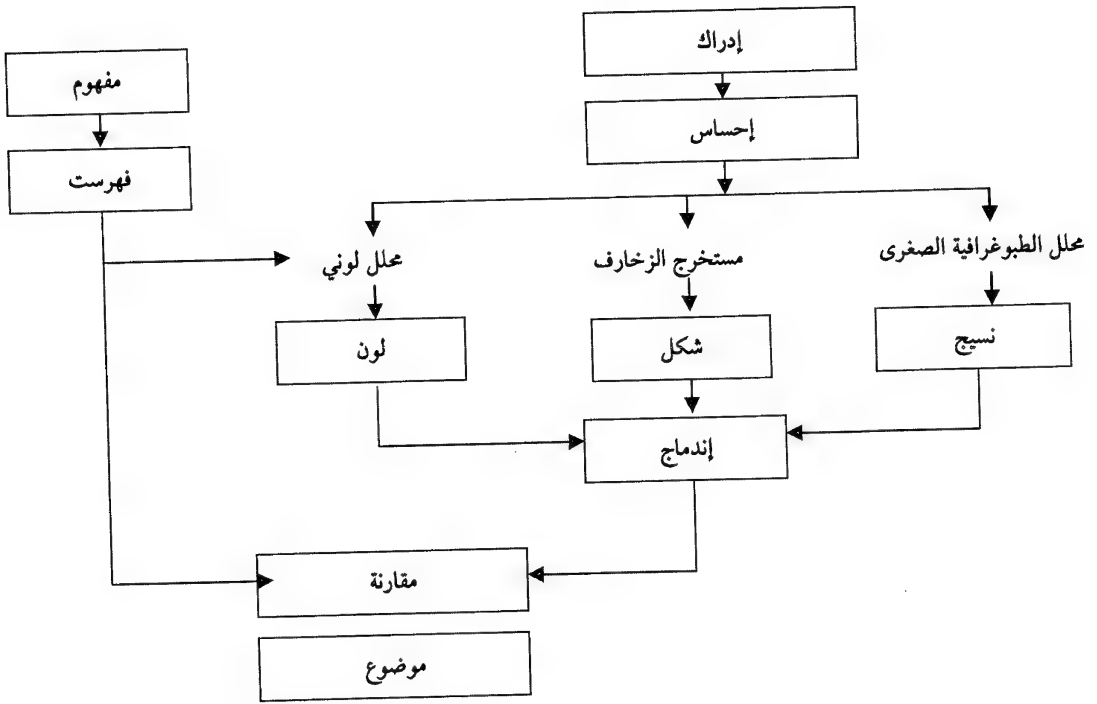
إنّ الموضوع المدرك بناء، وهو مجموع المعلومات المنتقاة والبنية اعتمادا على تجربة سابقة، وعلى حاجات ومقاصد العضو المنخرط بفاعلية في موقف معين⁽⁴⁾، فعملية منح المعنى حصيلة إجراءات فك الشفرة من خلال الإدراك البصري:

(1) المرجع نفسه، ص 56-57.

(2) عبد المجيد العابد، السيميائيات البصرية، ص 84.

(3) فريد الزاهي: النص والجسد والتأويل، ص 40.

(4) جماعة موفيليب مانغنيه وآخرون) بحث في العلامة المرئية (من أجل بلاغة الصورة) ترجمة: سمر محمد سعد، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1، 2012، ص 105. وينظر في شرح المخطط ص 117.



نموذج كلي لفك التشفير المرئي

«والحال أن المعلومات الواقعة على حدود (الفهرست)^(*) تعد بوجه عام الأكثر فائدة»⁽¹⁾؛ كونها تضع مراتب باستخلاص من ثوابت (متميزة) وإهمال ملامح خاصة (فردية).

كما «أن نجاح الفعل التواصل بين المرسل والمتلقي يقتضي من الأول مراعاة احتمالات التأويل، كما يستلزم من الثاني تقديم أقرب مؤول ممكن مما يرغب فيه الأول،

تحدد مكانة الفهرست من خلال أربع عبارات:

- (1) يأخذ بعين الاعتبار كل مواضيع الإدراك مهما كانت درجة تعقيدها.
- (2) الفهرست منظم بحسب تضادات واختلافات أي أنه منظومة.
- (3) يفيد الفهرست في إخضاع الادراكات الأولية لامتحان الامثال.

ما يسمح بهذا الامتحان هو مفهوم النموذج فالفهرست منظومة من النماذج؛ إذ يسمح تنظيم النماذج المتصورة وسط الفهرست بالحصول على التقطيعات من نموذج Σ المتعارضة مع II.

جماعة مو، نفسه، ص 126.

(1)

حتى يتمكن من الموضوع كدلالة، لا كمعنى، كون الدلالة تعرض بصريا كمعنى، في حين يعرض المعنى فيها، بذكاء كدلالة»⁽¹⁾.

1- إيقونية الجسد والحركات الجسمية:

إن الجسد علامة تحيل إلى مرجع كما لو أن المرجع يوجد حقيقة؛ ذلك أن الإيقونية -فيه- جماع علاقة تشابه جوانب وخصائص وعلاقات معينة بين الأشياء والعلامات، سنعمد فيه إلى إعادة إنتاج الواقع البصري؛ ذلك أن الأيقون هو علامة تحيل على الموضوع بموجب الخصائص التي يمتلكها هذا الموضوع سواء أ كان هذا الموضوع موجودا أم غير موجود؛ كونه علامة تملك بعض خصائص الشيء الممثل، أي أن الأيقون هو علامة تملك طابعا يجعل منها دالة حتى ولو غاب موضوعها⁽²⁾؛

و«حسب إيكو هناك سنن أيقوني يقيم علاقة دلالية بين علامة طباعية وبين مدلول إدراكي مسنن بشكل سابق، أي هناك علاقة بين الوحدة المميزة داخل السنن الطباعي وبين الوحدة المميزة داخل سنن معلمي، والذي يعد إنتاجا لعملية تسنين سابقة على التجربة المدركة»⁽³⁾.

فالصورة كيفما كان نوعها تشتغل كإيقون وفيها الماثول والموضوع متطابقان، فما تحيل إليه الصورة هو نفسه أداة التمثيل⁽⁴⁾، أي أن العلاقة هنا قائمة على وجود التشابه بين الماثول وموضوعه، وهو الأمر الجلي في الصور الكاريكاتورية:

(1) محمد الماكري، الشكل والخطاب، ص 271.

(2) Ch. S Pierce , Ecrits sur le singe, ressemblés traduis et commentés par Gérard Deledalle, Seuil, Paris, 1978, p140-139.

(3) سعيد بنكراد: السيميائيات والتأويل، ص 119.

(4) سعيد بنكراد: السيميائيات والتأويل، ص 117.



تثير هذه الصور قضية "مركزية الجسد" في التجربة الكاريكاتورية، وهي التي تحثنا على مواجهة مجموعة من التصورات الفينومينولوجية والفلسفية والسيمائية للجسد، كون الجسد الشخصي ليس معزولاً عن الآخر، إن كل وجوده متجه إليه، فعلاقته بالآخر علاقة وجودية⁽¹⁾، لذا لا بد من الانتقال حتماً إلى الجسد من أجل الآخر، ناهيك عن أن الجسد كأيقونة يعيش مظهره الفيزيقي الشكلي وتعبيرته نابغة من الداخل كذلك، بمحطة النظرة وعنف الاحساس وقهر الأنفاس.

لنقول أن الجسد منتج لإشارية ذات طابعين: رمزي ووظيفي، مرتكزين على الشائبة اللسانية للتقرير والإيحاء، لأنه يشكل شرطاً لتكونه كلفة، حتى يتحول العالم إلى معنى، باعتبار أن الإشارات ليست خاصة بجهة جسدية معينة، إنها عملية شاملة يمارسها الجسم الإنساني⁽²⁾؛ وهو الأمر الظاهر في الصورة الكاريكاتورية الثانية، إذ يحاول الرجل في الصورة إثبات ذاته بممارسة تخويف نفسي على الآخر في لحظة البداية لحياة جديدة؛ أين يظهر جسد المرأة مدرج ضمن جسد أكبر منها (الرجل)، ويقع داخل إطار اللوحة، جسد ربما نرى منه بعضه في الأسفل على اليسار، وجسد ضخم في الأعلى على اليمين، وغموض الخطوط

(1) فريد الزاهي: النص والجسد والتأويل، إفريقيا الشرق، المغرب، ط 1، 2003 ص 27.

(2) فريد الزاهي: النص والجسد والتأويل، ص 41.

نفسه والبيئة الصحراوية، لـ تبدو الصورة بأكملها كترتيب تشكيلات متراس في حركة معممة تدعو المشاهدة إلى إكمالها⁽¹⁾.

والملفت للنظر ضخامة الرأس، وفي هذا دلالة على الشخص المعجب بنفسه والمفتخر بها والمتباهي بشكل مبالغ فيه، وكأن لا أحد مثله، كوسيلة لفرض السيطرة والقهر والاستبداد بالرأي، أي إقصاء الآخر.

من هذا المنطلق نشير إلى أنّ دلالة الجسد لا تتحقق إلا بهذه التجربة الغريبة التي تخترقه ويسعى هو إليها عبر الأحاسيس والعواطف وكل أنماط الإدراك التي يقيم بها الجسد في العالم⁽²⁾، وعليه تتركب العناصر الثلاثة (جسدي وجسد الآخر والفعل) تبعا لذلك في الطابع القيمي للجسد، فجسدي هو بشكل أساس جسد داخلي، فيما يمكن اعتبار جسد الآخرين أساسا جسدا خارجيا منفصلا، الجسد الداخلي يعيش إحساساته وآلامه وأفراحه وأهواءه بشكل داخلي ومتصل.

والإنسان في هذا المتن ليس سوى صورة figure من بين صورة أخرى، إنه حجم يوجد في أفق فضائي ويتحرك فيه، وهو يخط في مساره عددا معينا من التمظهرات سواء أكانت تواصلية، تعبيرية أم لهوية، تنبع من الجسد الإنساني باعتباره موضوعا مدركا ومتمركزا إلى جانب موضوعات أخرى. يقول ليفانسن: «الوجه والخطاب مترابطان أمتن الترابط، إنه يتكلم، وهو يتكلم باعتبار أنه هو الذي يمنح الإمكان لكل خطاب»⁽³⁾؛ وفي وجه المرأة اندماج أو توليف جزئي للخصائص من نسق أعلى (أي واقعة على مستوى أدنى، و لكاشفات الأشكال والنسيج والألوان وحدها الحق في العمل.

كما أن خاصية التطويل والتدوير الظاهرة على وجوه شخصيات الكاريكاتور تأخذ قيما محددة لمثل تلك الوحدات الهيكلية، فالتطويل عمل على إبراز قيمة ما (علاقة طول/ عرض) وهي ما نسميه "المحاور المرئية" الموازية للمحاور الموصوفة في علم الدلالة والحقيقة أن

(1) جماعة مو، نفسه، ص 490.

(2) فريد الزاهي: النص والجسد والتأويل، ص 27.

(3) E Levinas, Ethique et infini, Fayard, Paris 1982, p 82.

المحاور نفسها توجد في كل المستويات، حيث تتأثر كل مرة بقيمة معينة، وفي هذا المقام لعلّ الرسام يحاول إبراز قيمة البلاهة حيناً، والديكتاتورية والاستبداد بالرأي والحكم والسيطرة المطلقة حيناً آخر سواء تعلق الأمر بالرجل أم بالمرأة.

ويعتبر الوجه الإنساني أقل تجريداً، فلا يعتبر نموذجاً مستقراً؛ إذ يحتوي على تحديد أكثر، حيث لا يكون جميعها ضرورياً. و«إن هذه التجريدات البعيدة دوماً على أن تتطابق مع نماذج عامة، هي نتاج إعداد ثقافي متقدم جداً»⁽¹⁾.

ولا تتحقق إيقونية الجسد إلا في الفعل، لذلك فإن حركة الجسد لا تكتفي بالخضوع لنسقية الفضاء الكاريكاتوري، بل إنها تساهم في خلقها، هكذا تتحدد ظاهرية الجسد الشخصي وفق الإدراك البصري، وظاهرته في العلاقة مع الآخر، ومن ثمة ظاهرية الفعل، ذلك أن الفضاء الممنوح لي ينحو إلى اللا. فضائية داخل جسدي فيما يتخذ صبغته الفضائية الكاملة حين يتعلق الأمر بالآخر⁽²⁾:



(1) جماعة مو، نفسه، ص 217.

(2) M Merleau-Ponty, Phénoménologie de la perception, Gallimard-Tel, Paris, 1945, p107



يظهر من خلال هذه الرسومات والنصوص اللغوية المصاحبة لها قدرة صاحب الخطاب في المزج بين اللغة والرسم، ليمنحه القدرة على الكلام البارزة في ملامح الشخص، أي أن الأسلوب النقطة الخاص بالطبقات الشعبية لا ينفصل عن علاقتها بالجد التي تتمثل في رفض (التصنع) و(المظاهر الخادعة)، والرفع الظاهر في الكاريكاتور من قيمة الرجولة يفسر مقاومة المتحدثين للضغط الذي تمارسه عليهم اللغة المشروعة بإحافهم لفكرة الرجولة في كلامهم، وهو ما يمكننا من القول أن العربي يتقن فعل الدخول في نسق الحرية^(*) والفحولة الذكورية، بشكل يفوق غيره، وهو ما يظهر في لغته حركاته حتى شكله الممتلئ والشارب الطويل الذي يخفق به في غالب الأحيان صوت المرأة ويسكت بسلطته صوت أطفاله، عدا الصورة الأخيرة التي تنفتح على المعنى النقيض؛ وهو جبروت المرأة وسلطتها وممارسة فعل الإقصاء على الرجل وقهره، وفي هذه الحال نحن أمام جنس ثالث: (لا. رجل) تمقته المرأة، ويرفض بني جنسه الانتماء إليهم، فيعمدون إلى نعتة بصفات تحط من قدره وتضعف ذاته - كرجل - في المجتمع.

(*) ولتسون كرافت أول مفكرة ناقشت المرأة مناقشة فلسفية عندما تساوت إن حرية الرجال يجب أن تتناغم مع حرية باقي الأفراد في المجتمع، وأن ما يعطي حقوقهم هو العقل الذي لا يقتصر على الرجال وحدهم، فإذا كانت سمة الإنسان القدرة على العقل؛ فلا مبرر إذن لإقصاء المرأة عن ممارسة هذه القدرة الذكورية تطابق الإنسانية.

ناهيك عن القول أن الصور خطاب فئة ليس لها سؤال مرتبط بموضوعها في تجسده وحركته داخل الهوية العربية، فكلا الطرفين في الصورة يسقط في فخ الإقصاء الذاتي؛ ذات تقصي ذات وتتنكر لها، ما يجعلها تحيا استعارة من ذات أخرى.

تصور غريماس وأتباعه إمكانية وصف سيرورة تقود بأبسط الأشكال الوجودية للقيم وأكثرها تجريدية إلى مستويات تتميز ببعد تشخيصي مرئي ومتحقق في فعل إنساني مدرج ضمن وضعيات تستوعب هذه القيم وتمنحها وجودا مخصوصا ولقد أطلق على هذه السيرورة المسار التوليدي وهذا المسار دال في الوقت ذاته على ترتيب خطي موجه نحو غاية، ويتحقق من خلال خطاطة سردية وعلى دينامية داخلية تحدد النص (الواقعة) باعتبار تفاعل مستوياته لا باعتبار المضامين الدلالية التي يحملها؛ فالبنيات الأولية لا تتحدد من حيث وجهها الحقيقي إلا من خلال تجسدها⁽¹⁾.

«إن تحقيق حركية في سلم التراتب الاجتماعي هو المكافأة على الانقياد: الانقياد إلى أحد أهم أبعاد الهوية الاجتماعية، وهو العلاقة بالجسد»⁽²⁾ مع التشديد على الرجولة من خلال النطق والمفردات (باستعمال كلمات السباب والكلمات والقصص الرديئة... الخ)، لتعلن بذلك تعارضا صارخا بين القوة المادية الجسدية والقوة الروحية المعنوية، السائد في ذوات المجتمعات العربية:

- 1- قدرة الجسد على جعل الذات تتخلى عن سعيها المعرفي.
- 2- قدرته على إسقاط الذات في وحدة الشعور بوساطة الكثافة المادية التجسيمية
- 3- قدرته على استرجاع المعرفة والإحساس للذات التي حرمت منها.

إذن، الرجل السيد يعتمد إلى صيغ القول والتبادل المعرفي، لذلك تنوعت كالاتي: أقوال موجبة - وأقوال الاحتمال - وأقوال الإنكار - والتبادل الأدائي، أي أن صيغ القول في الكاريكاتور هي صيغ وجوبية، تتراوح بين الطلب: التزام بالواجب، وبين الفرض (أمر)،

(1) غريماس وفونتاني، المرجع نفسه، ص 25.

(2) بيار بورديو، المرجع نفسه، ص 120.

وبين الاحتمال المفيد ل:النهي/ العرض/ التعهد/ الاحتمال الحامل دلالة: الرفض/ الاستفهام. ويعود هذا الأمر إلى قانون التهكم والسخرية الذي يتقيد به مثل هذا النوع من الخطاب، وهو الظاهر بحدّ في الصور أعلاه.

ذلك أنّ اللغة تقنية جسدية، وتعتبر الكفاءة اللغوية الخالصة وخاصة الفنولوجية، أحد أبعاد النحو الجسدي الذي يتم فيع التعبير عن كل علاقة بالعالم الاجتماعي⁽¹⁾، من خلال أقوال الصيغ الموجبة: أُلود هذا طالع لأبوه إذا ما فعل الصواب (فعل إيجابي)، والولد هذا طالع لأمه إذا ما أخطأ الولد، في حين كان يتوجب المشاركة في الأمرين، هذا من جهة، وقول الرجل التهكمي المصحوب بفعل الضرب "وهاذ تحمر العين" لما عبّرت عن اعتراضها لخياره، بوقفة جسدية مستفزة، ويقوى المعنى في الصور التالية:



يظهر ال(رجل) في سياق تقابل (رجل يتظاهر بالتفهم والمسألة أمام الناس، ورجل قاهر عنيف في البيت)..، كمثل للاستقرار، والحال أن هذا الاستقرار الإيقوني يدعمه استقرار تشكيلي، وقد رأينا أن التضاد بين (مركزي) و(اللامركزي)، يمكن أن يتطابق ويتناقض مع مستقر وغير مستقر، وهكذا يتقوى المضمونان. كما أنّ الخطابان في توازي

(1) جماعة مو، المرجع نفسه، ص 119.

شكلي ودلالي لا يوصف، يعبران عن ذات الممثلات على اختلاف الإيقونات المستعملة في كل واحد، إنهما يخلقان اتساقا بصريا للخطاب ككل.

يظهر فيه الرجل صاحب التوجه الذكوري على أنه نوع آخر في علاقته مع المرأة، إنه يتقن لغة التظاهر، لغة الضرب، وهو ما تظهره كل الحركات الجسمية لشخصية الكاريكاتورية الذكورية في هذه الصور (اليد- العين- الفم- الشارب- الحركة بالرأس.. إلخ) ذلك كذلك إن المرأة تعي نفسها وتفهم ذاتها على أنها نوع آخر في علاقتها مع الرجل، وهذا ما يعزز التمايز الذي يمكن أن يفضي إلى هرمية اجتماعية، حيث أن التنوع في الفكر لا يمنع أن تكون مبادئ وقواعد مشتركة، وواجبات وحدود خاصة بكل واحد منهما، إلا أن الصور تظهر عكس ذلك، فالمرأة والرجل كائنان في صراع دائم، وإن اجتماعا في بيت واحد، لتجد الرجل مشغول بقراءة نظريات عن كيفية تمرير أوامره إلى زوجته دون نقاش ليشتري راحة باله، وفي المقابل نجد الزوجة شغلها الشاغل في قراءة كتاب يمكنها من جعل زوجها خائما في إصبعها، والمتأمل في الحركة الجسمية للزوج سيدرك أنه مرتاح بنظرة الدهاء على وجهه، أما المرأة فعيناها مفتوحتان كالبلهاء، وكأنها في حرب، ليؤكد هذا الكاريكاتور حقيقة النسق الفحولي المسيطر في كل الوطن العربي، سيمح له ذلك بممارسة كل أفعال العنف عليها:



إن التضخيم المعرفي للقلق واضح، كما أن الشك هو الصورة المعرفية التي تستوعب تلك التنوعات من خلال تضخيم اللا. استقرار الانفعالي إلى حد جعله غير مسموح به من

خلال إرساء دعائم إرادة المعرفة⁽¹⁾، وهو عنصر من عناصر الأهلية، يظهره الجسد المشوه- كإيقونة- وفي ذلك دلالة على الفعل الشيطاني الغريزي والبعيد عن الرحمة. كما إن التعارض القائم بين العلاقة الشعبية في نسقها الفحولي، والعلامة البرجوازية في نسقها التصنعي من قبل الطبقة المثقفة، سواء تعلق الأمر باللغة أم بالسلوكيات والصور المتعارف عليها، يظهر ذلك في التعارض القائم بين الفم الذي يعتبر نسويا مرغوبا فيه ومتميزا، والشدة في فم الرجل الذي يعتبر ذكوريا بشكل نمطي ومتوارث.

ولما كانت الصورة مرادفا للممثل البصري، فقد استعمل الرسام العربي المتخصص في الكاريكاتور الرموز اجرائيا كآلية قابلة للتعميم، وتدرج ضمنا ضمن الأيقون، فالصورة الممثلة للرجل وربطه بالثور، فالثور مشكل خارجيا، ويتموضع ضمنا في تواز مع المشبه، وهو ميزان العنف والقوة واللا. تفهم، في خيال طفله، الذي يظهر بجسد مشوه دلالة على طفولة مشوهة غير طبيعية متأزمة نفسيا جراء ذلك.

كما نميز الاستعداد للعنف اللفظي (الشتم - السباب - اللعن)، والتي تظهرها نظراته وتصرفاته في كثير من الأحيان مع هذه المرأة، والاستعداد للعنف الجسدي (الضرب - اللكم)، وفي المزاح الساخر الصريح وانغلاق ملامح الوجه، وفي ذلك دلالة على سيطرة الغضب والفكر العنيف في ذات الرجل إذا ما تعلق الأمر بعلاقته بالمرأة وحتى الأطفال، إذ يعمل جاهدا على أن يبرز ذاته تجاههم لتقوى سلطته وسيطرته عليهم، ولتسيطر عليهم مشاعر الخوف منه. كما تتوضح هذه الدلالة في عملية اسناد هيئة تشوه مظهره، أو في بطنه المتنفخة التي عمل صاحب الكاريكاتور من خلالها للدلالة على النهم وعدم التكافؤ واللا. توازن في شخصيته.

يعني ذلك أن النحو الجسدي الذي يميز طبقة معينة يجعل البعد الفونولوجي للخطاب الكاريكاتوري يخضع لتغيير منظم بواسطة الأسلوب النطقي⁽²⁾ الذي يمثل بعدا من

(1) غريماس وفوتني، المرجع نفسه، ص 333.

(2) ينظر، ييار بروديو، المرجع نفسه، ص 119.

أبعاد الترسمة الجسدية التي تعتبر إحدى الوساطات المهمة جدا بين الطبقة الاجتماعية واللغة.

نشير في الأخير إلى أن الخصائص القابلة للوصف موضوعيا هي الخصائص الظاهرية (الذرية)، وبأن الخصائص الباطنية (الشاملة) تشكل منه توليفات ذات طابع ذاتي وجزئي دائما ما يكون منتقلا وافتراضيا⁽¹⁾؛ إذ تبدو وضعية الخصائص الظاهرية مستقرة ومحافضة على المعنى بأشكاله: الترابط بين العينين وملحقاتهما في الوجه، وهو عبارة عن علاقات دائمة يمكن رسمها بشكل دقيق، ومع ذلك فإن وضع الخصائص الإجمالية الباطنية، يبدو مختلفا تماما، في مثل الوضع النطقي الأكثر تواترا في الأوساط الاجتماعية، والظاهر في هذه الرسومات الكاريكاتورية والفم أحد الاستعمال الإجمالي للنحو الجسدي كما أنه يمثل المصدر الحقيقي ل(النبرة) كتغيير منظم يستوجب فهمه، بما هو كذلك، قد غلب عليه، إظهار الأسنان تارة، وهذا دلالة على الشراسة، وتغطية الفم بالشارب، وفي هذا دلالة على قوته وأن صوته هو صوت الفحولة التي ترفض أي تقصير، لا من الزوجة، ولا من الولد، ولا من الذين حوله، إذ يحاول الرسام بهذا الإبراز الجسدي للرجل العربي أن يظهره فحلا بهذا الشارب حتى قبل الكلام.

وعليه، يظهر الإنسان العربي كأننا يتطور عبر المواجهات والمجاهبات العنيفة، إذ انعجنت في عناصر الشخصية القاعدية كمركب وجودي يحمل رؤية درامية للزمن والكيونة، كما أنه كائن يتطور في سياقات اللا. توازن المحكوم بالظلم الاجتماعي، إنه كائن مرمي في فوضى الحداثة وصخب العصر، يغذيه أسطورة النسق الفحولياتي يتقن الرجل العربي ببراعة ترداها والعيش بطلا في حكاياها، إنه نسق يسطر على كل ذات عربية في أي مكان وجدت وبأي صفة كانت، إلى جانب فائض دور البطولة لديها، وإرادة إثبات الكيونة القوية، وإثبات الذات في عالم شرس المصالح والرهانات دون استراتيجية، وتقنين علمي للواقع والمستقبل، إنها ذات جد مندفة، تحتاج إلى أن تفكر ببراعة وأن تدرك بحذق قبل أن تقرر.

(1) جماعة مو، نفسه، ص 136.

وتتحول المرأة من المفعول به إلى فاعل (يحق له الفعل ويختار ما يفعله ويتحمل مسؤوليته)، ولكن بفعل حصار يجبرها على البقاء في المقابلة الآتية:

تقابل / اللا. تكافؤ	{	الرجل كائن:	المرأة كائن:
		فاعل	غير فاعل
		جوهرى	غير جوهرى
		علوي	دوني
		متعالي	امثالي
		ذات	موضوع

أين تظهر محاولة تحويل المرأة إلى دمية، فتصبح المرأة الحبيبة والمعشوقة امرأة مثالية، وسطحية فاقدة للشخصية ومفتقرة إلى الإحساس بالكينونة الحقة، حيث تختفي العبودية تحت مساحيق الجمال والموضة والأزياء، والتظاهر بالتفاني في العمل، الأمر البارز فيما يلي:



تظهر يد الرجل المسؤول المتزمت حاملة عكازا يستعمله لعرقلة جهود المرأة في سبيل إقرار حقوقها في المجتمع، غير أنها عكاز مكسورة وفي ذلك دلالة على إمكانية انفلات المرأة من هذه العرقلة، وجاءت الصورة بين بياض وسواد، كرمز لزمن سيالسيد الجوهري المتعالي، ونمى في المكونات الإيقونية لهذه الصورة الكاريكاتورية بين ثلاثة أبعاد: الوضعية

واستعمالات الجسد الإنساني الاستعارية والنظرة؛ فالخطاب الكاريكاتوري - في عمومه -
يعتمد إلى تقنية عدم استعمال الجسد الإنساني بكامل تمفصلاته ودلالاته المضافة ولكن
الرسام أو صاحب الخطاب فيها، يبقى في هذا الاستعمال على البعد النفعي فيه، ولا
يتجاوزه إلى الاستيهامات المتعبة التي تستثير المتلقي (الرجل).

لذلك تظهر تمفصلات الجسد الأنثوي بغنج واضح وأنوثة طاغية تصور ما تحياه
الذات في مجتمعتها. كما يمكن القول أنّ نظرة المرأة هي نظرة جانبية خالية من التعبيرات
الاستيهامية، في معظم الصور، وهي موجهة إلى الأسفل، وهذا أمر يجعل التواصل منقطعاً
ومتذبذباً مع الطرف الآخر؛ نظرة كلها حزن وتوتر واضطراب يمثله سواد عينيها، وتوتر
يجسد التوهم البصري الإدراكي بجسدها غير المستقر: الممتلئ تارة والنحيل أخرى، والمتوازن
مرة واللا. متوازن أخرى، والقوي والضعيف، والمسيطر واللا. مسيطر، وهكذا، لإظهار
التناقض في ذات المرأة العربية بين إثبات الذات وإضعافها الإرادي واللا. إرادي، بين حب
التملك لرجل مطواع ونفور من الرجل المتسلط، لتخلق انعدام تواصل في شخصها،
وتهميش كلي للشخصية السوية في ذاتها (بين جسد رائئ وجسد مرئي).

جلستها ووضعيتها وقوفها (الهيئة) مرتبط بمدى بروز جسدها كإنسان طبيعي، وتظهر
في هيئة نمطية تباعاً لنمطية الحضور الإنساني في المجتمع، إذ عليها أن تخضع إلى حاجزين؛
الأول المتطلبات الاجتماعية، وثاني رغبتها في أن تكون عملية مهنية مثلها مثل الرجل،
ولكن هذا الكاريكاتور يسخر من التجمعات النسوية، هل الأمر تهكم رجالي على مطالبها
التي أخذت الكثير منها أم أنّ المرأة وحدها هي المسؤولة عن هذه النظرة باهتمامها المبالغ فيه
للمظاهر؟؟ وهو أمر تظهره الصورة الأولى. وعليه يجب أن نتعامل مع السمات الفونولوجية
الخاصة بكل طبقة على أنها كل ناتج عن (تكوين) منظم يجد مصدره في النحو الجسدي⁽¹⁾،
الذي نعتبره أيقونة الجسد ككل، وعلى أنه المجال الذي تتجلى فيه العلاقة المنظمة للعالم:

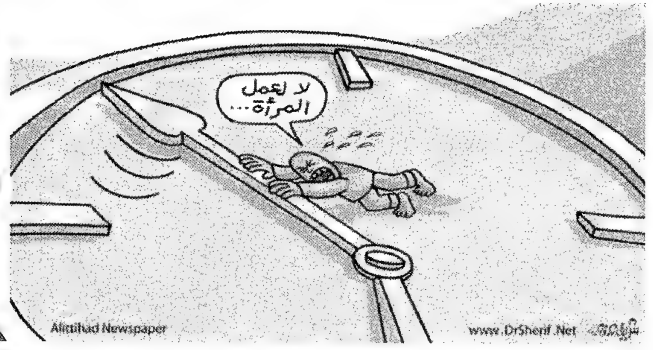
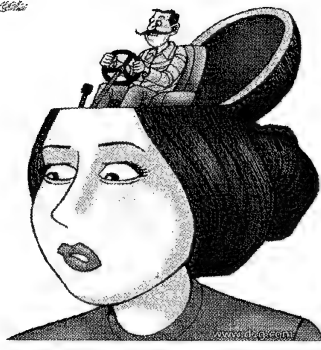
1- امرأة - رجل جدل الأنا والآخر

(1) بيار بورديو، بيار بورديو وآخرون، اللغة (الرأسمال اللغوي والجسد)، ترجمة محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، دار
توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط 1، 2012، ص 119.

- 2- شيخ -شاب.
- 3- مواطن، حكومة.
- 4- أب وولد- ابن وأب - ولد وأم/ ولد، تعليم...
- 5- شاب، جامعة
- 6- أنا، لغة.

وغيرها من العلاقات الاجتماعية والإنسانية بدءاً من أول علاقة في المجتمع (رجل - امرأة) إلى (والد -ولد) إلى (سلطة - مثقف) إلى (شاب -تعليم) في المجتمع العربي، ومعظمها خاضع لمنطق التهميش والاقصاء الظاهر باستعمالات الجسد؛ باعتبارها تختزل الجسد بكامله: (كلام عامي جاف وقاس/ كلام جميل متصنع)؛ فهذه الاستعدادات المتصنعة والتي لا يقتنع بها فاعلها، تظهره الصور مزدوج الشخصية، جسديتها الأشكال الكاريكاتورية (1-2-3)، والتي نجدها تعبر عن سلطة وعنجهية هذا النسق الفحولي العربي وازدراءه، وتأنقه المصطنع في سلوكياته العامة والخاصة (الجلسة - الوضعية - النظرة - الصوت - الهيئة - الوجه - الإشارات الجسمية) ناهيك عن الاحترام المصطنع للمرأة إذا كان الأمر علنياً من جهة، وعن التمايز والادعاء للمرأة التي يظهر فيها على شكل قلب دلالة على عاطفية لغتها واندفاعها، ليعبر أخيراً على ضعفها في هذا التحدي من جهة أخرى، لتؤكد حقيقة حصر المرأة في الخصائص المشار إليها في المقابلة؛ ذلك أن الإبهام الخاص بالموضوع المعرفي ينتقل إلى ذات تشك في قواها البصرية، أي في كفاءتها فترتاب في الوقت ذاته بنفسها أو بما تراه⁽¹⁾، أي من الإدراك الحسي إلى إدراك اعتقادي التالي:

(1) جاك فونتن، نفسه، ص 204.



فالمرأة التي تجدد نفسها في مناخ لا تستطيع معه، إلا أن تعتنق الفكر الذكوري، والأبوي والمسيطر، وفي هذا سلب لأنوثتها، حيث تتحول إلى جنس ثان كما الرجل الذي يعاني قهرا واستبدادا من طرف المرأة التي تمارس عليه سياسة الإقصاء؛ وفي هذا الجنس الثاني (الأنثى الذكر) تكون المرأة في اغتراب تام وتناقض واضح، كونها تدرك حقيقة الانفصال الواضح بين الواقع المفروض عليها، وبين الواقع الذي تنشده لنفسها.

ولكون الصورة دلالية بشكل جوهري، تسمح بأن تضاف إلى المكونات المرئية للصورة دلالات مطورة جدا، فإنها تدخل أحيانا مفاهيم ضمنية، تمثيلها غير ممكن، واللغة وحدها يمكن أن تصرح بها⁽¹⁾، ذلك أن فعل الرسم في ثقافة ما جزء من النشاط الإنساني وشكل من أشكال الحياة فيها يمكن له - كفعل - أن يخضع إلى دلالات الاشتغال العملي.

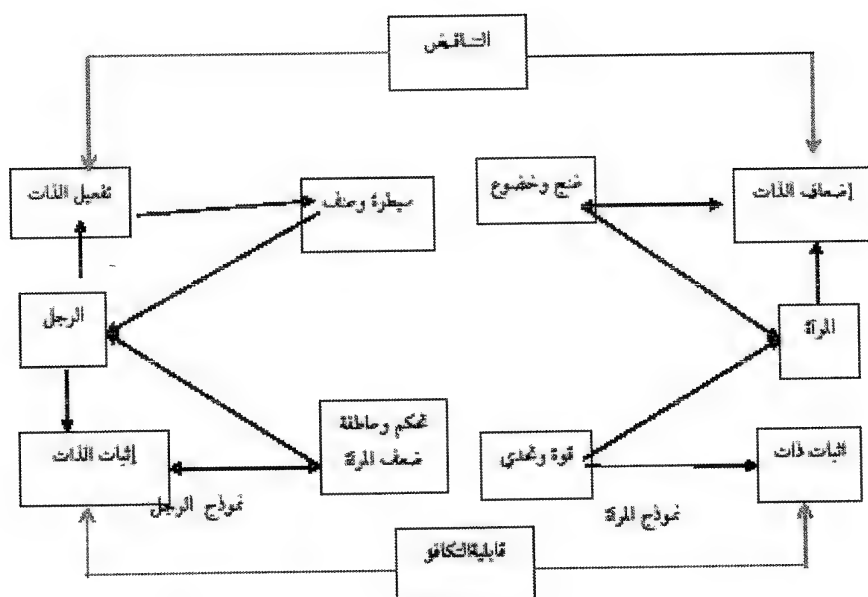
والذي لا يتحقق له شرط التداول اللغوي إلا إذا خضع لثلاثة معايير رئيسية، أن يكون مسندا إلى المتكلم لا إلى غيره، وأن يكون مصوغا في الزمن الحاضر، وأن يكون بمجرد التلفظ به يقتضي فعلا أي إنجازا.

أمام التعامل السيميائي النسقي التأويلي مع مثل هذا النوع من الخطاب يستلزم على المحلل (المتلقي) الانغماس في مناخ تخلق هذا الكاريكاتور، وملامسة انسجام جميع مكوناته من خط ولون وظل وملح جسدي وحركة وضوء وشكل وحوار (لغة)، كونها أمورا تمكننا كقارئ من فهم وإدراك حيثياتها كخطاب بصري مؤثر ومبهر، بفعل التفكيك الذي يعمل

(1) جماعة مو، ص 492.

على إبراز الوحدات البنائية وإدراكها، ولا يعني أن الوحدات الهيكلية المختارة لها وجود حقيقي في المحرّض إنها في الذهن، لا ضمن العالم»⁽¹⁾.

إن إدراك إيقونية الجسد يتم عبر الحواس التي يتم بها إدراك العالم، وكما يقول مورلو (M.Merleau): «لكي أستطيع إدراك جسدي كلية، على امتلاك جسد ثان يكون بدوره غير قابل للملاحظة»⁽²⁾، أين نجد المرأة كجسد مدركة كخصائص نوعية وأفعال مقابلة للرجل المحدد بأفعال وأقوال وخصائص؛ ما نحاول إبرازه في هذه الخطاطة:



"مخطط يوضح التناقض في ذوات المجتمع"

يمكن لهذه العناصر أن تسقط فيها عناصر دلالية بمنظرة تضادية (قمة ≠ جوف مع تضاد دلالي مثل قوة ≠ خضوع، والتي تحملها تماما النماذج الإيقونية المحددة والاستقرار هنا مضمون إيقوني يكون سمة النموذجين (مرأة - رجل)، لنجد سمة ثانية في التداخل

(1) جماعة مو، نفسه، ص 134.

(2) M.Merleau-Ponty.phénoménologie de la perception gallimard- tel.paie.1945, p 107.

الجسدي للشخصيتين؛ وهي أن تتداخل إحداها في الأخرى، وبالتالي يتضاعف تكامل الإشارات بتكامل التشكيلات التي يكون مجموعها مخططا لا نقص فيه ولا تراكب، ويدعم الكل توازن من النسق نفسه بين الخطوط العمودية والأفقية: أنف، محور الوجوه، يدا المرأة، يد الرجل، بطن الرجل.. الخ. إن قوة المرأة في ضعفها، وضعف الرجل في قوته، أما قوته فهي في عطفه واحترامه وتفهمه لذات المرأة، ولا تدرك الذات المتلقية ذلك إلا بالعين التي تملكها.

كما يمكن أن تكون هناك تقلبات عدة قبل أن يتوازن الاندماج في نموذج من القراءة المحددة والمستقرة، وفي اللحظة ذاتها فقط تأخذ المحرضات الأولية أو السمات وضعية المعارف، لأن حضورها يغدو تمظهرا للنموذج، وهي تبقى تخمينات سيميائية أخضعنا فيها أدوات التحليلية الخاضعة بدورها إلى محددات الفهرست، أي أن تميز الوحدات الهيكلية شيء لاحق، وينتج عن اندماج هذه السمات (أشكال نسج، ألوان) يتلاءم مع نموذج من الفهرست⁽¹⁾، وهذا الاندماج دائما حدسي و مدعوم.

الجسد الأنثوي قدم بعناية فائقة، وهذا ليفرز توافقا مع طريقة معينة في العناية بالجسد كأيقونة للتوحيد بالطبقة المعنية من حيث (البرهجة) العناية بالمظاهر الخادعة، وتصنع الحركة، والتغنج الظاهر في معظم الصور، والتصنع في كثير منها، والتي تستعملها لتقابل بها هذا النسق الفحولي السائد وتنكير قيم الرجولة المتصنعة، إضافة إلى عوامل أخرى كالمنفعة المتبادلة بينهما، والقيم الثقافية الذوقية المجادل فيها، فالنساء يتمكن من التوحد بالثقافة السائدة دون أن ينفصلن عن طبقتهم انفصالا جذريا، ودون أن ينظر الآخرون لهذا التحول كنوع من التغير في الهوية الاجتماعية والجنسية على خلاف ما يحدث للرجال⁽²⁾؛ ف'على الذات المعرفية الانتقال إلى مستوى أعلى لكي تقارن بين معرفتين وتخلص إلى التناقض'⁽³⁾.

والانتماء الطبقي - في هذه الحال - يتحكم ولو جزئيا في علاقة الأفراد باللغة من خلال علاقتهم بالجسد التي تحددها الأشكال الملموسة التي يكتسيها تقسيم العمل بين

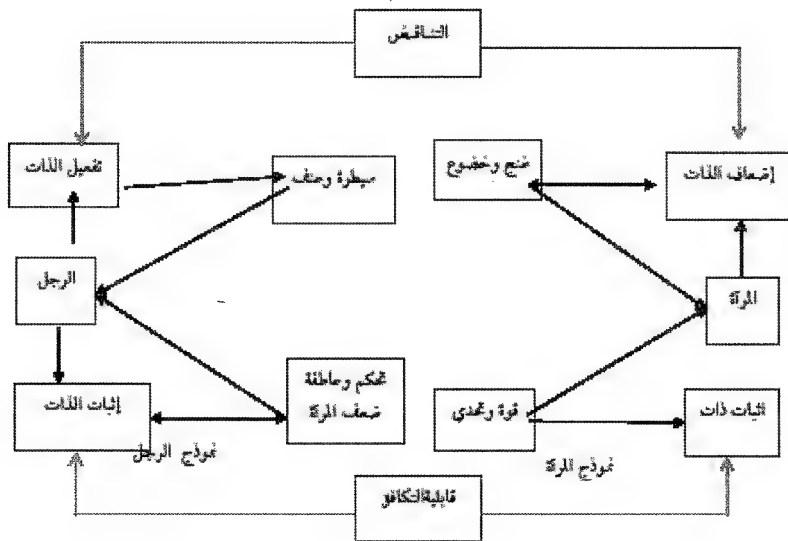
(1) جماعة مو، نفسه، ص 137.

(2) بيار بورديو، اللغة، ص 120.

(3) غريماس وفوتيني، المرجع نفسه، ص 322.

الجنسين داخل كل طبقة سواء أعلق الأمر في الممارسة أم في التمثلات، ليغدو ممكنا تقديم تسوية للمشروع التشكيلي، واسناد دلالة إلى العمل الذي يعدل في وقت واحد بين عناصره التشكيلية وموضوعاته الإيقونية، التضاد بين الطبيعة والثقافة هو بلا جدوى، إنه يتلشى في ضوء الشمس، لتكون العلامة بذلك سيورة تطور الدلالات⁽¹⁾ مرادفة لسيورة فعل الدلالة وحركتها هذا الفعل (sémiose) والذي يؤدي إلى إنتاج الدلالة وتداولها.

كونها تتيح الولوج إلى أداء الوظيفي للظاهرة السلوكية، فلكي تغير سلوكا لا بد أن يأخذ سلوك هذا الفاعل معنى آخر لقد رأينا كيف يمكن خلال تعديل موقف تغيير المعنى وجعل الفاعل يفعل شيئا آخر، كون سيمياء الموقف تحمل في طياتها نظرية للنشاط الإنساني فبإعطاء الأسبقية للموقف تتجدد بذلك مقاربات المعنى، هذا الأخير الذي يدرك كرسالة للعالم المدرك من قبل الفاعل، وهذا العالم المدرك من ناحية أخرى، هو عالم مؤلف من مجمل المعاني التي يحملها، ف"الفاعل" لم يعد في العالم "إنما العالم والفاعل متلازمان"⁽²⁾:



(1) جماعة مو، نفسه، ص 269.

(2) أليكس ميكيلي، المرجع نفسه، ص 180.

إنّ «الجسد هو ما يمكن هذا العالم من ولوج عالم المعنى، جسد حاس، ومدرك وفاعل، هو جسد يملأ كل الأدوار المتفرقة للذات في تصلب وقفزة ونقل... جسد باعتباره سدا وتوقفا يقود إلى تجسيد مؤلم أو سعيد للذات، ولكن أيضا بؤرة لمرور الطابع الباطني الذي يساعد على الانفتاح على أنماط الوجود السيميائي»⁽¹⁾. اتخذ الجسد وساطة الدخول إلى عالم المعنى المتحقق في مثل هذا النوع من الخطاب، لينقل لنا الثنائيات التالية: الجسد والروح / الذات والمادة/ الشكل والمعنى/ العنف والسلام، والجسد هو الأهم أمام قيمة الضمير والجوهر.

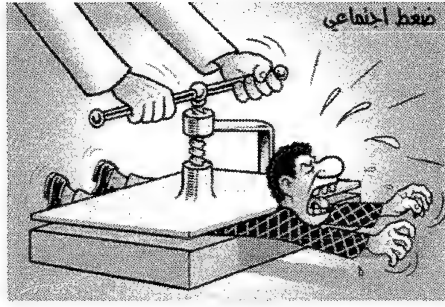
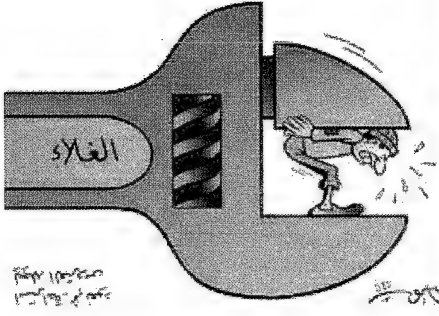
2- الجسد والمفارقة البصرية:

يعمد الكاريكاتور إلى الاستعانة بمنطق لفت الانتباه والمفاجأة والإثارة مقابل الاقناع العقلي، ولا يأتي له ذلك بالاستعانة بآليات عجائية تجعل المستحيل ممكنا، وليس غريبا أن يختار الرسام عن قصدية مضمرة هيئات، هي أقرب إلى التعبير الإيقوني الذي دعت إليه حاجة الشعوب في الإعراب عن موقفها من التحولات الفكرية وبطريقة مشحونة بالإيماء؛ إذ يرى أرنهايم النظام هو الذي يجعل الإدراك عقليا أي الذي يسمح بكشف المشابهة والاختلاف⁽²⁾؛ فالنظام هو تقطيع عددي رقمي (discrétisation) للفوضى... ذلك أنّ الأشكال لا توجد بذاتها وإنما هي فقط مدركة حسيا⁽³⁾، وهو ما يتجلى فيما يلي:

(1) غريماس وفونتي، سيميائيات الأهواء، ص368.

(2) مجموعة مو، بحث في العلامة المرئية، ص54.

(3) مجموعة مو، المرجع نفسه، ص55.



لقد عمل الرسام صاحب الكاريكاتور العربي على تجزئة الجسد الإنساني وفق الدلالات التي أراد إبلاغها للمتلقي، خاصة في إبرازة اليد ليقول أن هذه الذات لا تتقن إلا العنف والقوة؛ إذ «يلعب الجسد الإنساني خارج الإدراك الحسي دور محفل التوسط، أي بؤرة للانتقال من الاستنباه الجواني والبراني، وقيم فضاء سيميائيا توتريا ولكنه منسجم»⁽¹⁾؛ فلم يعد العالم الطبيعي هو الذي يتقدم نحو الذات، بل الذات هي التي تعلن امتلاكها للعالم، وتمتلك مدلوله وتعيد تنظيمه شخصا بطريقتها الخاصة، فالعالم الذي نطلق عليه طبعيا عالم الحس المشترك، ويصبح حينها عالما عند الإنسان عالما يمكن أن نقول عنه أنه إنساني؛ ويفسر هذا سيروية انتشار الجسد بطابعه التمثيلي، حيث يصبح الجسد مصابا بفضل قوته التشخيصية مركز المرجعية للإخراج الإيقوني، وهي خاصية كل كاريكاتور، ناهيك عن توارى الجسد داخل الجسد القناع/ الجسد المعدني الرامز للقوى الاجتماعية الضاغطة والمرهقة للجسد الإنساني للمواطن العربي.

إن الصور يمكن أن تكون منتظمة بالنسبة للمشاهد (الذي يمتلك منوالا)، وقد لا تكون كذلك بالنسبة للمشاهد الآخر الذي لا يمتلكه، فالقارئ - بذلك - هو الذي يصنع القراءة، لتحقيق المعنى الذي هو امساك بسيروية لا تحديد لمضمون يوجد خارجها، إنه ليس

(1) غريغاس وفونتني، نفسه، ص 64.

محايتا للشيء ولا للذات إنه حصيلة النشاط الإنساني في بعده التداولي والمعرفي معا⁽¹⁾، ما يمكن الوقوف عنده في هذه الرسومات الكاريكاتورية:



يسمى صاحب الخطاب خطابه "نكت سياسية- الكوميديا السوداء"، وهذا ليحقق مفارقة بصرية فكرية حادة، إذ يحمل الرجل لافتة "حقوق المرأة"، ولكنه جثة ضخمة ترهق كاهل هذه المرأة التي ينفجر كل شيء فيها لثقل ما تحمل وما تتحمل، والذي تظهره ملاحظتها الجسدية البارزة من جهة، وشراسة من تحمل لبروز أسنانه وطول شاربه من جهة أخرى؛ ذلك أن المرجع الذي تحيل عليه العلامة الأيقونية المرتبط بمشكل القياس ليس مرجعا ماديا بل إنه مرجع ثقافي⁽²⁾، فالوضعيات القصوى والمفارقة وحدهما القادرتان على توضيح خصوصية التجسيد، للبحث في اتساق الخطاب بطرح مفهوم القطب الدلالي (isotopie) المسيطر، ذلك أن القطب الدلالي ليس إلا إحدى استراتيجيات الاتساق الممكنة⁽³⁾.

ويظهر الشاب المفروض ارتباطه بالسياسة لأنه رمز المستقبل، فهو وحده من يجب أن يساهم في رسم مستقبله، لكنه بتجاعيد وجهه المسن، يعلن القطيعة ويختار أن يكون الشاب العجوز، في يظهر الرجل المواطن ب بجمده غير المتناسق يلهث خلف خبز العيش / الحياة على الرغم من تعلقها في ظهره ليخلق مفارقة تنفتح على عديد القراءات؛ ذلك إن العلامة

(1) غريماس وفونتي، نفسه، ص 17.

(2) عبد المجيد العابد، القياس، ص 149.

(3) جاك فونتي، سيما، المرئي، ص 23.

الأيقونية لا تجمع أشياء مدركة حسيا، وتوجد لها معادلا موضوعيا في الواقع بل من خلال الوعي باعتباره صورة ذهنية والقياس هنا، لا يوجد بين الصورة والواقع، بل بين الوعي أو البنية الإدراكية والصورة، كما أن دال العلامة الإيقونية متصل بالمرجع بعلاقة تسمى علاقة تحويل، فالمرجع والدال مرتبطان معا في علاقة مطابقة مع نمط⁽¹⁾.

نقول في هذا المقام أنه يستحيل أن تستقيم المعاني في الخطاب الكاريكاتوري خارج التقطيع اللغوي والتقطيع البصري مهما تعددت الوسائط؛ فاللغة تحضر في كل شيء والإنسان مهما بلغت أساليب التواصل عنده من تغير وتطور وتبدل لا يستطيع أن يمتلك الكون رمزيا من خلال هذه الوسائط، بل من خلال اللغة، فأن تسمى الأشياء بمسمياتها معناه أنك تملكها رمزيا، وتجعل حضورها دائما في ذاكرتك بعيدة المدى، إذ يمكن استثمارها بأي صورة في وضعيات تخاطبية مخصوصة، أما الوسائط الأخرى، فتعد دعائم رئيسية في التواصل لا غير، فالمعنى مدرك من خلال دال متمظهر، لكن تظهره لا يبتني إلا بحسب معان تظهر مع برهان اتصال الدوال⁽²⁾، نظرا إلى مبدأ التنافر الوظيفي للدلالات المتميزة.

كما أن الذهول يفترض توقعا يعاكس ما يحدث، وهذا التوقع نفسه يؤكد الاعتقاد ويؤدي التوهج غير المتوقع إلى حدوث الشك أيضا ومن ثمة فإن هذا التوهج يولد اعتقادا آخر⁽³⁾؛ ليتفاعل المتلقي مع الخطاب الكاريكاتوري بفكره وجدانه، على الرغم مما يمارسه عليه هذا النوع من عملية تعطيل الفعل الذهني العقلي لديه، بحسب قانون الانبهار والإثارة، وهذا ما يجعل المتلقي غير فاعل في العملية بل منفعلا، لأن الصورة الكاريكاتورية عملت على تعطيل الجانب الأيسر من الدماغ لصالح الأيمن منه، وتحافظ على مسافة كبيرة بين ما يعود إلى الخيال والعاطفة، وبين ما يعود إلى المنطق والعقل، وهي بطبيعتها تلك، لا يمكنها أن تستقل عن اللغة في التواصل الفعال⁽⁴⁾؛ كونها الكاشفة عن أسرار الصورة، والمفصحة عن

(1) جماعة مو، نفسه، ص 157.

(2) جماعة مو، ص 154.

(3) جاك فونتني، نفسه، ص 204.

(4) عبد الحميد العابد، السيميائيات البصرية، ص 76.

تمنعها وغنجها، فبوساطتها يتم فك تشفير الصورة وفك ترميز السنن اللغوي المصاحب للخطاب الكاريكاتوري في سبيل أن تصل إلى ذهن المتلقي وتحقق إدراكا معينا له كخطاب مجمل ومنسجم من جهة، ولتحقيق تواصل فعال من جهة ثانية.

وعليه نقول، أنّ لهذا الفناخطر في تشكيل الذهنيات، وكسر الحدود وتنميط السلوكيات والمعتقدات، وتطبيع الرؤية إلى العالم والأشياء لدى المجموعات البشرية فكرا وسلوكا وممارسة وثقافة⁽¹⁾.

كما أن المعنى في الصورة هو ما تريد الظاهرة قوله للفاعل (أي المعنى في الطرف الآخر، أو الطريقة التي تفهم بها الظاهرة)، ويأتي هذا الفهم من عمل فكري يضع الظاهرة في علاقة مع عناصر الموقف بالنسبة للفاعل الذي يقتطع في السياق في العام موقفا يتماشى مع مقاصده ونواياه ورهاناته والمشكلات التي يريد معالجتها؛ لأن الصورة ليست معطى جاهزا بريئا، لكنها حاملة أوجه ومائعة المعنى، بإمكانها أن تقول في لحظة ما تعجز آلاف الألفاظ على البوح به⁽²⁾.



(1) عبد الحميد العابد، نفسه، ص 74.

(2) المرجع نفسه، ص 74.

إنّ «الظليل يحيل العالم الحسي إلى ما يجرده من مظهره، والذي يدرك بالحواس إدراكا مباشرا في حين أن الضوء الضعيف والمرشح يرجعه إلى أصلته»⁽¹⁾؛ ففي هذين الخطابين يمكن القول أن عالم الظل المرتبط بالجسد، والذي اكتسب صفة جمالية في منطق التحديدات القابلة للانعكاس بين الكنه والظهور، هو العامل المساعد على منح الخطاب المؤول الأقرب، لأن الخطاب الكاريكاتوري يطرح عديد الإشكالات المتعلقة بدوره في تحقيق العملية التواصلية، وفي تسجيل نشاطات البشر بكل تفصلاتها الإنسانية فكرا وسلوكا وقيما.

إنها ظلمات تتأثر بها العين، توهم بنوع من الضباب المختلج، الذي لا يمكن للتجربة السيميائية أن تتخلى عن اقتران هذين المقامين: مقام لعيش خصائص عالم الظل والإحساس بها، وآخر لتقييمها؛ ففي اللحظة التي ينغمس المشاهد بها في ملذات عالم الظل، فإنه يحتفظ بذكرى الشك وعدم اليقين الذين أتاحا له دخول هذا العالم⁽²⁾ كجسد وككنه؛ حيث يتساءل المحلل عن الشخصية المكسوة سواد في الخطاب الأول، وعن جلستها وتوجهها، وحتى عن الأدوات الحادة المغروسة في ظهرها: (سكين - سيف - مقص... الخ)، كما يتساءل عن النص اللغوي المصاحب "هل من مزيد"، وكان كل هذا الكم من الألم والوجع الذي تسببه هذه الأدوات غير كاف، ليطلب المزيد كلمة رامية للضغط الاجتماعي العربي، ولنفسية الشخص الممارسة لها والممارسة عليها، كتبت باللون الأحمر لدمويتها.

أما الصورة الثانية فقد جعلت الشخصية مصاحبة للظل و الضوء مسلط على وسطها؛ والمتلقي يشعر بهذه الإنارة وهذا التعيم، الذي يعكس الحالة المراد التعبير عنها، والتي مثلها الخطاب اللغوي الأول: "رغم الحملة الاعلامية لتعبئة الشعب للانتخاب"، فهو نص قرب الطاب ككل لتلقيه، ونص ثان يشكل سؤال طبقة العوام والشيخوخة عن موعد الانتخاب، والمفارقة تبرز في هيئة الشخصية المقابلة وجوابها؛ فالهيئة للشيخ والمسمى شاب، وفي اتكائه على الحائط ووضعته بشكل عام، والجواب الحامل جهله لكل ما يحيط به (علمي علمك)، جوابا على سؤال الشيخ (صح دارو الفوط هاذ انهارات؟)، وفي هذا تعبير عن

(1) فونتني، سيمياء المرئي، ص 205.

(2) فونتني، سيمياء المرئي، ص 208.

ضباع الشباب وشعورهم بالقهر والاستسلام والاستهتار، لأن المؤول عنصر مركزي في علمتي التركيب والتفكيك في إنتاج العلامة وتلقيها، فالرسم ينجز صورته في ظل متراكمات معرفية اجتماعية، نفسية، ويركبها على هذا الأساس والمتلقي سيعمل على تفكيكها، ليمنحها المؤول الأقرب⁽¹⁾.

على من يتعامل مع الكاريكاتور أن يميز بين عالمين للصورة الكاريكاتورية: عالم مدرك وعالم محقق، هذا الأخير هو ما يشترك فيه السيميائي والرجل، والعالم المدرك هو ما تحيل إليه التجربة الإدراكية من خلال الفعل السيميائي (بوساطة) الذي يقوم على التفكيك والتجزئة، وإعادة البناء، بعدم اكترائه إلى النسخ، بل إلى النماذج التي تعد ابتداء البؤرة الأولى لبناء نسخ وضمان بقائها.

إن القوى اللاهية والقوى المبددة تتنازع على حقل الخطاب، وتقول كل مرحلة من مراحل الأنساق الأصل على توازن معين بين هذين النوعين من القوى⁽²⁾، وبقي الآن أن نتصور الكاريكاتور خطاباً مركباً من توازنات بين القوتين المتصارعتين و، اللتان تتداولان تقسيماً مساهمة في رسوخه.

تدرك الصورة بوصفها علامة تماثلية، حيث إن المشابهة هي مبدؤها في الانشغال، وقبل التساؤل عن سيروية المشابهة يمكن الاعتقاد أن مشكل الصورة هو بالأساس مشكل التشابه⁽³⁾؛ فعندما تدرك الصورة بوصفها تماثلاً، فإن هذا يدل على أن الصورة تدرك باعتبارها علامة.

"وأن مفارقة الجسد الشخصي تكمن بالضبط في عدم تطابق الفكر والإدراك، فإذا كان الفكر يجهد لكي يحدد الجسد في نطاق الفضاء والعالم والأشياء، فإن الإدراك يعجز عن خلق هذه الصورة"⁽⁴⁾؛ لأن الرؤية إذا كانت تستطيع إدراك الآخر في مظهره الشامل فإنها لا

(1) محمد الماكري، الشكل والخطاب، ص 270

(2) جاك فونتي، المرجع نفسه، ص 25.

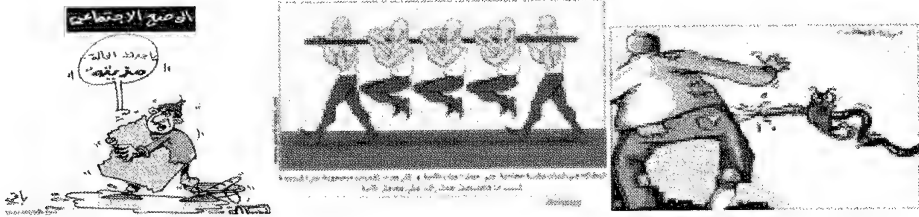
(3) عبد المجيد العابد، السيميائيات البصرية، ص 96

(4) فريد الزاهي: النص والجسد والتأويل، ص 27.

ترى من الجسد غير ما تمكنها إياه وضعيته الجسدية، وتعود هذه المفارقة الأنطولوجية إلى أن الذات الرائية تلاحظ الأشياء الخارجية بجسدها، وتعمل على أن تكون لديها نظرة نهائية ومكتملة عنها.

إن الآلة البصرية الإدراكية معقدة بطبيعتها تطرح دلالات عديدة تتم بالمفارقة الجسدية، حيث لا تلاؤم بين رأس الجسد وفريسته (البطن المنتفخ)؛ إذ ننظر إليه بوصفه علامة تعيد إنتاج بعض خصائص الشيء الذي تمثله لما تلك من هذه الخصائص، كون الإيقونة علامة تربطها علاقة تشابه مع تحيل إليه في الواقع الخارجي.

لذلك يؤكد ايكو A.ECO أن العلامة الإيقونية لا تملك خصائص الشيء الممثل، لكن تعيد إنتاج بعض شروط الإدراك المشترك على أساس تسينات عادية، وتسمح بتكوين بنية إدراكية تملك في علاقتها بالتجربة المكتسبة الدلالة نفسها التي توحى بها التجربة الواقعية من قبل هذه العلامة نفسها⁽¹⁾؛ إذ تشتمل الرؤية على تجسيد معنى، وتؤدي إلى تصنيف العالم المدرك، الأمر الذي تظهره الصور التالية:



ملاحظ هذه الكاريكاتور سيشعر بقوة "قصيدة الخطاب" المتجلية في ملامح شخصه المغيية في الصورتين الأوليتين من اليمين؛ إذ تظهر الشخص بخص بقاء بدنية، فالأولى تمكن الجسد الضخم من ردع الآلة بلباسها المرقع، إلا أنها شخصية مستعدة لتقبل الاستبداد، أما في الثانية، فتظهر الشخص بخص بقاء بدنية تمكنهم من تحمل عبء ما يحملون على خفته، إلا أن العبء يسلط على الأول والآخر، بينما يشكل الوسط عبئا على كاهلهما للتواكل المسيطر

(1) نفس المرجع، ص 21.

على الذهنية العربية، في حين تعبر الصورة الأخيرة بملامح شخصها البارزة والمتجعدة، والحاملة الخريطة الجزائرية، وهي تتأفف من ثقل الحمل وسوء الوضع والحال والعاقبة بلغة عامية "يا جدك الحالة مزيتة"، وتشكل الخريطة إيقونا الماثول والموضوع فيه متطابقان.

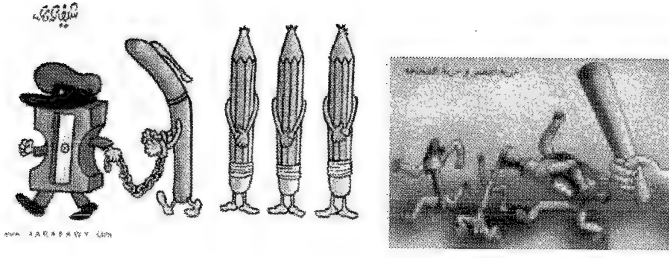
إن الجسد هنا أيقونة مستعارة تجعلنا كمحلل أمام شبكة من العلاقات المعقدة، فهي تشير إلى الطابع التناظري القائم بين الماثول والموضوع من خلال الإحالة على عناصر مشتركة بين الأول والثاني قد يتعلق الأمر بالخصائص وقد يتعلق بالبنية⁽¹⁾، والتشابه هنا لا يتعلق بعناصر محسوسة ومشتركة بينهما بل يتعلق بخصائص مجردة كالقهر والعنف والاذلال والكتب، أي أن بداية الفعل السيميائي التأويلي رهين بنهاية القياس؛ القياس^(*) هو تبيان التشابه في جوانب وخصائص وعلاقات معينة بين الأشياء المتشابهة⁽²⁾؛ ذلك أن القياس هو المبدأ القادر على التمييز بين العلامة البصرية والعلامة اللغوية، فالكلمات بعكس الصور غير قابلة بأي معنى أن تكون تمثيلية للأشياء في تعيينها. ومحل الخطاب الكاريكاتوري سيجد نفسه مضطرا لفعل القياس في سبيل أن يدرك العناصر والعلاقات المشتركة في الذهنية العربية والمثلة لأيقونية الجسدية وتحديد مداراتها.

ونشير في هذا المقام، إلى ظاهرة أخرى في الكاريكاتور العربي، ألا وهي تغييب الجسد واستعاضته بشيء أو مادة، كجسد قناع، ليكون ذلك أكثر تأثيرا وأقوى تعبيراً، نظراً لنسبة الإيجاء والتلميح البارزة فيه، وهو في اعتقادنا تجسيد لفكرة الإقصاء السائدة في المجتمعات العربية والتي تظهرها الصور:

(1) سعيد بنكراد: السيميائيات والتأويل، ص 117

(*) القياس (Analogie) هو هوية العلاقة التي تجمع عددا من المنفصلات، وهو مرادف للتناسب الرياضي proportion والتماثل Homologie في السيميائيات الأيقونية Iconicité. وترى مارتين جولي Martine joly أن مصطلحات مثل تشابه Ressemblance وتماثل similarité وقياس Analogie تستعمل باعتبارها مترادفات. كما أن القياس في سيميائيات معضلة معرفية توجب على السيميائي البصرية الانفلات من ارهاصاته الأولى، لأن الفعل السيميائي لا يقف عند المعطيات المباشرة بل يتعداها إلى خلق نماذج من خلالها.

(2) عبد المجيد العابد، القياس في السيميائيات البصرية، مجلة علامات، وزارة الثقافة، المغرب، العدد 29، 2008، ص 148.



إنّ الأشياء التي ترى وتدرّك بالعين، أي كل ما يشتغل كعلاقة أيقونية، لا ينظر إليها في حرفتها، وإنما يتم التعامل معها باعتبارها عنصرا متضمنا داخل هذا النسق أو ذاك عبر مقولات التنسيق المسبق^(*) «لأن العلامات الأيقونية تشتغل على الرغم من كونها محكومة ظاهريا على الأقل بمبدأ التشابه وفق سنن أيقوني يحدد نمط إنتاج وإعادة إنتاج عناصر التجربة الواقعية»⁽¹⁾، فالمشاهد لهذه الصور سيدرك الرمزية الجلية في الصورة الأولى التي تظهر السلطة في شكل مبرة، هذه الأخيرة التي تعمل بشكل دائم على التقليل من حجم القلم إذا قلم أو انعدم رصاصه لتخرجه من جديد، وعليه هي صورة ذات حدّين، من جهة، أنّ السلطة هي أكبر محرّض للكتابة بأفعالها والفساد الناجم عنها، ومن جهة ثانية، أنها أكبر عامل يصادر الرأي الحر، وتتعامل معه بغير لغة الحضارة/ لغة الحوار: بسجنه أو تهमيشه، أو إجباره على السكوت والبقاء هادئا، وهو ما يبرز؛ وفي هيئة أقلام الرصاص الثلاثة الأخيرة الخضراء، وفي اللون الأخضر دلالة على الخصوبة والهدوء والمسألة، وهي أقلام مصادرة مع القلم الأزرق لصرامته وقوته واندفاعه واستماتته في قول رأيه، كون العلاقة مع الآخرين كما يعبر عن ذلك ليفانس، يمكن البحث عنها كقصيدة غير قابلة للاختزال حتى ولو انتهت بنا الأمر إلى أن نرى فيها انقطاع لتلك القصيدة⁽²⁾، تطرح هذه الصور الكاريكاتورية عديد الإشكالات منها تغييب الجسد وتجميده وتعطيله في أدوات ليكون أكثر تعبيراً، وإظهار اليد

(*) إن إدراك الواقع عبر العلامة الأيقونية لا يتم انطلاقا مما تشتمل عليه هذه العلامة من عناصر قادرة على إحالتنا على تجربة واقعية، بل يتم عبر معرفة سابقة، إنها تمكننا من الإمساك ببينيتين في الآن نفسه؛ بنية إدراكية متولدة عما توفره العلامة الأيقونية كتمثيل ذهني عام، وبنية واقعية، وهي منطلق التمثيل وأصله.

(1) سعيد بنكراد: السيميائيات والتأويل، ص 118

(2) E Levinas, Ethique et infini, Fayard, Paris 1982, p 82.

التي تحمل عصا للضرب كأيقونة رمزية تدل على السلطة وغيرها، زيادة على منح السلطة هيئة مبراة الجسد، لتكون أقوى تعبيرا عن إخضاع الرأي للسلطة، وفي الصورة الأخرى إجباره بالقوة، لتصور المجتمع العربي مجتمع سلطوي لا متسع فيه لحرية الرأي والتعبير، ولا لتعددية الاتجاهات الفكرية، ولا لجو الحوار العقلاني الحضاري.

كما أن الجسم الإنساني يتم النظر إليه باعتباره حجما له أبعاده ومنظوريته الفضائية، إنه كيان مدرك وموضوع إدراك في نفسه⁽¹⁾؛ وهذا يعني أننا لا نتقل آليا من الدال الإيقوني إلى ما يوجد خارجه، فنحن دائما في حاجة إلى وسيط يجعل الرابط بين الطرفين قادرا على توليد دلالاته، أي قادرا على الانضواء تحت نسق يمنحه إمكانيات التدليل.

إن السؤال الشهير لبارث (Barthes) كيف يأتي المعنى إلى الصورة، حيث تطرح إشكالية إمكان أن ينتج تفاعل الصورة وعلاقتها بالمعنى المدرك، والمفكك شفرته على نحو ما، ذلك أن أي ملاحظة نسقية أكثر فعالية تسمح لنا بإدراك المعنى بصريا، كما حدث في مستوى التعامل في خطاب تغييب الجسد واستبداله بالآلة/ المادة؛ فلا يمكن الحديث عن إدراك، ضمن العلامات الأيقونية إلا انطلاقا من وجود معرفة سابقة تمكننا من تأويل هذا العنصر أوداك وفق انتمائه لهذه الدائرة الثقافية أو تلك.

ويدفعنا هذا إلى القول بأن التأويل الاستعاري ينبثق من التفاعل بين المؤول والنص، ولكن نتيجة هذا التأويل تفرضها طبيعة الخطاب وطبيعة الإطار العام للمعارف الموسوعية لثقافة ما، وفي جميع الحالات، فإن هذه النتيجة لا علاقة لها بقصدية المتكلم، فبإمكان المؤول أن ينظر إلى أي ملفوظ نظرة استعارية، شريطة أن تسعفه في ذلك الموسوعة⁽²⁾.

انطلاقا من هذا التناول للعلامة الطبيعية وللمرئي يأخذ الجسد موقعه ضمن الأشياء والموضوعات التي تشكل اللغة في تدخلها لصياغة العالم المحسوس⁽³⁾، فالإنسان من حيث هو

(1) فريد الزاهي: النص والجسد والتأويل، ص 41.

(2) اميرتو ايكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 2000م، ص 160.

(3) فريد الزاهي: النص والجسد والتأويل، ص 41.

جسد يتدمج في العالم صلبة صور وأشكال أخرى، من ثمة فإن ما يأخذ بعين الاعتبار من قبل السيميائي هو السياق البصري العام الذي تندرج فيه الهيئة الإنسانية، أي الصورة بوصفها تعيد إنتاج بعض خصائص الشيء الممثل، وأن الفعل السيميائي الذي يروم دراسة شكل دلالة الصورة يتنافى والتحديدات الأولية للقياس⁽¹⁾، والتي خضع لها الإيقون علامة دالة عن شيء ما؛ فالمعنى في الخطاب أنواع هو "معنى يملكه الخطاب اعتباره جزءاً من الفعّال في الأحداث الاجتماعية، ومعنى مصدره تمثيل العالم في الخطاب (التمثيلية)، ومعنى مصدره التشييد الخطابي لهويات الناس (المحددة للهوية)⁽²⁾، فالتسنيين القياسي "إنه يعبر عن وجود تماثل أو تشابه بين العلامة وما تمثله"⁽³⁾.

3- الجسد واللون المدركفي الكاريكاتور:

إن الإدراك البصري يسهم في البلورة المعرفية للدلالة⁽⁴⁾؛ وفي الصورة الكاريكاتورية تشكل الألوان COULEUR والنسيج TEXTURE والأشكال Formes أي كل ما هو اصطناعي يخضع لتوافقات ثقافية، أما الإيقوني فيحيل إلى المعادلات الموضوعية كالجسد والنظرة REGARD والوضعية POSE... الخ، أي كل ما تحيل به الطبيعة، ولا يتم التمييز بين التشكيلي والإيقوني إلا إجرائياً^(*)، لأننا أمام علامة بصرية تجمع بين ما يعود إلى الذخيرة والمجال REPERTOIRE- إيقوني- وبين ما يعول إلى الاستعمال- التشكيلي- المتعلق بالمعطيات الثقافية.

إن اللون يمكنه أن يكون متضمناً في علاقة إيقونية تشكيلية، وهو الأمر الذي تحقق في هذا الخطاب بشكل بَيّن، يبعث المتلقي إلى الاستفسار عن حقيقة اللون وخبايا استعماله

(1) عبد المجيد العابد، القياس في السيميائيات البصرية، ص 147.

(2) ينظر: فاركلوف، نفسه، ص 393.

(3) عبد المجيد العابد، القياس، ص 149.

(4) غريماس وفونشي، سيميائيات الأهواء، ص 330.

(*) تقترح جماعة مول GROUP لهذا التمييز مثل البقعة الزرقاء فعندما نكون أمامها نقول: إنها بصدد علامة تشكيلية، أما عندما نقول: إنها تمثيل للأزرق، فالأمر يتعلق بعلامة إيقونية.

في هذا الكاريكاتور دون غيره، ويدرك أمرا ما، لأن اتصال الإدراك باللون ينتج بداية تقطيعا عدديا وتأويلا معينا، فحين لا تتغير الحوافز التي تسجلها الألوان بعد علامة معينة، إلا أنها تتغير من شخص إلى آخر وفق قانون التماسك المنطقي الذي يسطره ذلك اللون، لأن اللون المدرك هو التكملة الذاتية لهذا اللون⁽¹⁾.

كما أن القياس البصري يخضع لتغيرات كمية وكيفية، فالتشابه يختلف من ثقافة إلى أخرى، ويختلف من فرد إلى آخر، فعندما تكون الأيقونة مدركة فإنه يلزم أن تظهر لدى المتلقي علامة معادلة (تمثل المعنى الممكن)، ذلك أن للعلامة الأيقونية وظيفة مزدوجة: دلالية من جهة، وتداولية من جهة أخرى، فتصرفا استنادا على دلالة الأيقون.

لن تفتح خواص أخرى حسية وذوقية ولمسية وشمية⁽²⁾ لتعامل صاحب الخطاب مع اللون؛ ف«الأسود والبني والأحمر ألوان تكون تناضد عدد كبير من طبقات العتمة التي تدفع للتفكير بتجسيد مادي معين للظلمات المحيطة»⁽³⁾، وبذا يتوسط اللون هذا التضاد بين اللونين، وهي ألوان سيطرت على إطار الصور وعناصرها الشيئية ولون الجسد الإنساني في معظم الخطابات قيد الدراسة في هذا البحث.

كما نجد اللون الأصفر قد كان له حظا فيها كذلك، إذ تدرك العين للوهلة الأولى شيئا إيقونيا أصفر، لا يتطابق مع أي نموذج إيقوني، إنه إيقوني ينتمي إلى المنوال المحفوظ في فهرست النماذج، وبالمقابل من حيث أن الأصفر لون الجبهات والواجهات، فهو متغير حر، ليس مدرجا في الفهرست.

ولأن الجسد الأنثوي يمتاز بلون الشعر الأشقر، ويرجح أن يكون هذا اللون الوحيد ذا القيمة الأيقونية في هذه الخطابات الكاريكاتورية، إننا نواجه في هذه الصور لونين يتيمان إلى فئتي البني المصفرّ والفيروزي، وهذان اللونان لا يتصلان أبدا في الواقع، بل تفصل بينهما

(1) جماعة مو، المرجع نفسه، ص 101

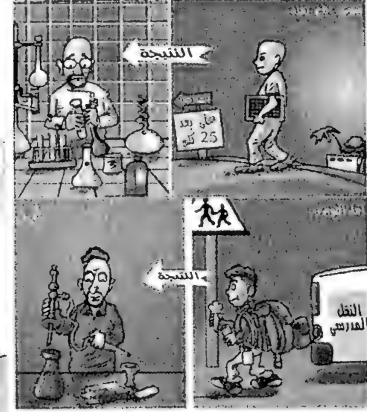
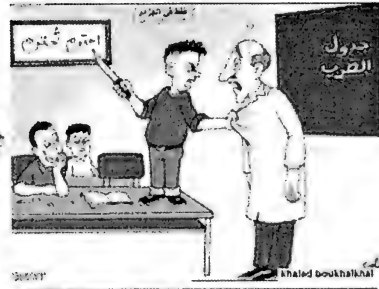
(2) جاك فونتني، سيمياء المرئي، ص 197.

(3) جاك فونتني، نفسه، ص 196

خطوط محيطية سميكّة من البنى الغامق⁽¹⁾؛ واللونان المختاران بحرية، خارج أي هم أيقوني متكاملان، ومجموعهما يشكل لونا رماديا، وهذا التكامل يقوي الغرض بالتأكيد. كما أن المزاوجة اللونية تربط السطح بالجوهر.

تختلف الألوان المستعملة في الصور الكاريكاتورية العربية باختلاف أنماطها ودرجات حضورها، ومراتب وضوحها، كما يراها الرسام في عالم الوجود الإنساني، كما تخضع الألوان للمعيار الأنثروبولوجي في التعبير عن المراد وتصوير العالم، لتعبر عن سوداوية الواقع بأسلوب ساخر تهكمي ملفت للانتباه، لواقع يعيشه الوطن العربي، وكأن لا بياض في هذا الواقع ولا وجود لحقائق إيجابية حققتها الذات العربية لتنتقل صورة مغايرة للآخر، الذي يرفض بدوره إخراجها من هذه الصورة النمطية الظلامية، إنها ألوان تعبر عن (لا. نسقية) وفوضى لهذا الواقع، وعن عدم استعمال الذات العربية للون كما ينبغي، وهو ما يتأكد في الرسومات التالية، التي استعملت اللون الأزرق - الأخضر - الأصفر - الأبيض - الأسود في غير الدلالة وغير الموضع، وحتى في لون الجسد المقدم:

(1) جماعة مو، نفسه، ص 489.



تلون الجسد بالأبيض والأحمر والوردي والبني دلالة على تعدد الأجناس في المجتمع الذي يجب أن يفهم على أنها أجناس تحيا باختلافها وتتجاوز لا تعيش في قطيعة وجهل وتجاهل كما يروج لذلك.

ونجد الاستعمال غير الممنهج للأشكال الهندسية التي تقرها جماعة مو؛ لأنّ الدائرة رمز العالم الروحي الأزرق للمشاعر/ والمربع هو العالم المادي الأحمر للجاذبية والكونية والضوء، أما المثلث هو العالم المنطقي والفكري (الأصفر)، وهي دلالات شبه غائبة في هذا النوع من الخطاب.

ويمكننا إذا أن نعيد وضع هذا التضاد القصدي أو غير القصدي في مكانه المناسب على صعيد التلاعب والاحتيا، أو الكذب/ والإغراء:

- 1- الخط المستقيم يحمل معاني الصرامة والقوة والحدة
 - 2- الخط المتوج يدل على الأنوثة والاضطراب
 - 3- الخط المائل فيتعلق بالدلال والغنج
- لذلك ارتبط كل من 2 و3 بالمرأة في الصور الأولى وغابت في هذه.

يمكن أن نلاحظ في النسق البنيوي النسيج العنكبوتي الذي تشكل من خلاله الكاريكاتور من حيث توزيع مكوناته، التي تبث عديد التساؤلات حول كيفية نقل الفكرة، ومدي استيعابها من قبل المشاهد (المتلقي) استنادا إلى نوع التناغم الوهمي الحاصل بين اللون والشكل واللغة، حتى الهيئة تحتوي في أحضانها على سياسية، وعلى اعتراف عملي وفوري بالتصنيفات الاجتماعية والترتيبات بين الجنسين والأجيال والطبقات، وهي أمور تظهرها الصور؛ التي تقدم واقع التعليم في الجزائر، حيث النجاح بالوراثة والواسط، والتي تقدم التلميذ هو السيد الضارب اللا. مبالي والأستاذ هو المضروب، وتظهر خريج الجامعة يساوي خريج سجون في ممارسة العنف والضرب، وهي ظواهر نسبية معدودة في المجتمع العربي، يمكن محاربتها لا التشهير بها، ومن ثمة الإساءة للهوية العربية الاجتماعية.

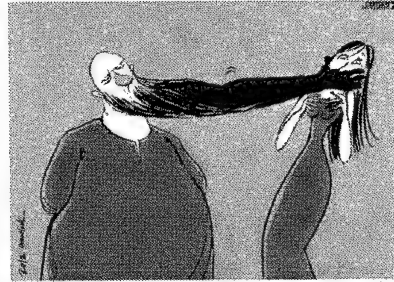
4- التناص الجسدي في الكاريكاتور:

النص نسيج من المرجعيات المتداخلة فيما بينها دون ضابط ولا رقيب، ولا يحد من جبروتها أي سلطان، فهذه المتاهة (التأويل) تدرج التأويل ضمن كل المسيرات الدلالية الممكنة، وضمن كل السياقات التي يتيحها الكون الإنساني باعتباره يشكل كلا متصلا لا

تحتويه الفواصل والحدود⁽¹⁾، ما تعتمد إلى تجليته الحوارية، والتي هي العلاقات بين صوت المؤلف وأصوات أخرى ومدى تمثيل هذه الأصوات في النص والرد عليها أو مدى إقصائها وإخفائها⁽²⁾.

إن علاقات التناص في هذا الخطاب هي جزء أساس منه "كضرب إعلان أن يقال قد سمع أو عرف في مكان آخر وزمن آخر، إنَّ التناص هو حضور عناصر فعلية من نصوص أخرى داخل نص"⁽³⁾، وبالعلاقات متفاوتة ومختلفة، عمل الجسد على تقريبها، لأنه ليس معزولا عن الآخر، كما أن كل وجوده متجه إليه؛ فعلاقته بالآخر علاقة وجودية، لذا لا بد من الانتقال حتما من الجسد في ذاته إلى الجسد من أجل الآخر⁽⁴⁾؛ وتشترك استعمالات الجسد واللغة والرمز في كونها موضوعات متميزة للمراقبة الاجتماعية.

والذي ينعم النظر في الخطابات التالية يجدها متناصة تناسبا اجتراريا تألفيا، وهذا راجع إلى سيطرة قضية محددة ونص عملاق واحد على الذهنية العربية يتجلى في هذه الرسومات الكاريكاتورية المتباعدة زمنيا ومكانيا، ترسم جسدا فوضويا واحدا، وكأن من صممها شخص واحد:

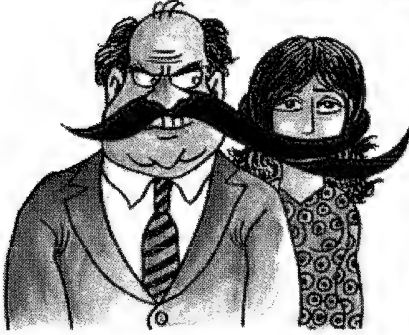


(1) امبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ص 12.

(2) المرجع نفسه، ص 394.

(3) فار كلوف، نفسه، ص 90.

(4) فريد الزاهي: النص والجسد والتأويل، ص 27.



الشريط الذي يغطي فم المرأة يحيل إلى فكر التعصب المسيطر في الثقافة العربية، وتسريحة شعر المرأة المختلفة تحيل إلى اضطرابها وابتعادها أشواطاً عن نقطة المركز، إضافة إلى أن وضعياتها متناظرة بالقياس إلى المحور العمودي، وغياب بروز الفم في الجسد دلالة على غياب سبل التعبير الحر، ولكن المرأة تعبر وتعمل وتتكلم في مجتمعها كجسد مختلف وكذات فاعلة.

قد تكون ضروب الإعلان مثبتة أو غير مثبتة، وقد تجاوزت الرسومات (1، 2، 3، 4، 5، 6) بشكل نسقي فكري على الرغم من اختلاف الفاعلين في التعبير عن موضوع واحد، لتأخذ الظواهر والأحداث والتصرفات معانيها من خلال وضعها في علاقة مع الأطر^(*) المكونة للموقف بالنسبة للفاعل إذ المعنى ليس معنى لصيق بعنصر في العالم أو تصرف تعبير (كلمة، سلوك/ حركة، لون) وإنما ينبثق من التفاعل بين السلوك التعبيري

(*) أطر الموقف هي الأجزاء المكونة له، كما تعني التقطيع الكيفي له، وهي سبعة أطر وفق مقترح مكيلي: إطار النوايا والرهانات، وإطار المعايير والقواعد، وإطار التروضات - وإطار نوعية العلاقات - والإطار التاريخي والزمني - والإطار المكاني - والإطار الحسي، فهي الأطر التي تغطي كل الخلفيات المرجعية للموقف الواحد.

وأطر الموقف الذي يحدث فيه^(١)؛ هل والكاريكاتير يعبر عن ذات الفكرة بذات الأسلوب من إطار مكاني مختلف أنه معبر حقيقي عن ذات الهوية وأن الهوية واحدة؟ إذن لما هذا الاختلاف بين ذواتنا ولما المرأة في العصر الحالي ذاتا فاعلة جوهرية في مجتمعها لا تابعة ولا جارية؟.

يتكون الإطار المرجعي للكاريكاتور من عدة أطر تمثل خلفيته المعرفية والمرجعية من قبل كل فاعل: المقصد الرهان - الثقافية، التموضع - نوعية العلاقة، الاطار المكاني، والزمني، والحواسي، والتاريخي، والسياسي، والشعبي؛ ويتكون كل إطار من عناصر خاصة بفاعل فقط، لأن الموقف ليس إلا "موقف لفاعل"، وكل إطار يتألف من مجموعة من المعايير والقواعد والقيم؛ الأمر الذي يخلق له عدة معان وتفسيرات نظرا لتداخل أطر الظاهرة الكاريكاتورية (جسد، لون، هيئة، موضوع، قيمة)، واللا. تمفصل فيها، وتشابكها بعضها إلى البعض الآخر إزاء نسق نوعية العلاقات التي تربط الفاعلين، كما يرتبط رهانات الفاعلين بالمعايير والقيم التقليدية الشعبية المساعدة على خلق نسق الفحولة المقابل لنسق الأنوثة. إنها سوف تفسر لنا أيضا وتمكننا من افتراض وجود بعد سيميائي مستقل بذاته يكون على الأقل من خلال الفواصل الاختلافية التي يقيمها بين الثقافات والأجناس والمجموعات الاجتماعية، قابلا لمنح الأساس الدلالي للثقافات والمجموعات الإنسانية في تحاور نصي مبلغ ومثير، يبرزه الخطابان التاليان:



(١) اليكس مكيلي، نفسه، ص 176.

الأول: يظهر الرجل العربي فيه مرددا لنصوص موروثية متوارثة والتي لا ترى في المرأة إلا الأمور السلبية^(٨)، وهي الصورة التي يتعامل وفقها معظم الرجال في البلاد العربية، والتي يراها عوامل مساعدة تحول له السيطرة الكلية والفعلية على المرأة: (مرة - ناقصة - عوجا - سوسية - صوت حية - حريم - هم - موتك من المكرمات - بلية - وغيرها) من الصفات التي نعتت بها المرأة في الثقافة اليونانية سابقا، والثقافة الاسلامية العربية، وبقيت مسيطرة على الذهنية العربية الاسلامية، والتي حاول صاحب الخطاب إظهارها بفعل إشهار المسدس على المرأة، التي حققت فعلا مفارقا بنظرتها ووقفها في وجه الشخص المقابل. وقد استحضر صاحب الكاريكاتور أمثالا شعبية كتناص داخلي اجتراري بتقنية تألفية لا ترى في المرأة إلا عورة: (صوت حية ولا صوت بنية" وإن ماتت أختك انست عرضك" والبنية بلية "وماتت بنته من صفاوة نية" وألبت الحلوة مصيبة" و"شاوورهم وخالفوهم" و"ولو طلعت على المريخ أخرتها للطبخ"، إنه نص لغوي مطول ومصاحب للصورة يقوي ويدعم الهيئة الجسدية المقدمة.

والثاني: يكاد يكون نفس المضمون الخطابى حاول صاحب الخطاب تمثيل مضمونه بطريقة مميزة، ولكنها متوارثة، إذ جعل المرأة كالمومياء محنطة في خلفية سوداء سواد الحال، ومحاصرة بذات الكلمات التي تحط من قدر المرأة: الخزي - الغريزة - العار - حبائل الشيطان - ناقصة عقل - الفضيحة - عورة - أكثر أهل جهنم - تسجد لزوجها؛ والمفارق في هذا الخطاب هو لباس المرأة المعاصر، وقول صاحبه انّ هذه هي مكانة المرأة في الاسلام، إذن يتطلب من هذا الخطاب المشحون بالدلالات أكثر من قراءة وأكثر من تأول، ففي المزاوجة بين اللغة والرسم في رحاب هذا النوع من الخطاب تتزاحم الدلالات وتتوارد الأفكار، لنقول إن كل لسان تصنيف وأن كل تصنيف ينطوي على نوع من القهر، (orda) تعني في الوقت ذاته التوزيع والإرغام^(٩).

(٨) اقترنت المرأة في بعض الأساطير القديمة، كونها إنسان ناقص بالظلمة، في حين ارتبط الرجل بالنور: الرجل: المولى/الكامل/ النور- الذات/ الفوقية/ الأنا. أما المرأة العبد/ الناقص/ الظلمة- الجوهرى/ الدونية/ الآخر.

(٩) بيار بورديو وآخرون، اللغة (الراسمال اللغوي والجسد)، ص 104.

وقد بات كل شيء علامة تحيل إلى علامة في عالمنا المعاصر، نقول أنه داخل النشاط الإنساني المبرمج المنتج لخطابات إشارية يمكن التمييز بين إشارية عملية لا غير، وإشارية أسطورية تنبني الأولى منها على الرغبة فيما يتبدى في الثانية عمقها الثقافي الإيحائي، فالإشارية الأسطورية ليست مجرد إيجاء للنشاطات العملية، ولا ينبغي خلطها مع الإشارية التواصلية ولا مع العمليات المحاكاتية التي تظهر في كل مكان، لكن هذا لا يعني أنها تشكل مستوى سيميائيا مستقلا بذاته؛ مع أن الإشارية التي يتعلمها الإنسان ويعلمها للآخرين محدودة من الناحية العضوية، إنها نسق سيميائيوظاهرة اجتماعية تصنيفية للإشارات ذات البعد الاجتماعي، تمكنا من الوقوف على التنوع بين الثقافات⁽¹⁾.

خاصة وأن العالم المرئي -بذلك- هو عالم مقروء يمكن أننفك رموزه ونستقصي معانيه؛ ذلك لأن البحث عن المعنى (أو التأويل) في التعبيرات الإنسانية الاجتماعية (الكلام - السلوك - المظهر - الانفعالات - المشاعر - شبه اللغة... الخ) مصدره الأساس هو الاتصال البين -ثقافي⁽²⁾، كونها تراعي السياق اللغوي المعياري والموقف الثقافي الاجتماعي في التحليل.

لنتساءل بعد هذا التطور السيميائي: هل ونحن نمارس فعل الإقصاء بعضنا على بعض يمكن أن نبني مجتمع الحوار والثقاف؟ هل ونحن نسوق بالجسد غير ما هو سائد أو موجود بشكل محدود يمكن لمجتمعنا أن يتغير، وبالتالي تتغير نظرة الآخر للذات العربية الإنسانية التي تحيا اليوم سياقات الحوار وفهم الاختلاف وحرية معتبرة للمرأة؟ هل والكاريكاتير المعاصر يمارس بفوضوية واللا. منهجية أبجديات الاشتغال التي تجعل رسائله بمعاني غير المعاني المقصودة، نقول أنه خطاب يعبر عن الواقع، ويعرض قضايا جوهرية، ربما تكاد تغيب عن مجتمعنا والمحرك الأساس فيها التسويق الإعلامي التجاري؟

(1) فريد الزاهي: النص والجسد والتأويل، ص 41.

(2) ينظر: أ.د. ألكس مكيلي، الوجيز في السيميائية ترجمة: وحيدة سعدي، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، 2008، ص 175.

قد يدرك محلل خطاب الكاريكاتور تعلق أصحابه بتراث ثقافي شعبي، أيديولوجي، منه يستمدون بعض العناصر للتواصل، وتبليغ الرسالة المراد توصيلها، خاصة في السنن اللغوي؛ ذلك أن اللغة تقوم وظيفيا على خلق التفاهم وتحديد المعارف الثقافية بين الأفراد والاندماج الاجتماعي بينهم وتحقيق التضامن والتكافل، كما تعمل على خلق الهويات الفردية وتوضيح التوتر بين الأفراد داخل مجتمع معين وفق ما تتطلبه حدة التعبير أو النظرة أو الهيئة، فقد عملت هذه التعالقات النصية في الخطاب على خلق عالم رمزي يتحدى المكان والزمان، ويحدد من خلاله الفرد موقعا وموقفا.

الكاريكاتور لما يتمتع به من إيماءات فنية ومتنوعة نفسيا وعقليا، يقدم نفسه بأساليب مرغوبة وسهلة الفهم والمغزى وذات تأثير فوري ومباشر، لا يقف عند حدود الجسد واللون والظل والنور والشكل والوضعية، بل هو استنطاق للمكنون وغوص في الذاكرة البشرية وأخلاقياتها، بكامل تمفصلاتها وتشعباتها، يمثل تعبيرا عن نمط التفكير والوجود الإنساني في جميع تظاهراته وأشكال بنيته وأفعاله؛ غنه فن ممتع وإيماء مقنع، يعطيك ويسلبك، يرضيك ويغضبك، يقيدك ويطلقك بخيالات الواقع وآمال المستقبل.

خطاب الكاريكاتور هو نداء للمعني؛ ذلك أن الصورة الكاريكاتورية تمثيل وتشخيص لشيء ما، تحكي بخطوطها وانحناءاتها، وبظلالها وعمتها، وألوانها ومفارقاتها وتدرجاتها اللامتناهية عن قضية ما، تعتمد على قدرتها في التعبير بوساطة تقاسيم الجسد العميقة والإنارة المعبرة، والحوار الإيحائي العميق بين طرفين أو أكثر وفي منتهى السخرية والتهكم داخل عالم مفارقاتي عجائبي سيولد في ذات القارئ مشاعر الإبلاغ والإقناع والإثارة والسؤال، ليعرف أنه أمام خطاب غايته الحجب لا الكشف، لأن الصور المنتقاة في هذه الدراسة نشرت ما بين (2009-2013)، وهي تقدم أمورا تكاد تتلاشى في مجتمعا.

إنها تحكي بلغتها لغة الضوء والظل، الخط، الجسد، ويتلقاها الآخر وفق آليات هذا المنطق، وهو بذلك يمكن اعتبارها خطابا يروج للهوية الجماعية بلا منازع، وأما هذه المهمة الخطيرة يجب أن يعاد النظر في تشكله والتعامل معه؛ فإذا كان الكاريكاتور خطابا مشحونا

بالرغبة في الفعل وفي تغيير الكون، وجب أن نبحث له عن الأبعاد التأويلية التي يمكن أن يمتد إليها ليصبح نظام علامة مرتبطا بنسق ثقافي، وقادرا على تغيير الكون.

نخلص إلى أن الكاريكاتور قد ارتقى من وظيفة التصوير والتعبير إلى وظيفة الترويج والإشهار، لقد بات الكثير منها ينظر إليه خطابا سياحيا يحبفي المنطقة التي حاول الكاريكاتور تصويرها وينفّر، ومن هذا المنطلق يجب على من يتعامل مع هذا النوع من الخطاب، وكل شيء علامة تحيل إلى علامة أخرى تفتح على أفق الاستقبال والتأويل، بحذر شديد وواع، وأن يدرك خطورته، لأنه لا يصور حالة مفردة بقدر ما يصور الهوية الجماعية الاجتماعية.

الكاريكاتور خطاب تفاعل فيه الإيقوني مع التشكيلي مع اللغوي لرسم أنساق خاصة تحمل سيرورة تأويلية، والكاريكاتور واحد من هذه الخطابات، الذي نهدف بهذه المداخلة إلى التنقيب في مكونات الجسد الحسية (لغته - سلوكه - لون بشرته - هيئته...) - في بعض الصور الكاريكاتورية - وربطها بالمكونات النفسية والفلسفية والفكرية والعقلية والأخلاقية (الحكم على العالم) والمنطقية والاجتماعية والثقافية المعرفية، وحتى المعمارية لنقف عند خصوصية مثل هذا النوع من الخطاب، إلى حدّ إمكانية اعتباره خطابا سياحيا، سيساعد على رسم أنا الهوية الاجتماعية في ذهن الآخر المتلقي، هذا الأخير، الذي سيخضع بطريقة أو بأخرى إلى هذا الرسم المسبق، الذي أظهر الذوات العربية الممارسة لفعل التغييب والاقصاء: الرجل يقصي المرأة والعكس، السلطة تقصي المثقف والعكس، الطفل يقصي الوالد في فكره والعكس وغيرها من الصور التي ستجعل الآخر الغربي يرى الذات العربية ذاتا لا تقبل الفكر الديمقراطي، ذاتا فوضوية عنيفة غير ممنهجة وغير منظمة ولا منتظمة قابلة للتبعية بمنتهى السهولة، وهي في قطيعة مستمرة وتجاهل دائم لذاتها وللذات التي تحيا معها، هل ونحن كذلك نطالب الآخر بالنظر إلينا نظرة مختلفة، خاصة وأنّ جسدنا - لغتنا - زينا - حركاتنا - أفعالنا... الخ كلها علامات تعمل بدلالاتها وتأويلاتها أن تكون جواز سفرنا لهذا الآخر؟؟ فيجب أن نحذر، إننا في عالم القصد والمقاصد.

وعلى الذات العربية أن تسعى جاهدة راضية لتغير ما بنفسها، وعدم السير بنمطية مطلقة خاصة في تصوير المرأة التي سارت بأشواط محترمة إلى ما ينبغي من حرية، كما عليها أن تبتعد عن ممارسة فعل الإقصاء المادي والمعنوي من أي طرف كان في المجتمع وعلى أي طرف كان إذا أردنا أن نمارس الفعل الديمقراطي كما ينبغي، وبمتهى الحرفية والأخلاقيات الإسلامية الإنسانية في احترام الآخر والذات معا.

ف«لا يمكن للعين أن تتجرد من إلفتها للأشكال كما لا تتجرد الحواس الإدراكية الأخرى من إلفتها للأذواق والأصوات والأنغام والروائح، هذه الألفة تحكم في أحيان كثيرة إدراكنا لأي شكل جديد»⁽¹⁾، وعلى ضوءها تأتي تجربة إدراكية حسية مخزنة في الذاكرة كتفسير جديد للعلامة المستعملة.

ثانيا: الهوية.. وفخ الصورة

قبل البدء:

عندما تعصف زلازل الفخ بقلاع الهوية، عندما تنفجر المعاني غضبا وقهرا، فتطير الحقيقة كالشظايا. عندما يطلب العقل الأجوبة فترتد الأسئلة إلى بداياتها وعندما... يجب على المثقف دق طبول الخطر والفرع، لتتزوج الفكرة والعبرة، والرغبة والرغبة، والحلم والعمل، والحقيقة والمعرفة؛ إذ بات معروفاً أن المعرفة التي هي خلاصة الممارسات العقلية للإنسان تشكل ضمن أطر ثقافية وحضارية محددة، وتدخل في علاقة حوار ومثاقفة مع أطر ثقافية وحضارية أخرى⁽²⁾.

لتحاول بذلك هذه الدراسة بحث حيثيات تحول الصورة إلى فخ يقع فيه فعل الترويج للهوية، لتصبح الهوية هويات، بل في الصورة الهوية ونقيضها.

(1) محمد الماكري، الشكل والخطاب، ص 273.

(2) عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة (تداخل الأنساق والمفاهيم ورهانات العولمة)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1999، ص 95.

أولا. مفاهيم أساسية:

1- في مفهوم الهوية:

الهوية (IDENTITY) "عملية تمييز الفرد لنفسه وتحديد حالته الشخصية"⁽¹⁾. وتساعد هذه العملية بما يميزها من سمات (اسم، جنسية، سن، حالة، مهنة... الخ) الفرد في تسهيل معاملاته المختلفة مع الجهات التي تطالب بإثبات شخصيته.. ومبدأ الهوية المقصود به أن الموجود هو ذاته أو هو ما هو⁽²⁾، فلا نخلط بين الأمور أو بين الشيء وما عداه وأن لا نضيف للشيء ما ليس له.

ولكن، مصطلح الهوية لا يكفي بكل ما هو ذاتي فحسب، وإنما يتجاوز حدوده إلى صفات تخص الجماعة؛ لأنه منظومة متماسكة من السمات المشتركة بين أعضاء الجماعة تميزها وتجعلها تعتر بذاتها⁽³⁾؛ فهي بذلك: "مجموعة الصفات أو السمات الثقافية العامة التي تمثل الحد الأدنى المشترك بين جميع الذين ينتمون إليها، والتي تجعلهم يعرفون ويتميزون عن سواهم من الأمم"⁽⁴⁾، كونها تتضمن عددا كبيرا من السمات المعنوية والمادية المرتبطة في نظام واحد، وبقاء هذه الصفات أو زوالها، وإعطاء هذه الصفات أحكام قيمة موضوعية لصراع حضاري ولظواهر اجتماعية وثقافية ونفسية⁽⁵⁾.

ليمكننا القول أخيرا أن الهوية وحدة جماعة بشرية ما - كائنة ما كانت تناقضاتها أي تعددها - كما تتجلى في الخصوصيات، أي التجانس المتميز كما تصنعه الجغرافيا والتاريخ وكما تعبر عنه التطلعات الأصلية والأساسية لدى الإنسان⁽⁶⁾.

(1) جمال شحيد ووليد قصاب، خطاب الخدائنة في الأدب- الأصول والمرجعية، دار الفكر، سوريا، ط 1، 2005، ص 429

(2) جمال شحيد ووليد قصاب، خطاب الخدائنة، ص 429.

(3) محمد محمود شاويش، نحو ثقافة تأسيسية (البيان التأصيلي)، الدار العربية للعلوم، بيروت، ، نينوي للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا، ط 1، 2007، ص 32.

(4) محمد حسن البرغثي، الثقافة العربية والعولمة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 2007، ص 115.

(5) محمد شاويش، نفسه، ص 35.

(6) الميلودي شغموم، التخيل الهوية (الكرامات أنموذجا)، مجلة بصمات، جامعة الحسن الثاني الحمديّة، دار البيضاء، ع 4، 1990، ص 25.

إذن تحديد مفهوم للهوية أمر صعب ومعقد صرح به الباحث في اللسانيات الاجتماعية نورمان فار كلوف (N.Faire clough): تحديد الهوية أمر معقد، أحد تعقيداته هي أنه لا بد من التمييز بين الجوانب الشخصية والجوانب الاجتماعية للهوية: الهوية الشخصية والهوية الاجتماعية⁽¹⁾.

من حيث إنها الانعكاس المنسجم المتجانس لقيم الجماعة: آرائها- مواقفها- سلوكياتها- توجهاتها الفكرية- والنفسية- فلسفتها في الحياة وكل ما يتصل بالوعي الجماعي، لنكون بذلك أمام:

- 1- هوية اجتماعية، يسعى الفرد من خلالها إلى تعزيز الانتماء بمجمعه.
- 2- هوية وطنية: يعزز الفرد بها روابط الولاء للنظام والتراب.
- 3- هوية ثقافية: يعزز بها قوة الانتماء إلى ثقافة ما مكتسبة.

إنّ الحفاظ على الهوية الثقافية متصل بتوفير الشروط الفكرية العلمية الاقتصادية وحتى السياسية اللازمة.

الهوية ليست حالة من التملك، أو هبة تعطى، ولكنها صناعة وبناء يتشكل ويتطور كلما دعت الضرورة إلى ذلك، فهي المنجز البشري الذي يكتسب قوته وفاعليته من خلال نوعية الجهد الإنساني⁽²⁾، في ضبط الخصائص الحضارية التي ابتدعتها المجموعة البشرية من: لغة ودين وقيم ومهارات وفلسفة، لذلك اعتبر مفهوم الهوية موضوع جدل في أدبيات الفكر والثقافة.

ويتفاعل مصطلح الهوية مع مصطلح العولمة في علاقات جدل وتجادب؛ فالعولمة تطارد الهوية وتلاحقها وتحاصرهما وتجهز عليهما، وفي دائرة هذه المطاردة تعاند الهوية أسباب الذوبان متشبثة بحق الوجود والديمومة.

(1) نورمان فاركلوف، تحليل الخطاب (التحليل النصي للخطاب الاجتماعي)، ترجمة طلال وهبة، مراجعة نجوى نصر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط 1، ديسمبر 2009، ص 297.

(2) ينظر: محمد البرغثي، نفسه، ص 116.

ذلك أن أكثر الاختراقات الغربية خطورة على الإطلاق هي محاولة طمس الهوية الثقافية للعرب والمسلمين وتحطيم منظومتهم الحضارية ومحو ذاكرتهم الجماعية... يلجأ الغرب في ذلك إلى تفكيك البنى الثقافية وتشويه القيم الدينية للعرب والمسلمين والنفاذ إلى معاييرهم الأخلاقية وخصوصياتهم المحلية وفلسفاتهم الحياتية بالوهم والتشويه⁽¹⁾ والسخرية والاستهزاء، والعجب أن من يساهم في ذلك عنصرا مساعدا ثلة من المجموعة محسوباً عليها. وإزاء كل هذا يمكن تحديد ثلاث هويات متمركزة في الذات:

- 1- الهوية الموروثة: ذات جذور اجتماعية فكرية دينية محددة (كينونة).
- 2- الهوية المكتسبة: اكتساب مهارات تحفظ بها مبدأ الاستمرارية (التفاعل).
- 3- الهوية المرجوة والموعودة: جملة التفاعلات لمظاهر الكينونة في الهوية، وهي غير مكتملة (حركة توليد الفوارق في الهوية). إن الهوية بذلك حالة وجودية ومعطى حضاري للفرد في الجماعة.

من أسباب زعزعة الهوية في أنفسنا امتلاك الفرد للثقافة السطحية والتبعية وأحيانا التقليد الأعمى للآخر حتى في جلد ذاته وهويته، زيادة على نمطية التعامل وخضوعه لمبدأ الازدواجية والعولة.

وعليه، يجب أن لا نبحث عن فكر وتراث وهوية بديلة فذلك يؤدي إلى التباين، بل يجب بحث كيفية تطوير هويتنا، كونها حركة ونشاطا فعالان؛ تقوي مكان القوة في معالم الهوية التي تميز الحضور الإنساني في هذا الوجود الكوني بكل خصوصياته الحضارية والثقافية والفكرية وغيرها.

(1) رشدي أحمد طعيمة/ محمود كامل الناقه، اللغة العربية والتفاهم العالمي-المبادئ والآليات، دار المسيرة، الأردن، ط 1، 2009، ص 59.

2- في مفهوم الصورة:

الصورة رسالة إعلامية فكرية تمر على شبكة العلاقات الاجتماعية لتصل إلى ذهن الفرد وعواطفه وبنيته النفسية، في سبيل أن يكون مدركا مقتنعا بنمط العلاقات الاجتماعية، وواعيا بالمدخل والمخارج لهذه العلاقات، فاستجابة الناس لها مرتبطة بإدراكهم لنمط علاقاتهم الاجتماعية؛ لما لها من أهمية، كونها أبلغ لغة تعبيرية عن موضوعها لما لها من قوة تأثير، وقدرة على فرض نفسها على الجميع؛ بل إنها محاولة لدفع المرء على الإحساس بأمر أو الاعتقاد بفكرة أو تغيير سلوك يجب أن تعتمد ابتداء على توفير المعلومات الكافية حول ذلك.

ورائي الصورة الجزائرية لا يستطيع الانفلات من استحضر حقيقة وجود الفاعل والمؤثر والطاغي، فالفاعل جزائري، والمؤثر في الفاعل جزائري، والطاغي جزائري، يلوح بأيادي متنوعة عديدة للهوية الجزائرية، والتساؤل هل الصورة تقول كل شيء عن الهوية؟؟ أم أنها تقول ما لا تعرفه الهوية؟

هل الصورة تبوح بكل حقائق الهوية؟ أم أنها في كثير من الأحيان هي العامل الذي يصنع الهوية المضادة؟ ليتولد في ذهننا تساؤل جديد: ونحن نشاهد الصورة ترى عماذا نبحت: هل نبحت عن ذواتنا الضائعة أم أننا نبحت عن الهوية الحلم؟ ما الذي نحاول فهمه فيها الهوية المشوهة أم نبحت لنجمل ونصنع هوية الفردوس المفقود؟

كون الصورة رسالة تفاعلية تقر بأمور لا توجد في الهوية الحقيقية، بعد أن حوت معاني القول والدلالة الثبوتية، التي تؤهلها للدخول إلى معبد الهوية؛ لتبتعد الصورة -بذلك- عن الهوية الجزائرية على يد فئة نخبوية متممة إلى اللسان الفرنسي، لأنها مثقفة ثقافة غربية منبهة بهذه الثقافة وبمدنيتها، وفي هذا تنكر لمعالم الهوية وإدخال للذات في صراع داخلي بين إضعاف للانتماء وتقوية الصلة بالآخر، بين إلغاء للهوية الأصل والترويج للهوية المصطنعة.

ذلك أن الصورة بما تملك من سحر وجاذبية تنطق بكل شيء، الأمر وضده، الهوية واللا.هوية، الحقيقية اللا.حقيقة، أي المعنى واللا.معنى.

ثالثاً: الصورة ومبدأ الترويج للهوية:

1- الهوية والصورة الكاريكاتورية:

على مستوى هذا النوع من الصور يتزاوج النسق اللساني مع النسق الإيقوني ليصنعا لنا الهوية المتخيلة والمتحققة في ذات الوقت.

فما هي الفائدة التي يمكن أن يجنيها الفكر من متخيل الصورة ليساهم في إعادة بناء الهوية على أسس أمتن؟

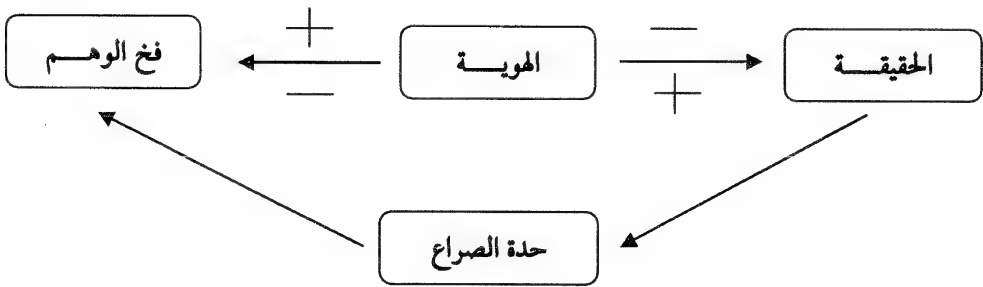


فالجزائري من خلال الصور أعلاه شخص سلبي يرفض مواجهة الذات، مصاب بداء القلق والاندفاع، لا يحترم المشاعر غير عاطفي، وهي صور قليلة في هذا المجتمع الثوري الأبوي، لأن الجزائري شخص يحترم ذاته، وعروبته ومشاعر إخوته، له قوة نخوة بكل ما يحيط به، أما القلق فهو شعور طبيعي يعتمد الجزائري خاص والعربي عامة إلى إظهاره للإنقاص من حدة توتره، أو لاسكات الطرف الآخر المحاور له؛ فهو الاندفاع يعتبر طريقة في الفعل،

ويشمل على «فائض جيهي» (يجمع بين إرادة الفعل والقدرة على الفعل (يمكن من توقع الإرادة والقدرة والمرور إلى الفعل)، وفي هذه الحالة تكون الذات منفصلة عن موضوعها (جهة: معرفة عدم الكينونة)، ومتشككة من النجاح في مهمتها (القدرة على عدم الكينونة) ومصرة، في الآن نفسه، على إدراك مبتغاها (إرادة الكينونة). وعلى الرغم من غياب إرادة الفعل بسبب المعوقات فإن العنيد لا يتخلى عن برنامجه (مشروع الفعل المحتمل).

وعليه، فالأنا كوعي بالذات الجماعية يقتضي عمومية الاسم على خلاف «الأنا» الفردية التي تتطلب تميزه واختلافه؛ ذلك أن «الأنا» الكبرى المشتركة هي أنا الشعور بالانتماء إلى مجتمع له مميزاته، وهو ما يعبر عنه بمفهوم الهوية⁽¹⁾؛ والأنا بوصفها وعيا بالذات الجماعية هو وعي بالآخر، ذلك أن الانتماء إلى جماعة محددة هو وعي بالاختلاف.

إن الأمر يتعلق إذن بفائض جيهي هو الضامن لمواصلة الإنجاز. وحضور هذا الفائض هو ما يفرض علينا صياغة هوية من خلال حدود تنظيم جيهي للكينونة لا من خلال حدود «أهلية في أفق الفعل من خلال هذا المثال تتضح بعض المفارقات: تخرج «إرادة الفعل» عن «عدم القدرة على الفعل»، وتزداد قوة داخل تنظيم جيهي للكينونة. وهو ما يقتضي الافتراض بوجود تركيبين يهم أحدهما التركيب الجيهي للفعل، ويخص ثانيهما التركيب الجيهي. وفي حال هوى «العناد» تكون «أهلية الفعل» مجرد صورة افتراضية «لأن العنيد يريد أن يكون، داخل ما سميناه التصاور الهوي للعناد، «ذاك الذي يفعل»، وهو ما لا يعادل «يريد أن يفعل»⁽²⁾. إننا إذن أمام التفاعل الآتي:



(1) إبراهيم سعدي، صورة الأنا والآخر في المجتمع الجزائري، مجلة السين، العدد 15، 2000، ص 106.

(2) غريماس وفونتاني، نفسه، ص 116.

«يتموقع الناس لا إراديا كفاعلين أوليين بحسب الحال الذي يولدون عليه، ولا خيار لهم في ذلك ابتداء... قليلون في المجتمعات المعاصرة يبقون ضمن حدود هذه المواقع، لكن قدرتهم على تغييرها مرتبط بقدرتهم على التفاعل والتحول إلى فاعلين متعاونين قادرين على الفعل الجماعي وبلورة التغيير الاجتماعي»⁽¹⁾.

إذ يتطلب تحقيق الهوية الاجتماعية القدرة على تولي الأدوار الاجتماعية، من حيث تشخيصها، أي توظيفها في شخصية المرء الخاصة (الهوية الشخصية) وتنفيذها بطريقة مميزة. يصبح المرء شخصية عندما يستطيع صياغة اهتماماته الأولية وتحديد أهدافه النهائية، ويتمكن من إقامة توازن بين أدواره الاجتماعية وترتيبها وفق الأولوية بالاستناد إلى تلك الاهتمامات والأهداف، وهذه السيرة في حد ذاتها مقيدة اجتماعيا، أي أنّ الهوية الاجتماعية تقيّد الهوية الشخصية، وهذا جزء من العلاقة المنطقية الجدلية بينهما⁽²⁾.

وتمتلك الجزائر أنا يميزها، تعج بأشكال من الأنا⁽³⁾ تتمثل في بقايا العصبية القديمة كالعروشية والقبلية واللغوية، وهي كثيرا ما تدخل في علاقة تنافس وتنافر، وهذه الأشكال من الأنا تحول دون دخول الجزائر عصر الحداثة في وجود ذات مواطنة متممة تعي واجباتها وحقوقها، ولعل المرجع الديني هو المكون الهوياتي الوحيد المشترك بين الجزائريين، وهذا ما يبرز في الصور التالية:

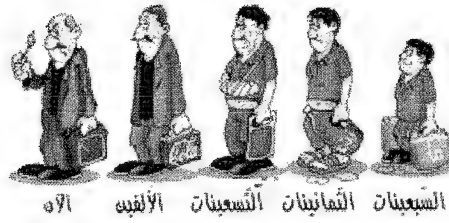
(1) نورمان فار كلوف، تحليل الخطاب، ص 298.

(2) فاركلوف، نفسه، ص 298.

(3) يصفها الدكتور ابراهيم سعدي بالأنا الدنيا.

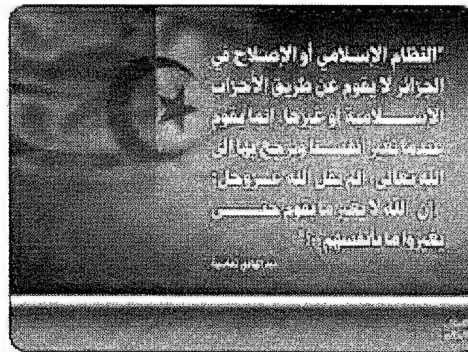


فصة الجزائري مع "البديهة" ..



هي صور أخرى تظهر الجزائري في قوة الاندفاع والنشغال بأمر حياتية يحياها أي شخص ولكن هذه الصور أرادت منه شخصا لا. مبال مندفع يريد أن يفعل ولا يقدر، ومنه يجب القول «إذا كانت الدعوة إلى العقل تتيح الصمود في وجه عصبوية ونزعة بيئية مغاليتين، فإنها تتيح أكثر ارتباط الذات الفاعلة - الحرية والذات الفاعلة - الجماعة المنصهرة، التي هي أيضا ذات فاعلة واعية بانتمائها لوسط طبيعي (3)» فالعقلانية أساس لروح الحرية ضد إكراهات الجماعة المنصهرة العصبوية.

والدفاع المنطقي العقلاني ضد كل هذه الأمور يتحقق من الرأي الذي تفوق معرفته العلمية مستوى أكثر من المتوسط، يعمل على ترويع الهوية بكل زواياها الموروثة والمكتسبة والمرجوة. ولكن تتعمق هوة الهوية الجزائرية في الصور الآتية:



إن كلمة جزائري، في هذه الصور، هي تسمية مشتركة تدل على الأنا الجماعي، تقوم الأنا الجماعية "جزائري" على مرجعين: المرجع الديني المتمثل في الإسلام، والمرجع

العصبي القبلي، الذي يعتبره ابن خلدون أساس التجمعات البشرية في مجتمعات المغرب العربي.

ففي الصورة الأولى، نقول: إن الكون الهوي للفرد يعبر عن خصوصيته، ويجلي أسطوره الشخصية فيما يخص تامين أهواء أو بحسها؛ فالإرادة هي أساس مأساة الإنسان، لأنه عندما تكون الرغبة غير مشبعة ينتج عنها الضجر والازدراء، فيتولد الإحباط والعذاب. وهكذا فعادة ما ترتبط الإرادة باللامعنى والعيب والتناحر. «إن هذه التغيرات في المواقع تقتضي منهجا ممكنا لدراسة العلاقات بين النص والنص المحيط والسياق»⁽¹⁾.

ولقد تبلورت إشكالية ثقافية نابعة من الممارسة اللغوية المزدوجة بعد الاستقلال، فقد تم استثناء المكون الأمازيغي للشخصية الجزائرية مما أدى إلى الحيلولة دون قدرة الأنا الرسمية على أن تجمع حولها الأنا الاجتماعية الجزائرية؛ الأمر الذي أوجد صراعا محتما بين الذات الأمازيغية - كجزء جزائري - والأنا الجماعية ببعدها العربي.

فكانت صور الأعياد شكلا من أشكال استدعاء الآخر، قصد ممارسة وظيفة الدمج وتحقيق التعايش في ظل هذه الازدواجية، لذلك يرى عمر أرجان في الهوية الجزائرية انعكاسا مقلوبا لهوية الآخر، أي الاستعمار⁽²⁾.

والملاحظ لهذه الصور يجد توظيف عناصر الهوية الجزائرية ضد بعضها البعض، بحيث صار الجزائري

يبدو للجزائري في صورة الآخر، ناهيك عن الآخر الفعلي (العربي/ الغربي). ولعل هذا ما دفع آلان تورين إلى القول بأن «الذين يحسون أنفسهم محتاحين بثقافة أو مصالح اقتصادية قادمة من الخارج، يتجمدون في الدفاع عن هوية منقولة يحسون أنهم يمتلكونها بدل أن يخلقونها، ولكن هذا التأكيد على الهوية مصطنع»⁽¹⁾.

(1) غريماس وفونتاني، نفسه، ص 149.

(2) إبراهيم سعدي، صورة الأنا والآخر، ص 108.

إن تحديد الهوية في الصورة كخطاب معقد متشابك هو في آن معا مسألة فردية وجماعية، عدد من الـ "أنا" و/ أو الـ "نحن" الممكنة، فالأنا التي ترسم وتثير معان تختلف عن الأنا التي تصور، والتي توجه الأنظار إلى معنى معين وهكذا؛ فما يجب أن يفعله الفرد هو الانطلاق من نقاط القوة عنده، وبناء هويته بما يتلاءم مع موقعه المتخذ بشكل منسجم ومكتمل بشكل يصل به إلى الآخر.



رائي هذه الصور سيصله انطباع أن الجزائري كسول متخاذل حتى وهو يحلم بالمهن والقضايا المصيرية التي تتحكم بأرواح الناس، إذ يمكن بلوغها بالنوم والاعتكاف على الآخر القوي، وأنه يمتن بعض الأشغال الخاصة بلا رخصة في الشارع، وهي ظواهر لا يكاد ينعم

منها مجتمع في العالم، وأنه شخص لا ييالي بقضايا مجتمعه متملص من كل مسؤولياته، فينعدم هنا شرط التداول اللغوي؛ كون الدفاع عن تقليد ثقافي بعيد جدا عن تأكيد الهوية لذا يتحدد إلا بالتعارض مع تهديد أجنبي وبالوفاء لتنظيم اجتماعي (4).

إن المعرفة الضرورية لإنجاز بعض الأفعال، والمواقف المهمة لتنظيم هذه الأفعال وتأويل الواقع الاجتماعي ستتشكل قبل المعرفة والمواقف، التي ليس لها بعد اجتماعي⁽¹⁾، كأفعال ترسيخ الهوية؛ فلكل فئة مجتمعية مشاركة مجموعة محددة نسبيا من الأفعال اللغوية المحتملة، بالنظر إلى مقام نمطي، ويستحسن أن تكون أفعال الهوية منسجمة مع الفكر التأويلي الذي يكونه الشخص عن نفسه وعن علاقاته مع مجموعته الاجتماعية.

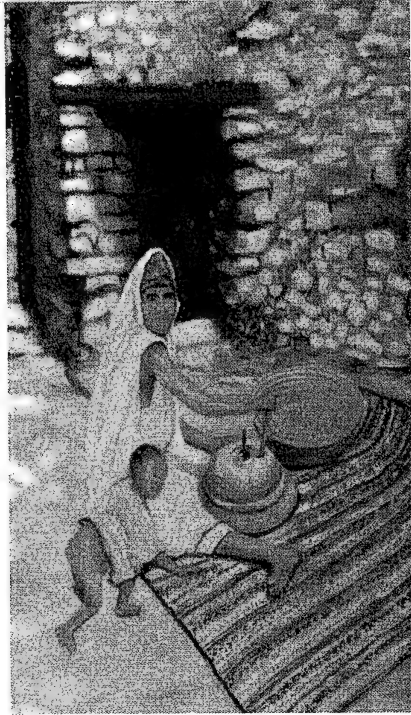
إن السياق المعرفي للصورة عمل على تحديد ذاكرتها، واستراتيجياتها وغير ذلك من الأمور، التي تفهم منها، ويعاد إنتاجها من خلالها؛ ذلك أن الاستعداد المعرفي لمستقبلي الصورة: من رأي ومصلحة ومهام ورغبات وغير ذلك من مكونات المعرفة الثقافية، يمارس تأثيرا نافذا في عملية فهم الصورة ومعالجتها، كون تحريك المعرفة والرأي والموقف والسلوك إزاء مثل هذا النوع من الخطابات يعمل على رسم هوية قد لا تكون حقيقية، إذا لم توضع في سياقاتها المحددة.

2- الهوية والصورة الضوئية:

الصورة وخاصة الصورة الضوئية ثقافة ونشاط أشمل يمارسه الفرد لإيصال فكرة عن هويته في سلوك وأسلوب ونمط شخصه المنتخبة؛ نعمد كمتلق إلى تفكيك رموزها وتميزها وتفسيرها ونختار في ذلك ما يتفق مع ثقافتنا، والحاجات التي نريد إشباعها. كما نعمد الآخر إلى تكييف رموزها مع حاجاته، ومع ما يتفق من معتقداته.

(1) فان ديك وآخرون، نظرية الأدب في القرن العشرين - مقال: النص: بنياته ووظائفه (مدخل أولي إلى علم النص)، ترجمة:

محمد العمري، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 1996، ص73.



تظهر هذه الصور هوية موروثية لا علاقة لها بالهوية المكتبة أو المرجوة ولا حتى المتحققة فعلا، لأن من يأتي إلى الجزائر فسيجد المظاهر التي تفعلها هذه الصور هي مظاهر يندر وجودها في المجتمع الجزائري، لأنها تعبر فقط عن الموروث لا تطور فيها ولا تطوير، فلقد أنتجت النخبة المثقفة تنظيرا خاصا ضيقا في قضايا الهوية الجزائرية لتكوينها الثقافي المتميز عامة عن ثقافة الشعب أي أنها أنتجت تصورات على مقاسها الخاص في مجال الهوية⁽¹⁾، ما يسمى الهوية النخبوية، وهي ضيقة تفرز تهميشا وإقصاء وتوترا في الأنا الجماعية؛ كونها لم تعتبر الشعب في يوم من الأيام مصدرا لتنظيراتها عن الهوية، الأمر الذي جعل البعض يعتقد أن الشعب الجزائري لا يملك هوية اجتماعية مشتركة، بل هويات متعددة (تبرز في مطالبة الجزائري بأن يعترف بالجزائري كآخر، فهل يعقل هذا؟! ومنه: من هو الجزائري إذن؟).

إن الثقافة تؤدي وظيفة حيوية في تشكيل السلوك البشري.. وأنها تتحكم في الأنماط السلوكية المنبثقة عن الشخصية⁽²⁾ وهي الخلفية الفكرية والمعرفية والاعتقادية للسلوك. وعلى حدّ تعبير صلاح فضل: "تسمي ثقافة تلك العناصر التي ترقى من مستوى القوة إلى مستوى الفعل، من الكمون إلى الظهور، أي تلك التي تمارس فعاليتها في السلوك، وتطبع تصرفاتنا بطابعها وتتحكم في كيفية رؤيتنا للظواهر وشعورنا بها، تلك التي توجه مواقفنا وتؤلف المزيج الخاص الموظف لتكوين نظرتنا للكون والحياة"⁽³⁾.

تلك هي العناصر التي من المفروض أن يتولى المبدعون بلورتها وتجسيدها في أصفى أشكالها وأقواها تعبيرا عن ضمير الجماعة/ عن الهوية الجماعية، ولكن قد تسلك هذه العملية أحد السبيلين⁽³⁾:

1- أن تعتمد إلى تكريس منظومة القيم القارة، وتأكيد أليتها، وضرورة الاستجابة النمطية لها في حالة قصور عن التكيف مع المعطيات الجديدة، والتطور والتجدد والتحضر،

(1) ابراهيم سعدي، نفسه، ص 110.

(2) عامر مصباح، الإقناع الاجتماعي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط 2، 2006، ص 52.

(3) بنظر: صلاح فضل، المرجع نفسه، ص 345-346.

وهذا تصور غالبا ما يرضي أصحاب السلطة السياسية والإيديولوجية المسيطرة، كونه لا يمثل خطرا عليهم، إنه تصور مشوه فاقد للطابع الثقافي الصافي.

2- أن يعمد الإبداع إلى أداء وظيفته في البلورة الحقيقية للوعي الجماعي في تطلعاته وأشواقه ومشروعاته المستقبلية البناء، فيعيد ترتيب العناصر الفاعلة في اللوحة الآنية كي تنتج غدا أفضل، لا ذلك الغد المستنسخ من اليوم؛ أي هوية حقيقية للجماعة تكون قد تخلصت من شوائب الهوية النخبوية المشوهة اللا. حقيقية، وغير طائعة لمنطق الهوية الأصل.

العامل الثقافي عنصر أساس في تحديد الهوية الاجتماعية والوطنية، واللغة أهم عنصر من عناصر الثقافة والثقافة هي اللغة، فثقافة أي مجتمع مرتبطة ارتباطا وثيقا بنمط اللغة والأسلوب المتبع فيها.

علينا أن نتصور الثقافة في لحظة ممارسة التراث الكامن لتأثيره على الوعي من خلال الفعل المحدد؛ ذلك أن الثقافة هي ذلك الكل المعقد الذي يشمل المعرفة والمعتقدات، والفنون، والقانون، والأخلاق، والعادات والعرف، وكافة المقدرات والأشياء الأخرى التي تؤدى من جانب الإنسان باعتباره عضوا في المجتمع⁽¹⁾؛ فهي فعل اجتماعي يقوم به الإنسان ويشمل كل نشاط يقوم به، أو يتأثر به من خلال احتكاكه بالمجتمع وتواصله معه.

يقول شيالدينبي «إننا جميعا نخدع أنفسنا من وقت لآخر حتى تظل أفكارنا ومعتقداتنا مطردة مع ما سبق أن فعلناه أو قرّرناه»⁽²⁾؛ فالوعي النقدي بالحياة عنصر أساس من عناصر الهوية بل هو الموجه لحركتها، والفاعل في تكوين بنيويتها، وتغيبه هو تغيب للهوية الأصل؛ ذلك أن الوسيلة الوحيدة للعلم بظاهرة ما، والسيطرة عليها هي رؤيتها في تولدها وتحركها، واختيار إمكانات التدخل في مسارها⁽³⁾.

(1) حسين عبد الحميد رشوان: الثقافة، دراسة في علم الاجتماع، مؤسسة الشباب، الإسكندرية، 2006، ص 05.

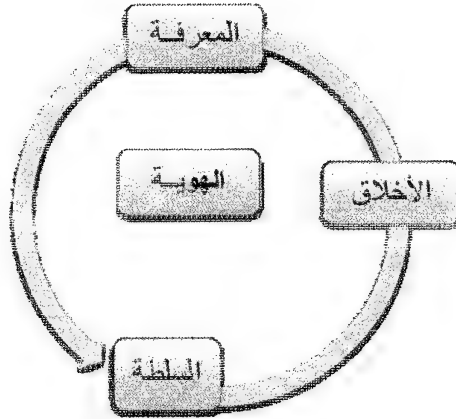
(2) روبرت شيالدينبي: التأثير، وقائع الإقناع، ترجمة: سعد جلال، دار الفكر، القاهرة، 1988، ص 244.

(3) بنظر: صلاح فضل، المرجع نفسه، ص 345-346.

ويقول أيضا «إن ضغوط الاطراد تعتصر الصورة عن الذات من الجانبين، فيكون هناك ضغط من الداخل لجعل الصورة عن الذات مسائرة للفعل، ويكون هناك ضغط أخبث من الخارج، وهو النزعة لتكثيف هذه الصورة تبعا للطريقة التي يدركنا بها الآخرون، ولما كان الآخرون يروننا على أننا نعتقد فيما قد كتبناه (حتى ولو كان بسيطا) فإننا سنعاني مرة ثانية من جذب حتى تساير صورتنا الإقرار المكتوب»⁽¹⁾.

والحقيقية أن الصورة تظهر الهويتان من حيث لا ندرى، ذلك أن تحديد الهوية من خلالها ليس مجرد سيرورة خطابية، ولا مسألة تشكيلية (إيقونية/ لغوية) ليتحقق الرأي القائل أن هوية الذوات هي نتيجة خطاب، بل هي مشيدة في الخطاب؛ باعتبار هذا الأخير مكونا ثقافيا متغيرا من مكونات التفاعل الاجتماعي، فإنه يمثل في حد ذاته ظاهرة ثقافية يمكن أن تستخرج منها بعض الخلاصات التي تهتم البنية الاجتماعية للمجموعات الثقافية⁽²⁾.

لتدخل الذات في صراع مستمر؛ في البحث عن سيورات تحدد هويتها، وبخاصة في تشكيل الوعي الذاتي، فعلى هذه الذات أن تعي حقيقتها، قدرتها، موقعها؛ فهوية الشخص هي في نهاية الأمر هوية للمجتمع بأكمله. تخضع الصورة من حيث منطق السيطرة على الهوية بمختلف أنواعها إلى علاقات معينة (بين ذوات المجتمع):



(1) شالديني، نفسه، ص 87.

(2) قان ديك وآخرون، نفسه، ص 76.

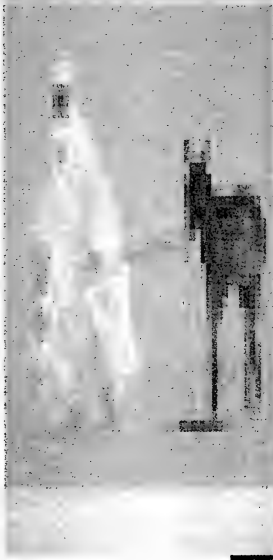
لنتساءل: كيف نتشكل كمواضيع لمعرفةتنا؟ كيف نكون ذواتا أخلاقية تنبع من أفعالنا

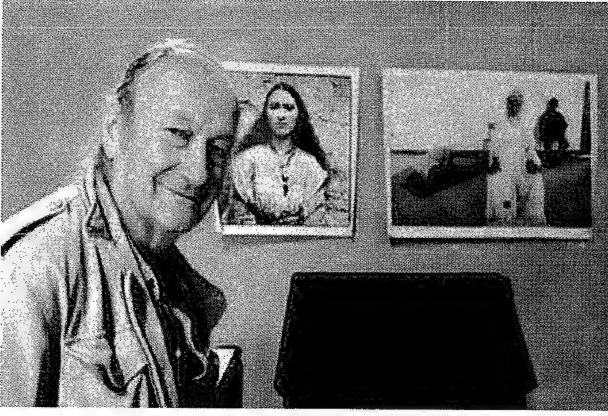
وممارساتنا؟ أي كيف نكون ذواتا أخلاقية تعرف وتخضع لعلاقات سلطوية فيما بينها؟

لتظهر الصور استعداد الذوات المجسمة والذوات المشاركة لرؤية الأمور والتعرف

بطرق معينة استنادا إلى انخراطهم في المجتمع وتجربتهم، وانخراط الذوات الأخرى في سبيل

تحديد الهوية، ورسم معالمها، خاصة وأنها ذوات دخلت في علاقات سلطوية بعضها ببعض.



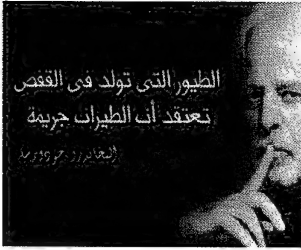


إن الصورة الضوئية باتت تعادل قوة الكلمة وسلطانها، في الترويج للهوية: وعليه نتساءل هل تصور لنا الهوية أم أنها تسلب منها الروح، وتمنحها المعنى المضاد، على الرغم من أنها أهم وسائل الإيضاح، والعنصر الأساس في استجلاء عمق الظاهرة، إذ يجد الرائي معاني كثيرة في كل هذه الصور، تسهم جميعها في تحديد الهوية بنوعيتها: الشخصية والاجتماعية. وهو الأمر الواضح في الصورة الأولى أين نجد الهوية الموروثة تسيطر على الهوية الراهنة المكتسبة منها والمرجوة، في حين كان على راسم اللوحة تطويرها وتقديمها بشكل يقربها للمشاهد، وذات الأمر نجده في الصورة الثانية والتي يظهر فيها الجزائري شخصا حافيا برفقة حمار وهي صورة في اعتقادنا بعيدة جدا عما هو موجود، وزائر الجزائري سيدرك ذلك حالما يحل ضيفا سائحا عليها، وفي الصورة الثالثة يجد رائي الصورة "الجزائر" ممثلة في علمها تحمل معاني الظلام والعتمة والاختباء واللا. وضوح؛ فإمكانية وصف سيرورة تقود بين أبسط الأشكال الوجودية للقيم وأكثرها تجريدية إلى مستويات تتميز ببعد تشخيصي مرئي ومتحقق في فعل إنساني مدرج ضمن وضعيات تستوعب هذه القيم وتمنحها وجودا مخصوصا ولقد أطلق على هذه السيرورة المسار التوليدي وهذا المسار دال في الوقت ذاته على ترتيب خطي موجه نحو غاية، ويتحقق من خلال خطاطة سردية وعلى دينامية داخلية

تحدد النص (الواقعة) باعتبار تفاعل مستوياته لا باعتبار المضامين الدلالية التي يحملها؛ فالبنيات الأولية لا تتحدد من حيث وجهها الحقيقي إلا من خلال تجسدها⁽¹⁾.

إذن، تنطوي سيرورة تحديد الهوية على نتائج مرتبطة بتشكيل الصورة كخطاب، إذ يجب اعتبارها سيرورة منطقية جدلية يتم من خلالها ترسيخ ضروب خطاب الهوية؛ لأن الإنسان لا يملك هويته الإنسانية إلا إذا أحس بالمساواة مع غيره المختلف عنه بدوره⁽²⁾.

كما أن الصور المنتقاة قد شكلت مرجعيات مختلفة للهوية الجزائرية المشوهة، على الرغم من أنها كانت من الواجب عليها الخروج من "فكر نقدي" يعمل على تفكيك التراث، وتحريك الراهن فيها؛ إذ كان على الصور الاندماج في الحلم أو المشروع الحي كما يعيشه الناس الخاصة والعامة، لا فقط كما تعيشه الخاصة. كما كان يجب التأصيل الفكري داخل واقع الصورة لينبع من باطنه وتزول عنه تهم الدخيل والاستلاب.



وأخيرا، إذا أردنا تأسيس هوية جزائرية حية بدل الهوية النخبوية الصورية، التي تثيرها بعض الإبداعات الجزائرية المعاصرة النخبوية، وجب استخلاصها من واقع الجماعة بما تشكله كلمة جماعة من مرجع ومفهوم، لأن المفكرين والمبدعين درجات وأمزجة، ولا يجب ترك الهوية رهينة الهوى والمزاج والطبقية؛ فالهوية التي تولد في قفص الصورة ستعتقد دوما أن الطيران جريمة؟.

(1) غريماس وفونتانتي، المرجع نفسه، ص 25.

(2) الميلودي شغموم، التخيّل الهوية، ص 27.

إنّ السيميائي في اشتغالها بالعلامة عالم ساحر، يشعر كل من يدخل فيه أنه في دنيا العجائب، يتوجب عليه دوماً التسلح برؤى ناقدة وفكر حاد يمكنه من الوقوف على حيثيات اشتغال العلامات المراد استنطاقها.

ومنه، ففهم و تأويل النص يختلف من قارئ إلى قارئ من زمان لزمان، و من مكان لمكان، و هذه هي تعددية القراءة التي تقضي نصاً انفجارياً منفتحاً على قراءة محتملة، لتكون مقارباتنا مقاربات تثبت للقارئ السيميائي أن هذا المجال مازال في جعبته الكثير، أمام هذا الزخم الخطابي والتطور الهائل لوسائل التعبير المتاحة والممكن إنجازها.

وأخيراً، وانطلاقاً من مقولة: إنّ الأفكار الكبرى تأتي من القلب؛ فمن القلب فكرة، ومن الفكرة ذكرى، وفي الذكرى نسيان، وفي النسيان ذاكرة، وفي الذاكرة حاجة، وفي الحاجة إبداع، ومنه توجب على السيميائيين أن يعيدوا النظر في تنظيم المسار التوليدي الذي يمثل حالة افتراضية ونشاطاً قيد الإنجاز. ويعملون، بهذا الصنيع، على تصحيح مكان الخلل وتعزيز مواطن القوة، حتى تغدو النظرية خطاباً منسجماً وشاملاً، أمام هذا التعدد والتنوع الخطابي، لأن السيميائي علم مازال بأبحاثه يثبت للجميع أنه البحث في اشتغال الدلالة، ومازلنا نحتاجه، والحاجة متبادلة، لتأسس معارف لا يؤسسها غيره، زهرة أينما زرعت تنمو؛ قوامها المنهجية العلمية الصارمة والبحث الدلالي، ويستحيل كبشر أن نتواصل بدون هذين الجناحين، وعليه فهي بحث يحتاج دوماً للتطور والتأقلم، والمناداة بنسيانه ستجد نفسها حائرة منتقلة من نسيان السيميائي إلى سيميائي النسيان؟؟.

- القرآن الكريم

أولاً: الكتب العربية والمترجمة:

- 1- سارة ميلز، الخطاب، ترجمة: يوسف بغول، منشورات غبر الترجمة في الأدب واللسانيات، جامعة متنوري، قسنطينة، 2004.
- 2- الجيرداس، ج، غريماس، وياك فونتاني، سيمياء الأهواء من حالات الأشياء إلى حالات النفس، ترجمة وتقديم وتعليق سعيد بنكراد، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ط1، 2010.
- 3- عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة (تداخل الأنساق والمفاهيم ورهانات العولمة)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1999.
- 4- أبو هلال العسكري، الصناعتين (لا الكتابة والشعر)، ت / علي محمد البجاوي ومحمد أبو فضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1986.
- 5- ابن منظور الإفريقي المصري (جمال الدين ابن مكرم)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 1997.
- 6- أحمد رضا، معجم متن اللغة، منشورات دار الحياة بيروت.
- 7- جوليان بروان وجورج يول، ترجمة: محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 1418/1997.
- 8- عاطف جود نصر، النص الشعري ومشكلات التفسير، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان / مكتبة لبنان ناشرون، مصر/ بيروت ط1، 1996.
- 9- السعيد بوطاجين، الاشتغال العملي، دراسة سيميائية، غدا يوم جديد لابن هدوقة، عينة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2000.
- 10- موسى عمايرة وآخرون، مقدمة في اللغويات المعاصرة، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2000.

- 11- فرحان بدوي الحربي، الأسلوب في النقد الحديث -دراسة في تحليل الخطاب - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2004.
- 12- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان)، القاهرة، ط1، 1996.
- 13- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناس)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1983.
- 14- عبد المالك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، دار الكتاب العربي، الجزائر، أبريل 2001.
- 15- سميد حميداني، القراءة وتوليد الدلالة (تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2003.
- 16- إبراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي (دراسة تطبيقية) دار الآفاق، الجزائر، ط1، 1999.
- 17- الشاهد البوشيخي، مصطلحات نقدية و بلاغية في البيان والتبيين للجاحظ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 1.
- 18- إحسان عباس، فن الشعر، دار صادر، بيروت، بيروت، دار الشروق، عمان، ط1، 1996.
- 19- منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، سوريا، ط1، 2002.
- 20- الطاهر وطار، العشق والموت في الزمن الحراشي، الكتاب2، دار ابن رشد بيروت، ط1، 1980.
- 21- الطاهر وطار، الشمعة والدهاليز، الجاحظية، الجزائر، الطبعة الأولى، 1955.
- 22- الطاهر وطار، الحوات والقصر، دار البحث للطباعة و النشر، قسنطينة، ط1 1980.
- 23- الطاهر وطار، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، منشورات التبيين الجاحظية، سلسلة الإبداع الأدبي، ط 1، 1999، الجزائر.

- 24- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العلمية للشباب الإسلامي، ط2، الرياض، 1992.
- 25- محمد بنيس، الشعر العربي الحديث (بنايته وأبدالاتها) 1-التقليدية، دار توبقال للنشر، لدار البيضاء، المغرب، ط 3، 2001.
- 26- مجاهد عبد المنعم مجاهد، جماليات الشعر العربي المعاصر، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط 1 1997.
- 27- جيرار جنيت، مدخل إلى جامع النص، ترجمة عبد الرحمان أيوب، دار توبقال، المغرب، ط 2، 1986.
- 28- حسن محمد حماد، تداخل النصوص في الرواية العربية (بحث في نماذج مختارة)، دراسات أدبية، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- 29- مراد عبد الرحمان مبروك، جيويوتكا النص الأدبي-تضاريس الفضاء الروائي، دار الوفاء، الإسكندرية، ط6، 2002، ص124.
- 30- حميد لحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط3، 2000.
- 31- قدور عبد الله ثاني، سيميائية الصورة (مغامرة سيميائية في أشهر الإرساليات البصرية في العالم)، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2005.
- 32- علي جعفر العلاق، الشعر والتلقي، دار الشرق، عمان، ط1، 1997.
- 33- الجرجاني (علي بن محمد)، التعريفات، دار الكتاب اللبناني المصري، بيروت، القاهرة، ط1، 1991.
- 34- أحمد عبد الدايم (ت 756 هـ)، عمدة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ج4.
- 35- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) المركز العربي، بيروت، 1992.
- 36- أنور المرتجي، سيميائية النص الأدبي، إفريقيا الشرق، المغرب، 1987.
- 37- عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة (من البنيوية إلى التفكيكية)، الكويت، 1998.

- 38- نور الدين السد، الأسلوبية و تحليل الخطاب (تحليل الخطاب الشعري والسردي)، ج 2، دار هومة، الجزائر.
- 39- عمر أوكان، مغامرة الكتابة لدى بارث، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1996.
- 40- مارك انجينو وآخرون، في أصول الخطاب النقدي الجديد، ت / أحمد المديني، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط 2.
- 41- رولان بارث، لذة النص، ت / فؤاد الصفا والحسين سبحان، دار توبقال للنشر، المغرب، ط 1، 1988.
- 42- فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، بيروت/الجزائر، ط 1، 2010.
- 43- جيرار جنيت، مدخل إلى جامع النص، دار توبقال، المغرب، ط 2، 1986.
- 44- جاك فونتاني، سيمياء المرئي، ترجمة: علي أسعد، دار الحوار، سورية، ط 1، 2003.
- 45- أ.د. ألكس مكيلي، الوجيز في سيمياء المواقف، ترجمة: وحيدة سعدي، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عناية، الجزائر، 2008.
- 46- محمد خطابي، ليسا نيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب)، المركز الثقافي العربي، ط 1، 1991.
- 47- عبد القدر عبد الجليل، الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط 1، 1422 / 2002.
- 48- عبد الحميد هيمة، علامات في الإبداع الجزائري، ط 1، 2000، سطيف، الجزائر.
- 49- سامح الرواشدة، فضاءات شعرية، المركز القومي للنشر، الأردن.
- 50- زكي نجيب محمود، المعقول اللامعقول في تراثنا العربي، دار الشروق، ط 3، 1981.
- 51- سارة آل سعود، نظرية الاتصال عند الصوفية، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة السعودية، ط 1، 1991.
- 52- واسيني الأعرج، الطاهر وطار، تجربة في الكتابة الواقعية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.

- 53- عبد القادر فيدوح، الرؤيا والتأويل (مدخل لقراءة القصيدة الجزائرية المعاصرة)، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1.
- 54- : بشرى البستاني، قراءات في النص الشعري الحديث، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط2، 2002.
- 55- عبد الملك مرتاض، عناصر التراث الشعبي في اللاز، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ط1.
- 56- صادق ابراهيم عرجون، خالد بن الوليد، دار السعودية للنشر و التوزيع، ط1، 1403هـ- 1986م.
- 57- أدونيس، الصوفية والسريالية، دار ساقى، بيروت لبنان، ط1، لبنان، 1992.
- 58- فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، دار العربية للعلوم، ط1، الجزائر العاصمة، 2010.
- 59- صلاح فضل، النظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1980.
- 60- محمد عزام، شعرية الخطاب السردي، دراسة- دار اتحاد للكتاب العرب، دمشق، 2005.
- 61- عبد المالك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، منشورات اتحاد الكتاب، دمشق، 2005.
- 62- جمال شحيد وليد قصاب، خطاب الحائنة في الأدب (الأصول والمرجعية)، دار الفكر، سوريا، ط1، 2005.
- 63- حسن البحراوي، بنية الشكل الروائي، الفضاء، الزمن الشخصية المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، لبنان، 1990.
- 64- ابراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي، دراسة تطبيقية، دار الأفاق، ط1، الجزائر، 1999.
- 65- علي زغينة، المحاكمة (مجموعة قصصية)، الجاحظية، الجزائر.

- 66- سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي (الزمن، السرد، التبئير)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 1997.
- 67- حميد حميداني، بنية النص السردى من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2000.
- 68- عبد الله إبراهيم، المتخيل السردى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 1999.
- 69- محمد القاضي، تحليل النص السردى بين النظرية والتطبيق، دار الجنوب، 1997.
- 70- محمد الداوي، سيميائية السرد، بحث في الوجود السيميائي المتجانس، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2009.
- 71- فريد الزاهي، النص والجسد والتأويل، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2003.
- 72- مصطفى طاهر الحياذرة، من قضايا المصطلح اللغوي، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، ط1، 2003.
- 73- سعيد بنكراد، سيمولوجيا الشخصيات الروائية، دار الكلام، الرباط، المغرب، 1990.
- 74- سعيد بنكراد، مدخل إلى السيميائيات السردية، تانفيست، مراكش، المغرب، ط1، 1994.
- 75- سعيد بنكراد، السيميائيات والتأويل (مدخل لسيميائيات بورس)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2005.
- 76- آلان تورين، نقد الحداثة، ترجمة عبد السلام الطويل، مراجعة محمد سيلا، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2010.
- 77- شهرزاد تبوح بشجونها، مجموعة قصصية (إبداعات قصصية لنخبة من كاتبات العربي)، الكاتب الواحد والأربعون، 15 يوليو 200، الطبعة الأولى، مجلة العربي، كتاب العربي، وزارة الإعلام، الكويت.
- 78- فاركلوف، تحليل الخطاب (التحليل النصي في البحث الاجتماعي)، ترجمة طلال وهبة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2009.

- 79- جماعة مو (فيليب مانغنيه وآخرون) بحث في العلامة المرئية (من أجل بلاغة الصورة) ترجمة: سمر محمد سعد، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2012.
- 80- بيار بورديو وآخرون، اللغة (الرأسمال اللغوي والجسد)، ترجمة محمد سيلا وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 2012.
- 81- عبد المجيد العابد، السيميائيات البصرية (قضايا العلامة والرسالة البصرية) الشركة الجزائرية السورية للنشر والتوزيع، ط1، 2013

المجلات والدوريات:

- 82- عبد الكريم درويش، فاعلية القارئ في إنتاج النص (المرايا الامتنائية) مجلة الكرمل، مؤسسة الكرمل الثقافية، فلسطين، صيف 2000، العدد 64.
- 83- ك. لوبي ألونسو وأسير دي الموس، لسانيات الخطاب (حوار مع باتريك شار ودو). ترجمة: محمد يحياتن، مجلة اللغة العربية الفصلية، المجلس الاعلى للغة، الجزائر، 1999، العدد الثاني
- 84- المصطفى الشاذلي، سيميائيات التلقي في مقاربة نص السيرة الشعبية (سيرة بني هلال أمموذجا)، من قضايا التلقي والتأويل، جامعة محمد الخامس، المغرب، مناظر رقم 36، ط1، 1994.
- 85- صدوق نور الدين، في النص وتفسير النص، الفكر العربي المعاصر (نص النقد / نص النقد)، مركز الإنماء القومي، بيروت، حزيران 1990، عدد 76 / 77.
- 86- عبد الفتاح نافع، جماليات اللون في شعر ابن المعتزة، مجلة التواصل، العدد الصادر في 04 جوان 1999،
- 87- عياش يحياي، حوار مع الروائي الطاهر وطار، مجلة التبيين، الجاحظية، الجزائر، العدد 15، 2000.
- 88- إسماعيل فهد إسماعيل، الطاهر وطار: المغامرة والحس، التبيين، العدد 15، 2000.

- 89- جميل حمدوي، السيميوطيقا والعنونة، مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني، العدد الثالث، الكويت، ص 108.
- 90- د. محمد خير البقاعي، تلقى رولان بارت في الخطاب العربي النقدي واللساني والترجي، مجلة عالم الفكر، المجلد 27، العدد 1، سبتمبر 1998، الكويت
- 91- عبد الواحد لؤلؤة، من قضايا الشعر العربي المعاصر مع الشعر الغربي، مجلة الوحدة، السنة السابعة، العدد 82 / 83.
- 92- يوسف زيدان، الشعر الصوفي - نموذج الإمام أبو العزائم، و أحمد الشهاوي -، مجلة: "فصول" العدد الثاني، المجلد 15، صيف 1996.
- 93- يوسف زيدان، الشعر الصوفي المعاصر "مجلة الفصول"، العدد 02، المجلد 15، صيف 1996.
- 94- عبد الرحمن مزيان، الأزمة الجزائرية في الرواية الأخيرة، مجلة التبيين، العدد 15
- 95- مخلوف عامر، اثر الإرهاب في الكتابة الروائية، عالم الفكر، مجلد 28، العدد 1، مطابع الكويت، سبتمبر 1999.
- 96- بسام بركة، النص الروائي: المعنى وتوليد المعاني، الفكر العربي المعاصر، دار الإنماء القومي، بيروت، العدد 42، تشرين/ كانون الأول، 1986.
- 97- رباب النجار، مراجعة كتاب "وعي الذات وصدمة الآخر" لأنطوان سيف، البحرين الثقافية، المجلد 11، العدد 38، مارس 2004.
- 98- صلاح فضل، إشكالية المصطلح الأدبي بين الوضع والنقل، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، شعبة اللغة العربية وآدابها، فاس، عدد خاص 4 (ندوة المصطلح النقدي وعلاقته بالعلوم)، 1988.
- 99- الجيلالي كدية، الترجمة بين التأويل والتلقي، ندوة الترجمة والتأويل، جامعة عمدة الخامس، كلية الآداب، الرباط، المملكة المغربية، ندوات ومناظرات، رقم 47، 1995.
- 100- عبد الله موسى، حضور المرأة في الكتابات الفلسفية، مجلة الثقافة (الرواية الجزائرية.... مسارات وتجارب)، العدد الجديد بعد 118، فيفري، 2004، تصدر عن وزارة الاتصال والثقافة.

ثالثا. الكتب باللغة الأجنبية:

- 1- Larousse ;(dictionnairedefrancais) France ;1997
- 2- Gerard Genette ,seuils , edseuil,col poétique paris ,1987
- 3- r- Ducrot Oswald, les mots du discours, éditions de minuit,
Paris, 1981, 7
- 4- Helmut Filbert, Terminological Manual, Paris, 1984, (1)
- 5- ed/hachette université ;et J courtes. Dictionnaire sémiotique
- 6- A.J. grimas J ,1979 raisonne de la théorie du langage. Tome
1 ;
- 7- Larousse ; Dictionnaire de français_60000mots définitions et
exemples ;présente édition ; France ; 2008 ,
- 8- David Hume, réflexions sur les passions, traduction revue par
Corinne Hoogaert, représentation et commentaire de Michel
Meyer, le Livre de Poche, 1990.
- 9- Herman Perret, Les passions essai sur la mise en discours de la
subjectivité, Mardaga, 1996, P13_14.
- 10- Ch. S Pierce , Ecrits sur le singe,ressemblés traduis et
commentés par Gérard Deledalle, Seuil,Paris,1978
- 11- Merleau-Ponty ,Phénoménologie de la perception, Gallimard-
Tel, Paris,1945.



Semiotic and Discourse Analysis

modernworldbook

نص الغلاف:

الباحثة في سطور:

الدكتورة نعيمة سعدية

من مواليد مدينة الصحابي الجليل عقبة بن نافع الفهري. تسمى "سيدة عقبة" التابعة
لولاية بسكرة. متحصلة على شهادة الليسانس جوان ٢٠٠١، وشهادة في الاعلام
الآلي (Micro-Numidia-Attestation) ٢٠٠٢، وشهادة الماجستير سنة ٢٠٠٢، في علوم
اللسان العربي.

و شهادة الدكتوراه في علوم اللسان العربي، من جامعة محمد خيضر بسكرة، سنة ٢٠١٠.
و شهادة التأهيل الجامعي في الادب العربي: عام ٢٠١٢.

للباحثة مقالات وطنية ودولية في مختلف المجالات منها ما نشر ومنها ما هو في طريقه
للنشر، ومشاركات عديدة في ملتقيات وطنية ودولية.

الباحثة استاذة محاضرة في اللسانيات واللسانيات التداولية ولسانيات النص لطيفة
الدراسات العليا.



الطبعة: ٢٠١٢
الطبعة: ٢٠١٢
الطبعة: ٢٠١٢

